الواقع القصصي في الوطن العربي
٤٧ قصة من ١٤ بلداً عربياً

مدمرو القلاع القديمة
مشيدو القلاع الجديدة

■ حظيت القصة القصيرة كلون من ألوان التعبير الأدبي باقبال عدد كبير من الأدباء العرب وخاصة في الستينات.

وتمكن بعضهم من تحقيق انجازات باهرة تجلت في تجديد تناول الشكل والمضمون، ثم ما لبث ذلك الاقبال أن شهد بعض الفتور لعدة أسباب منها:

- تضاؤل عدد دور النشر المعنية بنشر المجموعات القصصية.

- انصراف المجلات الاسبوعية عن تخصيص صفحات منها لنشر القصص القصيرة، والشيء نفسه، فعله العديد من الصفحات الأدبية في الجرائد اليومية.

- اهتمام الأدباء الجدد بكتابة الرواية.

ولكن هذا الواقع لا يعني أن القصة القصيرة فقدت احتراماً كانت تتمتع به، فلا يزال الأدباء ينظرون الى القصة القصيرة نظرة تقدير بوصفها جنساً أدبياً يمتلك قدرات تعبيرية لانهائية، تشكل تحدياً حقيقياً لموهبة كل من يقدم على كتابة القصة القصيرة.

واذا كانت القصة القصيرة العربية لم تواجه بعد اتهاماً شبيهاً بالاتهام الموجه الى الشعر الحديث، والقائل بأنه يعاني أزمة ضياع وفوضى لا نجاة منها ولا خلاص، فان الاطلاع على النتاج القصصي العربي الراهن يشير الى أن القصة تعاني ايضاً أزمة هي ليست كأزمة الشعر، ولكنها أزمة تتجلى في عدم ظهور كتاب يضيفون جديداً حقيقياً الى مسيرة القصة العربية.

فما يكتب حالياً من قصص قد يكون ذا مستوى جيد يؤهله للنشر، وقد يكون متمتعاً بنكهة شخصية متميزة، ولكنه مازال يسير في طريق شقّ سابقاً من قبل كتاب قصة آخرين، وليس في مقدور القارىء المنصف ان يصف النتاج القصصي الراهن بأنه قد تجاوز ما سبق أن أُنتج أو أضاف الاضافات الجديرة بالتنويه.

وهذا أمر طبيعي لا يدفع الى الشكوى أو الادانة اذ ليس من المطلوب أن يكون الأدباء أجمعين من مدمري القلاع المشيدة سابقاً، ومن بنائي القلاع الجديدة الشاهقة التي هم مهندسوها وهم مالكوها.

واذا كان هذا العدد الخاص قد كرس كله لنشر ٤٧ قصة من ١٤ بلداً عربياً، فان كل ما نشر من قصص في سبع وعشرين عدداً من (الناقد) هو جزء لا يتجزأ من هذا العدد الخاص الطامح الى التعريف بجوانب مهمة من الواقع القصصي في الوطن العربي.

ومن الضروري الآن التذكير بأن «الناقد»، وهي المجلة الأدبية العربية التي لا تعتمد على نشر النتاج الأدبي المترجم، لا بد لها من الارتباط بالواقع الأدبي في بلادها، وتحاول التعبير عنه، فاذا كان أسود، كانت المجلة سوداء، واذا كان أبيض كانت المجلة بيضاء. أما أي تنظيرات أخرى حول دور آخر وهمي للمجلة فهي مجرد ثرثرة وقور، ولا قيمة لها في المجال الابداعي، بل هي قد تشغل الوسط الأدبي حيناً بأسئلتها وجدالها الأجوف، ولكن الابداع وحده يظل هو الحكم، وهو الحصاد الحقيقي.

ومهمة «الناقد» في رأينا تتحدد بالمساهمة في ايصال ذلك الابداع الى القراء، ونشر التقويم النزيه له، ترويجاً لما هو جيد وأصيل، وفضحاً لما هو رديء ومسيء.

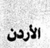
ومن الجلي أن «الناقد» كمجلة ثقافية ليست مصنعاً يتولى تصنيع الأدباء وفق مواصفات معينة ومقاييس محددة تمهيداً لطرحهم في السوق الثقافية.

«الناقد» تفصح عن واقع أدبي موجود، وتنشر ما ينتجه الأدباء، ولكن الغاية التي تسعى لها تنحصر في النشاط في ثلاثة مجالات هي:

- التركيز على ما هو جديد وأصيل.
- العناية بالمواهب الجديدة.
- اتاحة الحرية كي يعبر الأدباء عما يشاؤون.

وهذا العدد الخاص من «الناقد» هو مجرد محاولة للتعريف بالقصة القصيرة في الوطن العربي، ستليها محاولات أخرى في وقت ليس بالبعيد. □

«الناقد»



اتكاءات تحت السنديانة

سامية عطعوط



■ صباحٌ جبلٌ أطلَّ علينا
وشمسُ حزيران تصحو
فتعلو
تعرّي جراحاً تنزُّ بصمتٍ
وتمضي بعيداً
وتنسى الظلال
الجبال لدينا
. . . . .
صباحٌ جبلٌ أطلَّ علينا.

*

وحدي لا اسمع سوى صفير الرياح، حفيف الشجر، تكسّر الفروع، عواء الكلاب، الذئاب، أزيز الصراصير.

الليل يزحف نحوي. أصوات أقدامهم تقترب مني. إنهم يتقدمون. خشخشات العشب تحت نعالهم تخرمش أذني. ها هم يقتربون. أذيالهم طويلة. ها هم أمامي. آه. أذيالهم تقترب مني، تلتف حول عنقي.. تلتف حول... آآآآآخ.... إني أختنق.

صحوتُ على صوتٍ صافرةٍ يفضُّ صمت المكان، فتحت عينيّ. بحثت عن أمي. رأيتها محنياً ظهرها، ولمحت دمعتين تنفران من عينيها. تلفتُّ حولي. لَمَسْتْ نظراتي حزناً، ذهولاً، وجوماً يغطي الوجوه.

أمسكت ساعد أمي. هززته بكفي الصغيرة. سألتها:

ـ هل سنعود إلى بيتنا؟

لم تجب. سألتها:

ـ أمي. هل لهم قرون؟

أشارت بالنفي. دهشت. هززت يدها ثانية:

ـ أمي.. هل لهم ذيول؟

لم تجب.

«إذن. لماذا أحلم دوماً بأذنابهم تمتد وتمتد وتلتف حول رقابنا أنا وأخي الصغير وابن جيراننا وابنة عمي وأمي وأبي؟ لماذا؟».

تساءلتُ ولم أصدق أجابات أمي، لكني صمت. تبعتُها واخوتي إلى الخلاء. كانت البيوت تعبة من الانتظار، تنحدر من الجبال متهالكة، تستقر في قعر الخوف، والسماء فراغٌ باهتٌ يحيطُ بنا، والوجوه تحرثها الأسئلة.

دارت أحاديث خافتة بين الجيران، قبل أن يأوي كل إلى بيته مستلباً. دارَتْ في عقلي الصغير خواطر غريبة. أحسستُ بشيء يخرج من جسدي. دار الدوار برأسي. جفلت. أنزلتُ أخي الصغير عن ساعدي. أجلسته على الرصيف. مددت يدي إلى مؤخرتي. لمستُ قطعة من اللحم الطري تتحرك لزجة في كفي، تنمو وينمو عليها الزغب. شعرت بالغثيان. ضغطتُ عليها، فتألمت. أمسكتُ بثوب أمي. التصقت بها. تلفت حولي وجلة. خشيتُ أن يكتشف أحدهم أمري.

«أنا حيوان صغير؟ يا إلهي».

استرقتُ النظر إليهم لأتأكد أن نظراتهم لا تقربني. صُعقت. لمحتُ أذناباً حقيقية تنمو في مؤخرات الرجال، النسوة، الأطفال، حتى أخي الصغير.

بكيت بصوت مرتفع. شددت ثوب أمي لتسمعني. صرخت:

ـ أمي. أنا على حق. لهم ذيول.

ـ صدقيني يا أمي. لنا ذيول.

صرختُ وصرختُ، لكن صوتي ضاع في ضجيج أحاديثهم الفاترة الكئيبة. □

العدوى

جمال ناجي

■ أخيراً وصل الراكب المنتظر، فاكتمل العدد: رجلان إلى جانب السائق، امرأة في أقصى يمين المقعد الخلفي، فأنا، فرجل متجهم الوجه إلى يساري.

ها إن السائق يدير المحرك، ينظر إلى الأمام، تتحرك السيارة بنا، تبتعد عن مجمع سيارات الأجرة، تبتعد أكثر، تستقيم الطريق، يكف السائق عن تحريك بدالة السرعة، فيخفت ضجيج المحرك، ويتحول إلى طنين متصل.

في عزلة الصمت التي أعيشها في سيارة الأجرة، أفكر في الكثير من الأمور، إن لم أقل في جميعها. أقلّب الحياة على وجوهها، أشرّق، أغرب، وأبحث عن حلول ومخارج لهمومي التي ما أكثرها. هكذا أنا، لذا فإنني لا أشارك في تلك الأحاديث التي يلجأ الركاب أحياناً إلى نبشها دون مبرر: أحاديث الطقس، والأسعار، والطرق، وحوادث السير. ربما يصر الركاب الآخرون الآن، بمن فيهم السائق، على التمسك بعزلة الصمت مثلي. هذا ما تقوله الملامح المهمومة للمرأة والرجل الجالسين إلى جانبي على الأقل.

الرجل الجالس إلى يساري يتنهد الآن، ألديه مشكلة هو الآخر؟ أهي بحجم مشاكلي؟ أم أنها أكبر؟ لكن، ما شأني به؟ ما الذي أريده بتساؤلاتي هذه؟ ألا تكفيني همومي؟

ها هو يتنهد من جديد.

أنا أفهم التنهد على أنه تعبير عن الضيق، أو عن حاجة الإنسان إلى المزيد من الهواء. كلا التعبيرين سيان، وكلاهما يشيران إلى أن الرجل متضايق، أو مكتوم، وإلاّ لماذا يتنفس بهذه الطريقة المؤلمة؟

الركاب الآخرون صامتون، لا بد من أن في رأس كل منهم فكرة ما أو أكثر، تشغله فتلجم لسانه. أما أنا، فلا شيء الآن يشغلني سوى تنهدات الرجل الجالس إلى يساري. إنه يسرّب إلى نفسي ضيفاً جديداً هو الضّيق! كأنه بزفراته ينفخ في صدري فيملؤه، وهنا أجدني غير قادر على التنصل من حالته. لن أستطيع القول ثانية: ما شأني به؟ فحالته تمتد إليّ، لكن ما الذي أوقعني في هذه الورطة؟ ألا يكفيني ما أنا فيه؟

لا بد إذن من التحدث إلى هذا الرجل. فلربما تمكنت من صرف همومه، وهمومي أنا! سأقول له: إنسَ. لكن، ما الذي سينساه؟ سأقول له بأن الدنيا لا تستحق كل هذا الاهتمام والتفكر، وأن لكل مشكلة حلها؟ لكن الدنيا تستحق الاهتمام، ثم إن الحياة زاخرة بالمشكلات التي تستعصي على الحلول. كيف إذن سأبدأ معه؟ كيف سأبدّد همومه؟ كيف سأحدّ من انتقال عدوى الضيق والتنهد إليّ؟

ـ أفف...

ها قد انتقلت العدوى إليّ. أنا لم أتنهد الآن من أجل تقليد هذا الرجل، إنما وجدتني أتنفس بعمق ثم أزفر مثله، دون أن أعي. ثم أنني أحس الآن بشيء من الارتياح، فلأتنهد ثانية، وثالثة. ما الذي يمنعني؟

المرأة الجالسة إلى يميني، ترمقني بنظرات غامضة. ماذا تريد هي الأخرى؟ هل ضايقتها أنفاسي؟ هل تريد التخفيف عني؟ أتريد الادعاء أمامي أن الدنيا لا تستحق الاهتمام؟! أتريد أن تقول لي: إنسَ؟ حلو! هذا ما ينقصني. فلأتنهد اذن، لأن هذا هو الحل الوحيد في هذه اللحظة! لكن المرأة تتململ في جلستها، تضع أصابع يدها على رقبتها، تحرك رأسها كمن تجاهد الاختناق، تتنفس بعمق. أخيراً، هاهي تتنهد. مرحى مرحى! لقد انتقلت العدوى إليها، لقد تمكنت منها، أو تمكنّا!

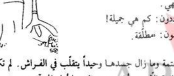
ماذا عن الرجلين بجانب السائق؟ أهما مثلنا؟ هل سيتقبلان العدوى أم أنهما لا يسمعان تنهداتنا المتلاحقة؟ لأنتظر اذن، أو لننتظر. ها قد لف أحدهما رأسه باتجاهنا. إنه يستعرضنا بصعوبة. يشيح بوجهه عنا. ينظر إلى الأمام، إلى الأمام قليلاً، ويتنهد، فيفعل الآخر مثله.

لم يبق سوى السائق، وهنا المشكلة الكبرى. هل سيستقبل العدوى؟ ثم لمن سينقلها طالما أنه لم يبق في السيارة من لم يصب بها غيره؟ على كل حال، لن يطول انتظارنا، فقد نظر السائق إلى الرجل الجالس إلى يمينه قبل قليل، وها هو يكرر تلك النظرة الغامضة، سيتنهد، شاء أم أبى. سيفعلها، لكن ما يحيرني هو: لمن سينقل السائق العدوى بعد أن تصيبه؟ لمن؟

إنه يهز رأسه بضيق، يبطىء من سرعة السيارة، يوقفها على يمين الشارع، يفتح بابها، يخرج، يقف إلى جانبها ثم.. يتنهد أمام المارة! □

اعترافات امرأة مطلقة

خيري حمدان



■ حدّقت إلى المرآة طويلاً. ثمّة خيوط دقيقة حول فمها وعينيها. غزا الحزن كيانها. حاولت البكاء، لكن دموعها استعصت، فتقلص وجهها متألماً.

كانوا يقولون: عيناها جميلتان.

كانوا يحاولون اغتصاب ابتسامة من فمها الرطب الشهي.

كانوا يرددون: كم هي جميلة!

ثمّ يهمسون: «مطلّقة.

لفتها العتمة وما زال جسدها وحيداً يتقلّب في الفراش. لم تكن تعلم أنها نائمة إلاّ بعد أن وجدت نفسها أمام المرآة من جديد. نظرت إلى انعكاسها في المرآة. حدقت في شعرها المنفوش المتجعد. بصقت. سال اللعاب على سطح المرآة لزجاً أبيض، وعادت من جديد تقنع نفسها بأنها نائمة.

ـ لماذا لا تأكلين؟

ـ لا أحب الطعام المالح.

ـ وهل يوجد طعام يخلو من الملح؟!

ـ نعم.. جسدي.

ـ لماذا تضحكين؟

ـ ولكنّي أحاول ان ابكي.

ـ ما الذي يحزنك؟

ـ أنا لست حزينة.. لقد نلت ما أتمنى.

ـ وماذا كنت تتمنين؟

ـ لا شيء.. مجرّد عناد.

شعرت بوخزة في صدرها. لم تُعِرْ الأمر أدنى انتباه في البداية، ولكن ما أن مضى بعض الوقت حتى وجدت نفسها عارية أمام المرآة.

اخذت تدقّق في تجاعيد صدرها. لم يكن هناك درن او ألم. ضربت ثدييها بشدة، سعلت مرّة ومرتين. لا شيء مجرّد وخزة. ◄



لقد كانت تملك ثديين، الأيمن لطفل المستقبل، والأيسر لطفل آخر هو.. زوجها.

هزّ الطبيب رأسه مراراً وقال: لا داعي للخوف. لا أحد يستطيع أن يسرق منك ثدييك.

كادت تطير من الفرح. وبدلاً من أن تمدّ يدها إلى حقيبتها لتناوله بعض النقود. ألقمته ثديها.

حزمت حقائبها بسرعة، تفقدت جواز السفر والتذكرة المكوّنة من بضعة أوراق. وقبل أن تغادر المنزل، ذهبت لتودّع المرآة.

كانت جميلة، وتلك القبعة الصفراء فوق رأسها زادتها جمالاً. ابتسمت. لم يكن هناك أثر للخطوط الصغيرة حول فمها وعينيها. ازدادت ابتسامتها اتساعاً. همست للمرآة قائلة: أنا آسفة. يبدو أنني سأتركك وحيدة.

قبلتها، واختفت في العتمة.

لم يكن أحد في انتظارها، ولم تخبر أحداً بقدومها. جلست طويلاً في مقهى المطار الدوليّ، تحدّق إلى وجوه المسافرين وتتفرّس في ثياب النساء وأيديهن المثقلة بصفرة الذهب.

سألتها امرأة:

- هل وصلت الايطالية؟
- كلّنا عرب يا مدام.

أحست برغبة قوية في لكمها وشدّ شعرها، إلّا أن الأخرى ابتعدت مسرعة وهي تبادلها نظرات حائرة وخائفة. ظنتها مجنونة، لكنها لم تدرك بأنها مجرّد امرأة.. وحيدة.

حتّى الذين لا يعرفون معنى الاغتراب يمارسونه.

الاغتراب هو أن تذهب لحضور أمسية شعرية، فيقتحك ثلاثة بأن تكون رابعهم في الطرنيب.

الاغتراب هو أن تطلب كأس ماء بارد فيأتونك بمعجون الحلاقة.

الاغتراب هو أن تقبّل طفلك الصغير وفي جيبك تبليغ لا يخلو من كلمة «مطلوب».

الاغتراب وفي كثير من الأحيان هو أن تكون عربياً. أما إن كنت شاعراً أو مفكراً فإن الاغتراب يتحوّل إلى جريمة.

جلست إحداهن قبالة الأخرى.

- تركني وحيدة وذهب.
- أمّا أنا فقد تركته وحيداً وذهبت.
- طلقني.
- وأنا طلقته.
- أشعر باليأس والاحباط.
- أنا سعيدة، لأنني سأتمكن من اكتشاف عالم رجل آخر.
- ولكنها تبقى تجربة مؤلمة.
- هذا يعتمد كيف تنظرين إلى القضية.
- وأية قضية تعنين؟
- لا أدري. لم أعد أفهم شيئاً. آه.. هذا الرجل قادم صوبنا. هل ترين يا صغيرتي؟ هذا هو زوجي الجديد.
- هل تسمعين. لقد أقلعت الطائرة.
- نعم.. نعم. لقد أصبح الجو بارداً.
- وأنا أشعر بالبرد أيضاً.
- إذن تعالي لنحرق المدينة ونتدفأ. □

أشجار دائمة العري

يوسف ضمرة



■ ناداني فخرجت. حييته فأجاب.

ما كان الشارع معتماً تماماً، فتبينت بعض ملامحه التي تُشبهني.

أخبرته أني لا أعرفه، فما كذبني.

كنت أرتدي بنطالاً عادياً، وهو يرتدي «الجينز» الغامق.

عاتبني على تقوقعي في البيت، وقال إن الشارع الشجريّ، والهواء الصافي أجمل.

خالفتهُ، وعزمتُ على العودة.

كنا لا نزال أمام البيت، والساعةُ تتلوى في (حلاوة الروح).

عنفني بقسوةٍ، ثم شتمني. ضربني على خدي الأيسر، فأعطيته الأيمن. أحسستُ بالطنين في أذنيّ، ثم في الرأس. تأبط ذراعي وهو يضحك، ثم انطلقنا ببطء. سألته عن وجهتنا، فقال إنه لا يعرفها.

وأضاف بصوتٍ عالٍ: علينا أن نمشي. فقط نمشي.

قلتُ: لماذا؟

وبخني، وطالبني بابطال مفعول السؤال عن أسباب الرغبات. أخبرته أن الله جعل لكل شيءٍ سبباً.

قال: أنا لست الله ولا الحلاج.

مد يده في جيبي، فخرجت ملونة لما فيها من ورق النقد. سألني وهو يضعها في جيبه عن سبب احتفاظي بها. أشهرت غضبي وأنا أذكّره بأسباب الرغبات. ضحك وقال: أمسكتَ بي.

فرحت للحظةٍ، ثم تجهمت. سألته عن السبب الذي دفعه لتفريغ جيبي. ضحك وهو يطالبني بالكف عن هذه اللعبة السخيفة.

صمت لحظة، ثم أخبرني أننا ذاهبان إلى أحد البارات، نشرب حتى تلفحنا الرغبة في انقلاب (كُحليّ) في أي مكان.

قلت: لا أشرب.

غضب وقال: ستشرب.

قلت: لا أحبه.

قال: ستحبه.

قلت: جربته ألف مرة من قبل.

قال: أضف مرة أخرى.

أبديتُ رغبتي ثانيةً في العودة إلى البيت، وبخاصةٍ أننا لم نبتعد كثيراً بعد. جذبني بشدةٍ، ثم ضربني وأمرني بالسكوت.

صرْتُه، ورحت أتهجى كـل مـلامحـه التي حملت لي جيلاً من الدهشة.

يُشبهني هـذا الرجـل تماماً. لا فـرق إلّا في هيئةِ الشَّعْـر. هـو لم يستخدم مشطاً وأنا فعلت.

فجأة سألته عن اسمه، فقال: يوسف.

قُلتُ مبهوراً: مستحيل،

قال بغضب: لماذا؟

قلت: لأن اسمي يوسف.

ضحك وقال: من طوّبه لك؟

قلت بهدوء: لا أحد. هنالك أشخـاص كثيرون يحملون الاسم، لكنك متطرف عنهم.

قال: وما الغرابة؟

كان عليّ أن أفكر كثيراً حتى أقبل هذا المنطق. فعلتُ واقتنعتُ لا سيما وقد أخبرني أننا نختلفـان في الرغبـات تمـاماً، حتى في اختيـار الملابس.

شدّ كلٌ منا حوله عباءة السكوت. ذاك أتاح لنـا ـ أو لي ـ رشق نوافذ البيوت بالعيون.

قليلةٌ المضـاءة. شحيحةٌ الأصوات. أقواهـا السعـال المتقـطع ثم الضحك.

فجأة قفز الرجل إلى الأمام خطوةً أو اثنتين توقف وكل الشارع بقدمه، فخرج صوت علبة معدنيـة اصطدمت بسـور بيت. كدتُ أساله عن السبب. لم أفعل خوفاً من يده. سـألتُ نفسي، فوجـدتُ مبرراً مقبولاً أو ضعيفـاً. سألتـه إن كـان يحب كـرة القـدم، فنفى. اتهمتُ نفسي بالصفاقة، حيث لا علاقة لي بما يحب ويكـره. هو حرٌ بما يريد وما لا يريد. جذبته بـرفق من منتصف الشارع، كي تعـبرنا سيارة مسرعة. وقف يتابعها حتى خباًها منعطف قريب. بصق وعـاد إلى الشارع. سألته فجأة: هل أنت حرامي؟

قال بجد: لا.

قلت موضحاً: لكنك أفرغت جيبي من النقود.

قال بثقة: هي لي.

أزّ الغضب في صدري، كالـرصاصة التي تحاذي الـرأس. بدأت أشعر بالخوف.

في تلك اللحظة، كنت قادراً على الهرب، فهو في منتصف الشارع يمشي، وعلى الرصيف أنا، لكني عجزت. ما كنت معصوب العينين أو مقيد القدمين. لكني عجزت.

توقفت سيارة صفـراء. صعدنـا معاً. هـو في الخلف، وفي الأمام أنا. مدّ السائق يده نحوي بسيجارة، فشكرته واعتذرت.

أغمضتُ عينيّ على ملامحه وأنا أشعر بالرعب. يشبهنا هذا السائق تمـاماً. يختلف عنـا في الملابس، ويضـع نظارات طبيـة عـلى عينيـه. استدرت بجذعي إلى الخلف. كان الرجل يريح رأسه عـلى المقعد، ويدخن باسترخاء. عدت إلى وجه السائق.

بهدوء سألت: هل أنت المالك؟

بوقار أجاب: الملك لله وحده.

قلت ضاحكاً: وللقوادين والحكام و. . .

قال بثقة: لكنهم آجلاً أو عاجلاً يفقدون، والله لا يفقد.

قلت ضاحكاً: نحن الذين نفقد. اسأل هذا الرجل الـذي نظف جيبي، وما اعترضت.

لكزني من الخلف وقال بحدة: قلت لك إنها لي.

اختصرتُ الشرّ. سألت السائق بهدوء: ما اسمك؟

قال السائق بهدوء: يوسف.

قلت بحدة: عليك الآن أن تتوقف حتى أنزل.

ضحك بصوت مرتفع.

ضحكت.

سعل في الخلف الرجل.

صعدت أبخرة الضحك من نافذة السقف إلى السماء.

أرحت رأسي على رأس المقعد الذي يذكرني (بنونية) الأطفال.

ابتسمتُ.

ما الذي يمنع رأسي من ذلك الآن؟

ستطرق الرائحة أنف الرجل أولاً، ثم السائق.

رحتُ أستذكر محتويات رأسي، كي أتنبأ طعم الرائحة!

الأحلام الطفولية المغتصبة،

فضائح القرى ومخاتيرها،

أسماء الحكام المتعدّدي الجنسيات،

شكل الجسد المومس،

قضبان السكة العثمانية والحمير،

حبات الرمل الصحراوي بين الملابس والجسد،

عينيّ أبي الحمراوين، ونشقة أمي الصباحية في العيد،

العراك الدائم العضوية في البيت،

الخيبة بعد الاستحلام الليلي،

الرغبات الندابة،

الصحف الكذابة،

الجثث المتفخة،

الجثث الناقصة،

الجثث الواقفة،

حاملات الطائرات،

القبعات الملونة والخوذات،

الموظفين الكبار،

الجواسيس الصغار،

التقـدميـين في حلقـات الحـوار ذي النكهـة الأمـيركيـة والمـذاق الاسكتلندي،

ابتسامات نسائهم،

المهاترات العلنية للأحزاب السرية،

الخوف. . .

من أمي،

من شرطي المرور،

من نظرة رجل حادة،

من زميل الدراسة والوظيفة،

من جارتنا الطيبة،

الأردن

من نسمة الليل وراء النافذة،
من هدير بعوضةٍ في مجالي السمعي،
من شخوص روايةٍ ساذجة،
من ملامح المذيع التلفزيوني،
من سيجارة صلبة،
من الله والمباحث. . .

ضحك الاثنان معاً.

قال الرجل: وماذا لو كنت مصاباً باسهال من أي نوع؟

قال السائق: أحمد الله أنك لم تذكر «الفجل».

قلت بذل ومسكنة: أعيداني إلى البيت.

دخلا معاً في حديث غريب تبينت أنهما صديقان أو عدوان.

وتبينت أنهما يعرفانني من قبل.

توقفت السيارة أمام أحد البارات.

هبطنا.

حدقت طويلاً إلى سيارة الشرطة المحاذية.

دخلنا.

جلسنا.

أدهشني الصمت الصامت.

خلخلني نواح فريد الأطرش:

«ليت أني من الأزل
لم أعش هذه الحياة».

يبكي بعض السكارى، وأنا أبتسم.

كل عام أحاول أن أتذكر يوم ولادتي فأخيب.

أتذكره قبل وبعد.

سألتهما إن كانا يتذكران يوميهما، فانضما إليّ.

تشابهنا في أمر آخر. صحيح أنه تافه، لكنه حدث.

جاء نادل. راح يضع أمامنا بعض الزجاجات والكؤوس، ويضع صحون تتمدد فيها قطع طويلة من الخيار والجزر، وتنتصب تلال ملونة من المكسرات.

كنت واثقاً من أن أحداً منا لم يطلب شيئاً. ذاك استفزني بشكل عجيب.

ثم تطرف النادل، حين ألقى قطعتين من الثلج في كأس أمام السائق، وسكب فيها قليلاً من «الويسكي» بينما قدم للرجل «اليانكي» كأساً من البرتقال، وزجاجة البيرة لي.

ودعه السائق بهدوء: بارك الله فيك.

ضحك اليانكي وقال: شكراً يا ولد.

حدقت أنا ولم أقل حرفاً. أظنني ابتسمت.

رفعنا كؤوسنا.

قال اليانكي: نخبكما.

قال السائق: نخبي.

قلت: شربت بصمت.

حين وضعنا الكؤوس قلت للجينز: لماذا دعوتني؟

قال: التزاماً باتفاقنا.

قلت: لكني ألغيته في حلم الليلة الماضية.

رجّ السائق كأسه في يده. وقال باتزان: إن هي إلاّ أضغاث أحلام.

ابتسمت موافقاً. أفرغت كأسي دفعة واحدة وأنا أحدق إلى وجهه. راحت ملامحه تصغر تدريجياً، حتى وصلت إلى آخر يوم رأيته فيه. أعني قبل أن أحرق عقدي الأول.

كنا نلتقي في مسجد القرية في الجمعة والأعياد، واليانكي ذو الشعر الأكرت ينتظرنا في الخارج، حاملاً لوازم الصيد: الدود الأصفر والفخ الحديدي. نركض بعد الصلاة إلى البرية. يقوم الأكرت وحده بكل شيء.

فقط آتيه بما يريد من تراب ناعم أحمر، وحجر مستطيل، يزرعه كشاهد قبر، يغري «البرّقة» بالهبوط، فترى الدودة الصفراء في حمى الرقص.

تتلفت «البرّقة» يميناً ويساراً، ترفع ذيلها الأبرق عدة مرات في الهواء، ثم تقفز تنقر الدودة الصفراء.

يستيقظ الحديد في القبر، ويقفز. يطبق الحديد على العنق.

يركض الأكرت وأنا خلفه.

يبقى السائق في ظل الزيتون.

أناوله الفريسة، بعد أن توسل الإكرت كي آخذها منه.

يحدقُ باسماً.

يُمسد ريشها بأصابعه. يقول بهدوء: بسم الله. قدّرْ عليك الذبح. . الله أكبر.

«ويمصع» رقبتها.

انتهيت من زجاجتي. فجاءني النادل بواحدة قبل أن أشير. في المرّة الأولى لم انتبه إليه جيداً، وما فاجأتني ملامحه في المرة الثانية، فقد ألفتُ ذلك، وجزمتُ بأن اسمه يوسف. فابتسم وقال: لا. اسمي جواد.

قلت بحدة: مستحيل. أنت يوسف.

قال اليانكي بغضب: مالك والناس؟ أنا قلتُ يوسف، فقلت مستحيل. هذا لم يقل يوسف، فقلت مستحيل. ماذا تريد منا؟

قلت بضعف: لا أدري. أعيداني إلى البيت.

قال بخبث: أحسن.

قال النادل: كان اسمي يوسف، لكني استبدلته.

فتحت فمي ولم أنطق.

تدخل السائق: أظن أنه لم يفهم الآية جيداً.

حدقنا إليه، فتابع: قال تعالى: (يوسف أعرضْ عن هذا). ربما اعتقد صاحبنا أن الـ «هذا» هو الاسم.

ضحكنا.

قال الجينز: لو لم أكن يوسف لأصبحته بإرادتي.

لم يُعلق أحد، فأضاف مغنياً بهدوء: الحُسْنُ حلفتْ بيوسفِهِ.

ضحك: اصطدت بهذا الاسم سبعين امرأة.

حدقت إلى عينيه وهو يخاطبني: لستَ مثلك خائباً لا تعرف إلاّ زوجتك.

قلت بهدوء: أحبها.

رفع ذراعه، فأصبحت راحته أمام وجهي، كأنما يريد أن يُريني صورة ما، لكني فوجئتُ بأصبعه الوسطى بين عينيّ.

وقفت غاضباً وأعلنت عن رغبتي في المغادرة.

جذبني السائق باسماً وهو يخبرني أن صاحبنا يداعبني.

أخبرتهُ أني أرغب في العودةِ من قبل.

سألني إن كنتُ مصراً ففرحتُ إذ شممتُ رائحة لينةً في السؤال.

جاء «الجواد يوسف» ـ هكذا أسماه السائق ـ.

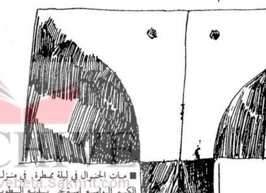
انحنى.
ألصق صيوان احدى أذنيه الشعورتـين بفم السائق. لحظات ثم مضى في هيبة طارئة.
نظر السائق نحوي.
أخبرني أننا سنغادر البار بناءً على رغبتي.
شكرتهُ، وسألته إن كانوا سيخرجون معي، فضحك.
جاء الجواد باسماً.
وقف نديماي.
وقفتُ.
سار الجواد نحو الباب، تلاه السائق، فاليانكي، ثم أنا،
كانت سيارة السائق في مكانها.
وسيارة الشرطة في مكانها.
عاد الجواد بعد أن ودعنا بالكلام الطيب، والأمنيات بليلة جميلة.
صعد السائق، فاليانكي في الخلف، وفي الأمام أنا.
سمعتُ أصواتاً في الخلف، فما استدرتُ.
كانوا يضحكون في هدوء. اليانكي وامرأتان.
بُهرتُ. ابتسم السائق حين رآني، وقال: بُهِتَ الذين كفروا.
صرختُ: من هم الذين كفروا يا ابن القحبة؟
انطلق وقال: أشكالك.
كدت أقول: استبدلْ بالقاف جيم «جوادك يوسف»، لكني سألته أن يتوقف أو ألقي بنفسي من الباب.

ضحك الجينز والمرأتان والسائق نفسه وهو يقول لي: عريقٌ في الجبن.
فتحتُ الباب، فما اكترث.
قال بحدة: هيا اقفز.
أغلقتُ الباب. انتفض جسدي بقوة ورحتُ أبكي، وأنا أشعر أن جدارين من الأسمنت المسلح جداً موشكان على هرسي بينهما.
توقفتُ عن البكاء بعد حين، وارتميتُ في لحد العجز المطلق.
عبرنا شارعنا الشجريَّ، فما اكترثتُ.
توقفنا أمام بيتنا.
أطفأ السائق الأضواء.
هبطنا جميعاً، ودخلنا البيت.
كانت زوجتي عارية تستلقي على السرير الخشبي، وبياضها يلمع في الضوء.
تعرينا جميعاً - أنا والسائق واليانكي والمرأتان - إحداهما بدينةٌ قصيرة أكثر من زوجتي، والثانية نحيلةٌ طويلةٌ أكثر من زوجتي - بدت أشكالنا كأشجار دائمة العُري على مدى العُمر.
استلقينا كيفما اتفق.
ارتفعتْ أصواتنا.
زعق السرير كمجنون.
زعق السرير ثم أنْ.
أنَّ السرير ثم أطلق حشرجةً، وهمد. □



صندوق الجنرال

محمد عبد الملك



مات الجنرال في ليلة ممطرة. في منزله الكبير الواسع استرخى بدنه الطويل كالزرافة. كانت بزته العسكرية ملأى بالغبار، وكانت النجوم تستقر على كتفه.

أوصى الجنرال زوجته أن يدفن بملابسه العسكرية. كانت الجثة تستقبل الزوار والجنود الذين ترأسهم الجنرال في حياته والمعجبين به من الجمهور.

وكانت وصية الجنرال الثانية أن يوضع جسده في صندوق زجاجي كبير، وأن يستقر سيفه الفضي بجانبه. اختارت زوجة الجنرال حديقة المنزل. وشاهد الجمهور من وراء السور وجه الجنرال الصامت المهيب. وجاء الأطفال الفقراء مع أجدادهم للفرجة. لم تغضب زوجة الجنرال، بل فتحت الباب على مصراعيه، فقد كانت وصية الجنرال الثالثة أن يراه الجمهور وهو مسجى وغليونه في فمه.

لماذا اختار الجنرال أن يموت بهذه الصورة؟ عجزت الزوجة عن الرد على أسئلة المعزين والصحفيين والجمهور. بعضهم قال: ليرهب الثوار في موته، وبعضهم قال أن يكره القبور والأماكن الضيقة بطبعه.

كان الجنرال يعيش كل حياته في الهواء الطلق. ينام في الهواء الطلق خلف الحديقة. كان له بستان خاص يقضي فيه أوقاته السرية. لا أحد يستطيع عدّ خليلات الجنرال أو قتلاه فقد برع في الموت والنساء. وكان بقدر كاف من الوسامة وقوة الشخصية.

بعد أيام ذوى وجه الجنرال، وتحول إلى البياض، وأصبح عجينه هالكة، وخرجت رائحة نفاذة مخترقة الزجاج الجميل. لم تكن الرائحة القوية لتناسب جلال الجثة والنجوم والسيف والصندوق الزجاجي. وبعد أيام سرح بعض الدود تحت رأسه. كان الجمهور يحضر في طوابير طويلة لمشاهدة الجنرال، وكانت زوجته تطلب التزام الهدوء، وقد وجدت نفسها في موقف حرج.. مع الرائحة النتنة، كان الدود يسير أصفر على جدران الزجاج ويتثاءب. وبعد أسابيع صغر حجم الرأس. كان الدود يكبر ويتقيأ على الزجاج، ثم خرج بعض الذباب من الدود. كانت جثة الجنرال تبدو في هيئة جديدة. ساقاه الطويلتان، عظامه الممتدة. اللحم الذي علق بالأضلاع. بقع الدم الجاف، والرصاصات التي اخترقت جسده.

بعد أيام لم تعد زوجته قادرة على النظر إلى الجثة. الوجه كان يتفحم، والدود يغطي عينيه وأهدابه، ويحاول اختراق الزجاج ولحسه ثم يسقط تحت جثته.

عاش الجنرال ما يربو على الخمسمائة عام، وتزوج أربعين ألف زوجة وشرب نصف خمور الأرض، وأنجب شعباً بأكمله. وكان الجنرال يعتقد أن الجمهور هو من أبنائه وأحفاده.. ومن حقهم أن يلقوا عليه النظرة الأخيرة. وكانت الطوابير تمضي صامتة.

في يوم مطير آخر، اهتزت الأشجار في الحديقة، وسقط الورق. كان الصندوق الزجاجي يستقبل المطر بهدوء. وكان وجه الجنرال يختفي خلف المطر والزجاج ويكاد يتلاشى. كان الصندوق في الصباح التالي صغيراً أبيض. وشاهد الجمهور الذي لم ينقطع عن زيارة الجنرال عظامه الكبيرة وعليها التيجان والنجوم والدود والصديد، وكان السيف يصدأ بفعل الرطوبة مع الأيام. وتفاجأت زوجة الجنرال بأمر عسكري يطالبها بدفن عظامه والاحتفاظ بسيفه ونجومه. ورفضت زوجته تنفيذ الأمر. قالت السلطات العسكرية إن بقاء هيكل الجنرال بهذه الطريقة قد أضاع هيبة الدولة.

وقد أجابت الزوجة السلطات في خطاب رسمي أن الجمهور الذي يأتي للزيارة يكبر، ولا بد من احترام رغبات الموتى. جاءها الرد في الحال: لم يبق شيء من الجثة.. لم يبق من الجنرال شيء.

أغضب هذا الخطاب زوجة الجنرال، وكتبت إلى السلطات العليا: إن هذه العظام قد حفظت نظام الدولة خمسة قرون.

أما خطاب الرئاسة الأخيرة فقد جاء لينذر باجتثاث الصندوق الزجاجي وتحطيمه.

في اليوم الثاني جاءت جرارات السلطة، ودباباتها، وبعض فرقها المدفعية.

وكانت مفاجأة أخرى للجميع هذه المرة فقد سرق الجمهور هيكل الجنرال، ومثلوا به في الشوارع، وصنع الأطفال من عظامه وأسنانه ألعاباً وهمية وملأوا جمجمته بالتراب.

واتكأ رجل عجوز في الشارع على عظام ساقه الطويلة. لكن أولاد الزنى الذين أنجبهم من خليلاته عبر قرون خرجوا مطالبين برميمه.

بعد شهور، رأت زوجة الجنرال وهي تهبط الشارع نجومه في صندوق الزبالة تحت أقدام الشحاذين، ورأت غليونه الكبير في حديقة المنزل يستوطنه فأر صغير، وشاهدت بدلته العسكرية على شحاذ، ثم رأت سيفه بعد سنتين في عرض مسرحي لأولاد المدارس. □



من يعرف عنتر؟

أبو بكر العيادي



■ من لا يعرف عنتر!

عنتر الذي دانت له رقاب الرجال، وسعت إليه القبائل صاغرة.

عنتر الذي يوقف السيل بصدره، ويهز الجبال بظفره.

عنتر الذي يدكّ الأرض حين يمشي ويثير النقع حين يمضي.

عنتر الذي إذا كرّ فرّ كل سائر يسير وكل طائر يطير، وإذا سكن حذرت منه السوائم والخشاش.

من لا يعرف عنتر، بشواربه الكثة الطويلة المدببة التي يعقفها إلى أعلى ويفتل أطرافها في لحظات الزهو والانتشاء، بعينيه اللتين يلوح منهما بريق حاد يضفي على وجهه الأسمر مسحة غريبة يمتزج فيها اللين بالقسوة، بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة ووشمه البارز في مقدمة ساعده الأيمن.

من لا يعرف عنتر! عنتر! عنتر بن خديجة القيسي! عنتر الذي يرسل في الحي صيحته المدوية فيخنس الهمس ويموت الحركة، ويعبر مساربه المتربة فترتعد البيوت وتسقط الثمار من أغصانها.

عنتر، ما عاد عنتر.

كيف حصل ذلك؟

لا أحد يعلم بالتحديد، فقد اختلف في ذلك الرواة وقدموا أخباراً متباينة.

قال أحدهم واسمه تقي الدين البهجوري:

«كان ذلك في أحد أيام كانون، في وقت تناكرت فيه الوجوه. وكان عنتر يستعد للايواء إلى بيته حين تناهى إلى مسمعه صوت استغاثة يكاد يضيع بين عواء الريح وصرير الأبواب. انطلق مثل حجر يقذفه مقلاع وابتلعته ظلمة الليل الزاحفة. ولما عاد في غبشة فجر جليدي مثخناً بالجراح، وجد أمه وأخاه يرتجفان، ويلملمان أطراف ثيابهما الممزقة، وهما جالسان على أنقاض حائط منهار. هاج عنتر وماج حين علم أن غرباء طردوا أهله واحتلوا بيته. اتسعت حدقتا عينيه، وأشع منهما بريق وهاج. نفخ صدره وأرسل صيحته المدوية، فارتج الحي واصطكت بيوته، وزحف عنتر على البيت ومن فيه. ولكن، لأن في المسألة لكن... اعترضت طريقه جماعة من الشرطة وأنذرته بالويل والثبور إن هو اعتدى على البيت ومن فيه. ولم يكن لعنتر عهد بشرطة أو حرس أو عسس. فكر في الإطاحة بهم بضربة واحدة كما تعوّد أن يفعل مع كل من يقف في طريقه، ولكنه

قال: يبدو أنكم لا تعرفونني؟

قالوا: بلى! أنت عنتر.

قال: ـ إذن، أنتم تعرفون أن البيت بيتي؟

قالوا: أجل. ولكن عليك بالبينة.

قال: وشهادتكم؟

قالوا: شهادتنا لاغية بحكم وظيفتنا.

نظر عنتر إلى أمه وأخيه وهما يختضّان في أسمالهما فزمجر: إذن سأحمل عليهم حتى يخلوا البيت أو تظهر البينة. فصاح فيه الشرطة: مهلاً يا عنتر. لا تفقد صوابك فيضيع حقك. أنت صاحب حق. هذا لا ينكره إلا عنيد مكابر، ولكن إذا كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فارفع أمرك لدى هيئة المحكمة.

قال عنتر: وما المحكمة؟

قالوا: قضاء يصلح بين المتنازعين بالحق.

قال: وما الحق؟

قالوا: ما تراه المحكمة.

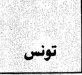
«وعنتر يؤمن أشد الايمان بالله وبيوم تنشر فيه النفوس لتحاسب عمّا فعلت، وإن كان يفضل أن ينال كل جانٍ جزاءه في الحياة الدنيا أولاً، وعلى يديه إن أمكن، لذلك لم يمانع في الاحتكام إلى هذا القضاء خصوصاً وأن أهل الحي كافة، صغارهم وكبارهم يعرفون تمام المعرفة أن البيت بيته والأرض التي يقوم عليها أرضه منذ سالف الأجداد.

«لم يمثل أمام المحكمة سوى عنتر، أما المغتصبون فقد ناب عنهم رجل مهذار قيل إنه محام يتولى الدفاع عمن يدفع له مالاً أكثر. هذا المحامي أقام الدليل بالقول تارة وبالحجج الموثقة طوراً أن البيت مسجل على ذمة موكليه في «دفترخانة» وأن عنتر مدع محتال يريد انتزاع ملك غيره. «خسئت!» قال عنتر، وانقض على المحامي وكاد يهشم عظام رقبته لو لم تسرع قوة من الحرس والشرطة إلى عنتر فتطوقه بالأغلال، قبل أن تقرر المحكمة سجنه وتغريمه بتهم الادعاء بالباطل وتضليل المحكمة والعنف السافر وأشياء أخرى طغت عليها زمجرته وهو يحاول تحطيم أغلاله دون جدوى نتيجة النزف الذي ذهب بقوته.

«ولما غادر السجن لم يكن يفكر إلا في توفير المال الذي يطلبه رجل يتولى الدفاع عن حقوقه. ولم تكن طرق الحصول على المال يسيرة، مما اضطره إلى التقلب بحثاً عن عمل شريف، ولكنه اكتشف أن ذلك لا يصلح إلا لمن كان يبحث عن اللقمة أما ما وراء ذلك...».

هنا يتوقف البهجوري لأنه لم يعد واثقاً من مصادر أخباره، فأحياناً يروي أن عنتر لم يحذق في حياته أية حرفة غير العراك والقنص والعدو وركوب الخيل، وأنه لم يجد ما يستعمله سوى عضلاته، ولكنه استعملها في النهب وقطع الطرق والصعلكة، حتى انتهى به المطاف قواداً في ماخور. وأحياناً يحدث من يريد أن يسمعه أن عنتر لجأ إلى حضائر البناء فوهنت قوته وحال لونه وزالت هيبته دون أن يسترجع بيته. أما أمه فصارت تجوب البيوت لتغسل وتكنس، وأما اخوه فقد أصبح ماسح أحذية. وأحياناً أخرى تعتريه نوبة بكاء حتى يبلل الدمع لحيته البيضاء فلا تسمع منه سوى: «لا أدري. لا أدري. إلا أن عنتر ما عاد عنتر».

راوٍ ثانٍ يدعى عماد الدين الطرطوسي يذهب مذهباً آخر ويقول: ◄



«صحيح ان عنتر ما عاد عنتر ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو، فعنتر لم يذهب إلى محكمة ولم يرفع قضية وكل ما في الأمر أنه ذات ليلة خريفية مقمرة، هجره النوم واحتشدت في ذهنه رغبات ورؤى غائمة. وقف عند الباب. كان الليل خفيفاً والهواء الرخو يداعب السعف بهدوء، فغمرته رائحة الليل الساحرة ووشيشه الهامس وتاقت نفسه إليها..

- حبيبته؟

- ومن سواها! ضجت بها نفسه وهاج به الشوق فراح يتغنى بجمالها ويندب حظه معها، ويلعن قسوة الصد والحرمان ويود لو يتحقق الحلم الممنوع فيودع الليالي الباردة إلى غير ما رجعة. وبينما هو كذلك إذ مر به رجل يقال له اسحاق. كان واضح السكر يتأرجح كقصبة في مهب الريح.

قال لعنتر: لا تحزن. أنا أدلك على ما تريد.

وأخذه إلى خان به كل ما يتمنى المرء الذي لا يفكر في الآخرة. الأكل والخمر والقيان والميسر واللهو والطرب. لم يكن لعنتر عهد بهذا. حاول أن ينجو من هذا الدمار الكاسح الذي هجم عليه بشراسة. ولكن اسحاق قاده إلى حجرة غادة فاتنة القد والقوام. كان في عينيها بريق يوحي للمرء أنه أمام أنثى في جسدها من اللهب ما يكفي لإضرام الحرائق في دغل كثيف. انفجر في صدر عنتر فرح عاصف وهو الذي لم يعرف رائحة النساء، وشعر برغبة مجنونة تحتشد داخله وتدفعه إلى الانقضاض على هذا الجسد المدجج بالنار. ماذا أقول لكم. كاد يفتك بها وكادت تذهب بجلده. حين ينحني فوقها وهو يلهث مثل حصان.



- لا تشغلنا عن أصل الحكاية بالحديث عن النساء كعادتك يا طرطوسي.

- هوذا أصل الحكاية.

- قلت إن عنتر ما عاد عنتر. كيف؟

- النساء هن أصل البلاء.

- ها قد عدنا إلى النساء ثانية.

- لا مفر منهن. حين أرتوت ريتا..

- ومن ريتا هذه؟

- الغادة التي فجرت كوامن عنتر. قلت إذن، حين أحست بالارتواء كما لم تشعر به من قبل، طلعت إلى صديقاتها تحدثهن عن هذا الحصان الذي لا يعرف التعب، عن هذا النهر الذي غسل أوجاعها بمائه الدافق الذي لا يعرف النضوب، عن هذا اللهب الذي أحال جسدها حرائق تئن وتطلق العويل، عن...

- اختصر يا طرطوسي!

- قلت اذن، حينما علمت الغيد أن بالخان فحلاً تكدسن عليه، وتناوشن بالأظفار على مجلسه. بيض، صهب، شقر، سمر، كانت كل واحدة تخشى جفاف العين قبل إدراكها، وتود أن تغص بالفرح واللذة والعويل.

قال عنتر: أنا أكفيكن جميعاً.

ماذا أقول لكم. جسد نائم منذ دهر طويل، لم يشبع من الدنيا. حطب جاف قابل للاشتعال دوماً، ولم يكن ذلك ليروق اسحاق..

- ومن اسحاق؟

- الرجل الذي أخذ عنتر إلى الخان.

- وما دخله؟

- ألم أقل لكم إنه صاحب الخان؟

- كلا.

- نسيت.

- أمسك زمام القول يا طرطوسي!

- قلت اذن، ان الغيد انشغلن عن الزبائن بعنتر. زبائن يتلهون عن أيام متساقطة من عمر خاسر، يمرغون عذاباتهم وجنونهم وخيباتهم على أثداء مختلجة، ويدفنون أوجاعهم في نشوة سرابية خاتلة.

قال له اسحاق: اقتصد يا رجل. الشراهة موت مؤجل.

وأتاه بكأس مزاجها حرائق تشعل الحلق والبطن والعقل.

قال عنتر: ما هذه؟

قال اسحاق: اشرب!

قال عنتر: لا عهد لي بها.

قال اسحاق: وهل دللتك إلى مالا يرضيك؟

«وذاق عنتر الخمر، كما ذاق المرأة، لأول مرة، ولم ينهض. كان يشرب ولا يرتوي مثل كثيب لم يعرف القطر. وقلّ نهمه فلم يعد يرى في لحظات الصحو القليلة سوى ريتا. ريتا ولا أحد سواها. وحتى ريتا ما عاد يسمع لها عويل ولا رأت الغيد التماعة عينيها العسليتين.

«في ليل عاصف حزين، جاء من يعلمه - ولم يكن الوصول إليه سهلا - إن الدار بمن فيها اغتصبت، وإن رجالاً بعيون ذئاب مستفزة مدججين بالسلاح والظلم زرعوا الذعر في النفوس وأهانوا أخاه وأمه. نظر عنتر إلى القادم من خلف عينين غائمتين، ورفع الكأس بأصابع مرتبكة وقال: اليوم خمر وغدا لا شك خمر.

فقال الرجل: أيهون عليك لحمك ودمك؟

فرد عنتر: تغنيني الكأس عن النسب.

«قال الرجل: لم أصدق أنه عنتر. حين تركته كان ينظر إلى صاحب الخان نظرات خابية، ويطلب منه بتوسل ذليل أن يملأ كأسه».

هنا اقتحم الحلقة رجل يقال له حمدون الزيان وقال:

«لقد خرفت يا طرطوسي، وصرت تنقل الخبر بعلاته دونما تروّ أو تمحيص. ما هكذا جرت الأحداث يا سادة. فعنتر لا يمكن أن يصم أذنيه عن نداء الدم، حتى وإن كان غارقاً في النشوة حتى أذنيه.

«وكان فعلاً في ذلك الخان يشرب من كأس ليس لها قرار، ويضاجع تلك المرأة. وكل من تتسلل إلى مخدعه من قيان الخان في حالات صحوه النادرة، حتى غارت عيونه وجف الماء في صلبه وفقد السيطرة على جسده، فصار كتلة من عظام مكدودة متعبة. وكان في لحظات انقشاع الضباب عن عينيه يذكر أهله ويحن إلى دفء بيته. كانت أخباره تجيء مثل نثيث المطر رغم ريتا، ورغم اسحاق. فصاحب الخان لم يمر بعنتر في تلك الليلة الخريفية إلاّ لأن في نفسه أمراً. كان يعرف عنتر منذ زمن، ويعرف أنه يتوق إلى الفرح المؤجل منذ دهر بعيد، فقاده إلى الخان لغاية في نفس يعقوب، ويعقوب رأس العشيرة التي ينتمي إليها اسحاق. خبيث، لئيم، عنيد وأشد فتكاً من سم الشوكران.

«ومن زار عنتر فجأة ذات ليلة شتوية حزينة لم يكن نكرة مثلما ادعى الطرطوسي أيها السادة، بل هو أخو عنتر نفسه جاء لينقذ أخاه

وبيته. حين رأى عنتر على تلك الحال بكى، فرسمت الدموع خطين انحدرا على صفحة خده المغبر. كان يبكي في شهقات متوترة وهو يتطلع إلى أخيه بمزيج من الشفقة والذهول.

قال عنتر: لن يأخذ الغرباء البيت. أسندني يا أخي.

«وران على فضاء الخان قلق مفاجىء وفحيح أفاع ونظرات ذئبية ماكرة، ولكن أحداً لم يجرؤ على اعتراض عنتر. كانت صدمة الخبر بضياع البيت ورؤية أخيه قد أعادتا إليه بعض اتقاد الجمر في عينيه المحملتين بأعباء ثقيلة.

«أخذه أخوه إلى بيت أم أحمد حيث وجد أمه تلعن الزمن الغادر. كان الليل قد جاوز نصفه حين وصل متعباً، وصامتاً ومذهولاً يمور في نفسه الندم والغضب. كان يعتقد أن اسمه وحده كافٍ لحماية أهله وبيته من الأطماع. لم ينتظر أن تعود عافيته بل راح منذ انبلاج الفجر يصيح في الغرباء الذين اعتصموا بالبيت، بعد أن أحكموا سد منافذه ورفعوا سياجاً منيعاً، ويهدد ويتوعد حتى فاض الزبد على زوايا شفتيه.

«لن يذهب البيت إلى الغرباء!»

«كان يلهث بقوة وقد تضببت عيناه حينما أطل يعقوب من نافذة عالية وحوله رجاله بعتادهم وعدتهم، ودعاه إلى التفاوض حول اقتسام البيت بما فيه. ثارت ثائرة عنتر وحمل على الباب بكل ثقله، ولكنه لم يحركه قيد شعره، وتهالك تحت السياج ينز قهراً وعاراً ويردد: «يا لَبؤس نفسي!». أجال بصره حوله يرجو في سره عوناً فلم يرَ غير عيون تبين من خلف النوافذ تطفح بذعر واضح وبفضول قوي لمعرفة سبب انهياره. «ماذا فعلت بنفسك يا عنتر؟».

«حين نهض لم يلح له أحد. قال: «سأحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه». طرق الباب ولما ظهر يعقوب، قال له: أنا موافق!

فقال يعقوب: على ماذا؟

قال عنتر: على اقتسام البيت.

قال يعقوب: أي بيت؟

قال عنتر: بيتي، هذا.

ضحك يعقوب ضحكة عالية وقال: أنت تهذي، فالبيت بيتي. ولكني سأكون كريماً معك إذا عدلت عن فكرة العدوان التي تسكنك، ورضيت أن نعيش معاً تحت سقف واحد. هل أنت موافق؟

قال عنتر على مضض: أنا موافق.

فقال يعقوب: حسناً. أنت متعود على شظف العيش. حسبك بيت الصابون.

وارتعدت فرائص عنتر واحتقن وجهه وصاح بأعلى صوته: سأمزقك يا يعقوب الكلب! سأذبحك من الوريد إلى الوريد وأشرب من دمك.

«أوصد يعقوب النافذة، وظل عنتر يصطلي بعجزه وحدائقه. كل شيء تغير فيه. حتى صوته لم يعد ذلك الصوت الذي ينبعث منه إحساس بالثقة. ظل صامتاً فترة ثم نادى يعقوب وقال له بمرارة: أنا راض ببيت الصابون.

فقال يعقوب معترضاً: لن تطأه رجلاك أبداً. لقد شتمتني منذ حين وتوعدتني، ولن أكون في مأمن إذا سمحت لك بالإقامة بقربي.

قال عنتر: أعدك بأنك سوف تعيش في أمان.

قال يعقوب: لا لا. عهدك زور وبهتان.

فقال عنتر: بل وعد صادق. عليك أمان الله.

قال يعقوب: لا يمكن أن أثق في رجل له نزوع عدواني.

قال عنتر: بل أنا رجل مسالم.

قال يعقوب: إذا كنت كذلك فما هذا الذي تحمله؟

قال عنتر: خنجري، أذود به عن نفسي ولي فيه مآرب أخرى.

قال يعقوب: إذا كنت حقاً رجلاً مسالماً كما تدعي فألق به أو حطمه.

تردد عنتر وقال بأسى: «لقد دمرت نفسي وأصبحت مثل ذئب هرم. يركض في البرية بلا هدف أو معنى. فما حاجتي إلى الخنجر بعد اليوم»، وألقى به فتحطم ثم قال: هل رضيت الآن؟

قال يعقوب: ما زال ذلك الذي يلوح في ساعدك.

قال عنتر: وشم يذكرني بأصلي.

قال يعقوب: ما كتب فيه لا يرضيني. فلتزله.

«وأزال عنتر الوشم وما فيه ببقايا خنجره المحطم وقد انحبست أنفاسه في صدره وتغشت عيناه بضباب ساخن وتفتتت كل المتع الخفية. كانت النظرات من خلف النوافذ تنغرز في جسمه مثل الأبر وتهتك ستره، وكان أخوه واقفاً يرمقه مذهولاً ثم يدير له ظهره ويتوارى في الأزقة المتربة. وغامت الرؤية تماماً أمام عنتر وشرد ذهنه، وحتى لما أطل يعقوب وقال إنه لا يمكن أن يثق في رجل يبدل رأيه من النقيض إلى النقيض، لم ينتبه إليه فقد دون روحه داخل جسد متيبس فقد كل إحساس بالأشياء والزمن.

«أما أمه فقد فاضت روحها غماً وحسرة حين علمت بما آل إليه ابنها، وأما هو فقد تحول إلى مَعلم من معالم المدينة السياحية يجد فيه السائح صورة من ماضٍ غبر، ويتعرف على بعض أفعال هذا الذي كان في وقت ما بطلاً أسطورياً. أما من قادتهم أرجلهم إلى ذلك المكان من أهل البلاد فليس فيهم من يتذكره. وهل هناك من لا يزال يعرف عنتر؟ □

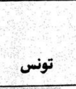
أحدهم أتلف الذخيرة

عبد المجيد بالطيب

■ منذ قليل، كانت هنا، أعرف ذلك، لقد مرّت من هنا، كلّ الناس يمرّون من هنا. دعوني أستريح الآن. أنا لست مشجباً أو صخرة أو شخصاً يلقي خطاباً في حملة انتخابية.

القافلة مرت من هنا. كانت هنا. غبار القافلة، غناء الحادي، الناي، السيوف الصدئة، الرمل، الذبائح، ◄





الخيام والهوادج، عرس الدم والبارود، نباح الكلاب، البعير، البدو، السراب، السراب.

أنا أقول إنّ المدى يطارد الطرائد (يضحك). مدجج بالهتك والإثم هذا المدى! (لا يخجل)، ما زلت غير قادر على الابتهال (يسحب قارورة فارغة من جيبه)، أتهيأ للمساء والتجاويف (يخلع أصفاده ويشهر عضوه التناسلي) ليكن مغيب الشمس مع مغيب الحشفة (أغنية لغصن وكثيب وقمر).

يقول الدكتور (. .) إنّ الناس آلهة اخترعوا العالم ليكون لعبة لهم، هبطوا إليه ثمّ أصبحوا ضحايا فقدانهم الذاكرة. وهكذا وقعوا في فخ لعبتهم.

أمّا سانت مارتين فيقول إنّ الإنسان هو بشكل ما إله نسي ميراثه أو تنازل عنه مختاراً فوصل إلى القبول بأنّه مجرد متسوّل.

كانت هنا. منذ قليل كانت هنا. أعرف ذلك. لقد مرّتْ من هنا. كل الناس يمرّون من هنا. دعوني أستريح الآن.

تسجيل على كاسيت:

هل تعرف أنّني أستمع الى صوتي لأول مرّة، أسجّل كلامي لأول مرة (يضحك) بعد لحظات سأصغي إلى نفسي (يضحك) الإنسان لا بدّ أن يصغي إلى نفسه (يحسّ بنبضاته تنأى عنه).

عندما كنتُ صبياً، كنتُ أحبّ القطط، ما زلتُ أحبّ القطط، المتشرّدة منها أيضاً، كلّ القطط أحبّها، حتى تلك التي دهستها عجلات السيارات.

مرّة استوقفني قطّ أو قطة عند مدخل مطعم فاخر، ويبدو أنّني مكثت طويلاً في البهو لأنّ النادل كرّر عدّة مرّات بلكنة أجنبية، ركيكة: تفضّل سيدي، هل جئت للعشاء؟ تفضل سيدي. هل تنتظر شخصاً ما؟ هل تريد أن أحجز لك؟ من حسن حظي أنني كنتُ أرتدي بدلة محترمة في تلك الليلة، وفضلاً عن ذلك كنت انتعل حذاءً نظيفاً وحليق الذقن! (يضحك)، لم أنتبه إلى النادل إلّا بعد أن قرر القط المراوغ وضع حد للحوار الذي دار بيني وبينه بواسطة العيون وحاسة سادسة بأن قفز من مكانه ومرق تحت الهياكل الراسية بمحاذاة الرصيف. (صمت)، (حشرجة ثم موسيقى عنيفة).

سوف لن أقول كل شيء في هذا التسجيل. ربّما لن أقول أي شيء على الاطلاق. لن أنشر وصيتي على أية حال. لا وصية لي أساساً. أنا أكره الطقوس الجنائزية. أنا أتحدث الآن لأنني أشعر بالضجر. فقط لأنّني أشعر بالضجر. لو لم أشعر بالضجر لذهبت إلى المقهى أو الحديقة، أو إلى الشاطىء أو إلى الشارع أو الى المطبخ أو إلى بائع الصحف أو إلى السينما أو إلى محطة القطار أو إلى المطار أو إلى السجن أو إلى اجتماع عام أو إلى لقاء خاص أو إلى صديقة قديمة أو إلى عابرة سبيل أو إلى مومس أو إلى صديق نسيت اسمه أو. . سأحرق هذا التسجيل بعد أن أفرغ من التسجيل. ربّما أرمي به من النافذة. وهناك احتمالات أخرى، كل الاحتمالات واردة.

لا أستطيع أن أنتزع جسمي من الفراش في غرفة شبه مظلمة. شريط التسجيل يئز، يئز. . منذ حين، كنت في الصحراء، خيّل إليّ أنني قناص منعزل يطلق النار على قافلة. بلا تمييز. هكذا، عشوائياً (يتأمل ساعة الحائط) فوهة ما لداحس والغبراء وأكياس من القش والخيش، صليل السلاسل والسّحم. أحتسي أوجاعي. أين هو مجرى العبير؟ (تصدر عنه حركة منافية لأخلاق القبيلة). غبار القافلة، غناء الحادي، الناي، السيوف الصدئة، الرمل، الذبائح، الخيام والهوادج، عرس الدم والبارود، نباح الكلاب، البعير، البدو، السرب.

تخرج الريّاح المدمرة من شقوق الأبراج وجراحات القلب (تضجّ المسافات وتطرف عيناه). أنا أقول إن المدى يطارد الطرائد (يضحك). مدجّج بالهتك والاثم هذا المدى. (لا يخجل) ما زلت غير قادر على الابتهال. (يسحب قارورة فارغة من جيبه). حبال الرمل تلف قارب السديم والعطش. العطش يفتضّ مزاج القمر (يتقلّب على الفراش، ينزلق، يميل على آلة التسجيل دون أن ينهض، يضع كاسيت عذراء، ويغوص في المشهد).

أضرب في ألق الصحراء وظهري ينحني على أعشاش الحزن كسيف قديم. الستائر مسدلة، وأنا لستُ متأكداً من أنني أدركت ما ترمي إليه، خيّل إليّ أنك أتيت من القافلة. لنفترض أنني ذهبت بعيداً، لنفترض أنني أهزّ بمعصمي عرقاً أو أنني أكنس المشهد برمته. (يجلس القرفصاء على السرير ويتقمص شخصيات مختلفة).

شخص ١: نحن ضد تشويه منجزاتنا، نحن ضد البكاء والوقوف على الأطلال، نحن نعمل للمستقبل، للأجيال الصاعدة (يضحك في قرارة نفسه).

شخص ٢: الآن وهنا، نحن نرفض الوعود المعسولة، **الآن وهنا** لا مجال للمغالطة. لن نسمح لك بالضحك على أذقاننا.

شخص ١: في المخطط القادم سـ. .

شخص ٢: (مقاطعاً): كلامك يا هذا لن ينطلي حتى على الحمير.

شخص ٣: (مترنّحاً): أبحث عن ليلى، وليلى لم تزل ليلى. (يوجه كلامه إلى رقم ١): لو كنتَ عثرتَ على ليلاك لكان وضعنا افضل، اعني، لانزاح عنّا هذا الليل. . (يلتفت إلى رقم ٢): ليكن مغيب الشمس مع مغيب الحشفة (أغنية لغصن وكثيب وقمر).

شخص ٤: المال. . لا شيء يضاهي المال، المال وبعدي الطوفان. (بينه وبين نفسه) بالمال أجعل رقم ١ يسير في «ركابي وأسحب البساط من تحت رقم ٢». وأشتري ليلى من سوق عكاظ ثم أضع قيود العشيرة حول جيدها وخاصرتها وقدميها» وأجرّها من نزل على بحر إلى نزل على بحر (يقهقه حتى يسقط على قفاه).

الستائر مسدلة، وأنا لا أزعم أنّني أدركت ما ترمي إليه، أضرب في ألق الصحراء وظهري ينحني على أعشاش الحزن كسيف قديم.

(يدور الشريط/الشريط يدور).

سنابل صوتي أقفرت من ضفائرها. هذه الكاسيت مربض خيلي. سنابك وصهيل ورجال يزرعون السماء في طائرات مختطفة، ونحن نستقبل كل يوم توابيت الأحلام الميتة في مطارات البضائع المستوردة والمهرّبة. . يناير للفقراء والمحاكم، حزيران للأبواق والهزائم. أيلول للمجازر والمآتم، ولكل الفصول. . أيلول. دعوني أستريح الآن. أنا لست مشجباً أو صخرة أو شخصاً يلقي خطبة في حملة انتخابية.

بقية التسجيل:

أحسّ بضربات قلبي تفرّ في كل الاتجاهات، لا أستطيع أن أنتزع نفسي من السرير. هناك غيوم معلقة فوق الركح. لم أطلب الى

العرّاف أن يأتي، ربما أحتاج إلى بعض الأعشاب البرية. الإضاءة رديئة. طلاء القاعة لا يتماشى والديكور. طبيعة جامدة، لا موقد للذكرى. امرأة هائجة تخترق جدار الصمت، تجرّ ولدها من ذراعه، تقف في خضم دائرة الضوء، تحملق في الجمهور النائم على المقاعد المتآكلة، تصرخ: «سيبقى معي». تنتفض القاعة، ضجيج مكتوم، تصرخ المرأة بتشنج: «قلت لكم سيبقى معي.. لا توجد قوة في العالم بإمكانها أن تحرمني منه». (تدفع ولدها أمامها وتختفي وإيّاه وراء الظلام بسرعة البرق).

(فترة استراحة).. (الشريط يئز في الفراغ).

رؤية بيضاء:

أسلمني الليل للكاسيت والشبق المحموم. (هـ) تحسر عن فخذيها في القطارات المتجهة الى المدن الرمادية، مدن الجحيم المكيّف والإسمنت المسلح. دعوني أصارحكم بأنني أحب (هـ) لأنها تنسف كل الشائعات الداكنة، تتحدّى الخراب مثل تلك الأزهار اللقيطة التي تنبت حول الأسلاك الشائكة. صفير القطار يشق ستائر الغسق.. محطة ما. يضع حقيبته على حافة الركح. يتعانقان.. ينفصلان.

هو: ما زلنا غريبين بالرغم من كل الذي حصل!

هي: هل أنا في نقطة المركز؟

هو: خطوتان الى الشمال، وثالثة الى الخلف، عندها ربما تصبحين في المركز تماماً.

هي: ثمة خطأ. لو عملت بتوجيهاتك لحدث كثيراً عن بقعة الضوء وابتلعتني العتمة، تماماً.

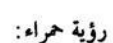
هو: الإضاءة رديئة والجمهور نائم. من الأفضل أن نغادر الخشبة في الحال.

(يخرجان)

المخرج: هذا تخريب! خروج عن النص، اعتداء سافر على شرف المهنة، اختلال شائن بالواجب.. الخ.. الخ..

رؤية سوداء:

هؤلاء الناس يتحركون في فضاء شريط سينمائي صامت، أسود وأبيض، لقد جاؤوا من القرى والأصقاع والأحراش في ليلة مسعورة، يتضوّرون جوعاً، يتأبطون هوائيات التلفزيون، يرزحون تحت أعباء العفش، أشباح وجماجم تزحف على الإسفلت والمسالك المحفرة، يهيلون التراب على موتاهم ويتناسلون مثل الفئران، يصفقون بحماسة منقطعة النظير عندما تدخل الكرة في المرمى. لم يكن كافياً أن يشيعوا البغضاء والقبح. عليهم أن يصفقوا ويصفقوا وأن يرسموا تكشيرات بلهاء على سحناتهم، سيئة الطالع... زخات الرصاص تعول في الأمخاخ، والغبار يحجب مشهد الرجل المثخن بالجراح الذي سقط قرب محل لبيع المواد المبيدة للحشرات. الأصدقاء والرفاق يتبادلون نظرات باهتة ويتسمرون في أماكنهم. رجال ونساء يعبرون الحواجز دون أن يلتفتوا إلى الوراء، يجرون الأطفال، من بقي منهم على قيد الحياة. يهرولون، يرفعون لافتات ضخمة ويطلقون شعارات خرساء، لا طعم لها لأنّ الشريط صامت والفضاء مثقوب إلخ.. الخ..



رؤية حمراء:

ترتعش الشمعة على منضدة منخفضة ويدور الشريط، تضعف الشمعة ويقطر ذوبها، القطرة تلو القطرة. غداً يبت في أمر الصفقة. هو يعرف السيد (ك) الذي التقى به يوماً بالقرب من الميناء والذي أعلن له أن الوقت الرابعة وست عشرة دقيقة بالضبط. كانت هناك طيور مهاجرة وأحواض لإصلاح السفن ومداخن وشاحنات ومياه عكرة وكلام له وقع الحوافر على الصخور. سيبحث معه في جميع التفاصيل. السيد (ك) يعنى بالتفاصيل الى حد الهوس. لن تكون هناك أخطاء أو ثغرات هذه المرة. ستفرغ الباخرة حمولتها على الرصيف المحدد، في الوقت المحدد، ثم تقوم شاحنات معينة بنقل الصناديق الى المخازن المتفق عليها سلفاً، مع ملازمة اليقظة والتكتم، وبعد ذلك يتم توزيع البضاعة على نقاط البيع بعد الحصول على التراخيص اللازمة بالطرق الملتوية المعهودة، وتفرض الأسعار القصوى! ولتذهب النقابات إلى الجحيم (يتوقف التسجيل نهائياً. صمت. كلام فاتر).

حرب قذرة وصفقات مشبوهة في بلد جميل، بلد محشو بالذخيرة دائماً، ومدهش دائماً. □



■ ها أنا أرى السماء يُلامس الماء ويتّحدان في نقطة واحدة، والسّمك الصغير يحوم حول السفينة ويقول: «خذوني».

وماء البحر يغريني: «اشرب ولا تخف».

وأشربُ رشفة.. أتفلها للتّو.. وأتفل وراءها قلبي، وأرى السّحب تتزاوج فوقي فأصبّر نفسي وأعلّلها، وألمس الجسد الممدود كجذع نخلة.

قلت له حين رأيته يهمّ بالشرب من اليمّ: «ما أكبر غباؤك يا صاحبي! تداوي العطش بماء البحر!».

رفع عينيه الذابلتين من طول السّهر وقال: «ما أكبر صبرك أيّها الجمل!».

وزادت السّحب التصاقاً ببعضها، وغابت الشمس، وبدأ المطر ينهمر.

نزعت قميصي ورفعته في الفضاء، ما بين السماء والبحر، وقلت للماء المنهمر: «تعال إلى هنا». ◄



ورقصت السفينة طرباً.

وفتح صديقي الميّت عيونه جميعها، وقال لي: «أعطني كأس ماء بارد».

فتحتُ باب الثّلاجة وأعطيته ماء مثلّجاً ممزوجاً بعطر الزّهر. شرب الماء وعاد إلى نومته. وعدت إلى قميصي أصطاد به قطرات المطر أبلّل بها شفاهي اليابسة.

خمسة أيام ونحن هنا، ما بين الماء والماء.

جئنا نصطاد السّمك فاصطادنا البحر. تعطّب محرّك السّفينة وتعطّب معه عقلي وعقل صاحبي، فضعنا وسط هذه الصحراء.

جعنا فأكلنا السّمك نيّئاً، وعطشنا فشربنا الماء المالح.

قلت لصاحبي.. «أرشف من الماء قليلاً قليلاً».

فقال لي: «ما أعظم صبرك أيّها الجمل!».

في مساء اليوم الثاني رأينا حوّامة تطوف في السماء.

قلنا: «جاء الفرج».

نزعنا ملابسنا ولوّحنا بها. نادينا بأصواتنا حتى بحّت الحناجر، والحوّامة تطوف، والطّيار لا يرانا. ثم غابت الطّوافة، فسقط صاحبي على ركبتيه وبكى.

قلت له: «عوض البكاء، ادع ربّك يبعث لنا بحوت يونس».

قال لي: «عندما أموت اذبحني بسكّين حادّة من الوريد إلى الوريد وتأكّد من أنّ عنقي مقطوع. إنّني أخاف أن أستيقظ فأجدني في جوف الحوت».

وضعت يدي على رأسه، فأخرج من جيبه موسى، وقال لي: «إذبحني بهذا السّكين يا صاحبي».

قلت له: «ألا تأمل معي بالحوت؟».

قال: «لقد مات حوت يونس. وهاك السّكين».

عندما ابتلّ القميص بماء المطر، عصرته في فمي، فأحسست بطعم العرق في حلقي، وقلت لصاحبي: «افتح فمك». ففتحه. عصرت له قطرات من الماء، فشربها ومسح على شفتيه بلسانه، وقال لي: «لماذا لم تذبحني؟».

قلت له: «لقد بدأ المطر في الهطول وأنت رفضت أن تأخذ نصيبك ومتّ وماء البحر يملأ جوفك».

قال: «ما أكبر صبرك أيّها الجمل!».

كان ماء البحر يقتل صاحبي،

والشمس الحارقة تقتل صاحبي،

والحوّامة التي طارت فوق رأسينا ولم يرنا طيارها تقتل صاحبي،

وسماسرة الميناء يقتلون صاحبي،

وأكداس السّمك التي تعود وسط الصّناديق المثلّجة إلى جوف البحر تقتل صاحبي،

وتلويحة أيدي الأبناء ونحن نغادر المنزل تقتل صاحبي،

وارتعاشة الحبّ فوق السّرير تقتل صاحبي،

وحوت يونس يقتل صاحبي،

وتلويحة الثّياب تقتل صاحبي،

وصوت الحناجر المبحوحة يقتل صاحبي،

وسمسار السّمك المربّع الشّكل - يقلّب الصناديق باشمئزاز - يقتل صاحبي،

وكيلو السّردين الذي نبيعه «بمليم» في الميناء ونشتريه «بدينار» في الشّادر يقتل صاحبي،

وحوت يونس الذي لا يجيء يقتل صاحبي، فيشرب من ماء البحر. يملأ بطنه الذي انتفخ كالكرة. ويقول لي: «ما أكبر صبرك أيّها الجمل!».

ويستلّ من جيبه سكّيناً ويصرخ بي في وهن: «عندما أموت اذبحني من الوريد إلى الوريد».

فيتكدّس السّمك فوق الموائد والطّاولات:

السّمك المقلي،

والسّمك المشوي،

والسّمك المحمّر،

والسّمك المعلّب مع صلصة الطماطم، والمعدّ للتّصدير إلى موانئ المدن البعيدة.

وسمك «التّونة» السّمين،

وسمك «السّردين» المغناج،

وسمك «البوري»،

وسمك «القرش» الذي يأكل «التّونة»،

و«التونة» التي تأكل «البوري»،

و«البوري» الذي يأكل «السّردين»،

و«السّردين» الكبير الذي يأكل «السّردين» الصّغير،

وحوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ يأكلْ حوتْ...

وسمسار الميناء الذي يأكل صاحب سفن الصّيد،

وأصحاب السّفن الذين يأكلون البحّارة، والبحّارة الذين يرمون بالحوت في البحر،

والبحر الذي يرمي بالحوت الميّت إلى شطآنه،

والحوت الميّت يتكدّس على الرّمل،

وطيور البحر تأكل الحوت الميّت،

ويستفيق صاحبي من موته. يُجمّع السّمك المرمي على الرّمل، وينفخ فيه من روحه، فيستفيق السّمك، ويعود إلى البحر، ليأكله السّمسار

من جديد.

ويهمس صاحبي في أذني: «ما أكبر صبرك أيّها الجمل!».

مات صاحبي في اليوم الرابع من ضياعنا في البحر. أغمض عينيه ونام.

ناديته: «استفق أيّها الميّت. أما تأمل بحوت يونس؟».

قال: «حوت يونس مات. ولا ترم بسكّيني إلى البحر. اذبحني من الوريد إلى الوريد».

تمدّدت بجانبه. وقبل أن أموت قلت له: «سامحني يا صديقي فقلبي لا يقدر على ذبح عصفور».

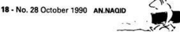
ونمت.

وجاء حوت يونس وأنا نائم.

وعندما فتحت عينيّ رأيت الأطبّاء والممرّضين، وسمعتهم يرطنون بلغة غير «لغة أهل الجنّة».

قلت: «لم يقدر عليك الموت أيّها الجمل!».

ونمتُ من جديد... □



السودان

الملك والشاعر والمغني والحكيم

محمد المهدي بشري

■ كانوا ثلاثة: المغني والشاعر وحكيم القرية.

المغني.. كانت العذارى يتكئن على ضفاف صوته، والعاشقون يغزلون الحكايات عن حبيباتهم من دفء هذا الصوت.

الشاعر ما قال كلمة إلا وصارت خبزاً لكل جائع، ونافذة يدخل منها الضوء لكل مظلوم.

وحكيم القرية كان يقرأ المستقبل كما تقرأ الكتب.

لكن حين جاء القرية البلاء والكرب، أضحت البلاد دياراً ينعق فيها البوم. وجاء رجل. من أين؟ لا أحد في القرية يدري. الأطفال قالوا: جاء من مكان مجهول، هبط القرية في تلك الليلة الظلماء. أما النساء فقلن إنه هرب من ديار بعيدة بعيدة. لكن الرجل القادم، والناس في حيرة من أمره، صعد كرسي الحكم، وحكم تلك الديار بالقهر والظلم، وظل في كرسيه ذاك زماناً ليس بالقصير.

سئم الناس ملكهم وطول مكوثه على العرش، وتمنوا أجمعين ذهابه، وظنوا بذهابه رخاء قريتهم. لكن الملك تعوّد الجلوس على العرش، وتوهم أن القرية تدين له بالولاء والطاعة. وتلفت ذات يوم، فلم يسمع غناء المغني ولا قول الحكيم ولا قصيد الشاعر، فظنهم هجروا الديار. ولكنه بعد حين عرف حقيقة وجودهم بالقرية، فأمر بهم في قصره، وأرسل جنده للإتيان بهم.. وجيء بهم.

سأل الملك الشاعر، وسأل الحكيم، وسأل المغني: أيكم يحبني أكثر؟

لكن الشاعر ما أجاب. والحكيم ما أجاب، والمغني ما أجاب، فغضب الملك وظن أن الشاعر والحكيم والمغني سئموا أيضاً مكوثه في الحكم مثل باقي رعاياه.

عرف الناس الواقعة، وخافوا على مصير الشاعر والمغني والحكيم. وقالوا إن خير ما يفعله هؤلاء الرجال الثلاثة أن يلوذوا بالفرار من وجه الملك وغضبه.

وفرّ الشاعر إلى ديار بعيدة بعيدة. وعلم الملك بهذا، فأمر بالحكيم والمغني فجيء بهما وسأل الملك الحكيم: ألا تحبني يا حكيم القرية؟؟ وهل سئمت مكوثي في الحكم؟؟

لكن الحكيم ما أجاب.

وسأل المغني: ألا تحبني يا مغني القرية؟؟ وهل سئمت مكوثي في الحكم؟

والمغني أيضاً ما أجاب. فثار الملك، وقال لهما: سأعطي كلا منكما أسبوعاً ليفكر في إجابة يقولها لي. ومن لم أرض عما يقول سيكون مصيره التعاسة والشقاء.. اذهبا عني.

ومضى أسبوع وجيء بالحكيم والمغني. وسألهما ذات السؤال.

تلعثم الحكيم وهو يشاهد سيفاً مصقولاً في يمين حاجب الملك، فقال: أنا ظمآن.

وجيء له بماء عذب، وشرب، وأحس براحة، وقال للملك: يا ملكنا العظيم، أنا ما سئمت بقاءك في الحكم.

لكن الملك لم يرض عن هذه الاجابة، وخيره بين القتل أو أن يصير شيئاً آخر. وظن الحكيم أن حكمته قد تنقذه من غضب الملك فقال للملك: يا ملكنا العظيم.. أود لو صرت حذاء في قدمك اليمنى.

وكان له ما أراد. ومن ذلك الحين كان الناس يسمعون أطيط حذاء الملك فوق بلاط القصر، ويقولون هذا صوت كلمات حكيم القرية.

لكن مغني القرية، قال للملك: أريد أن أكون كما أنا مغنياً للقرية.. تلك القرية التي سئمت مكوثك على العرش.

فأمر الملك سيافه بقطع رأس المغني. وعاجله السياف بضربة أطاحت برأسه، لكن الرأس لم يسقط بل صار عصفوراً جميلاً زاهي الألوان، يشدو دائماً بصوت عذب، فيفرح أهل القرية وينسيهم شقاءهم وتعاستهم مع الملك الظالم. □

الخاتم

طارق الطيب

■ الصفعة أكبر من وجه مبروك، صوتها أعلى من صرخة أمه. تتكرر الصفعة ثلاث مرات، وتتكرر الصرخة المرعوشة أعلى ثم أعلى طلباً للنجدة. مجموعة اللعنات والشتائم تتطاير في الغرفة الباردة، لا تلتقط أذن مبروك ـ المطروشة ضرباً ـ منها شيئاً. نبرات التهديد المميزة تسري في الأعصاب مثل تيار كهربي متقطع، يشل التحكم في جسم مبروك الصغير النحيف. تسيل دموع ساخنة من أسفله، يحاول أن يقبض بقدميه عليها.. يخونه كل شيء. يزداد خزيه وعاره وهو يشعر بخطوط ساخنة تتدفق مكونة بقعة صفراء على بلاط الغرفة تحت حذائه الأغبر.

تدخل الأم، ملهوفة تخشى الانتظار، محايدة تخشى التدخل. ◄



السودان

مبروك ينظر إليها بتضرع ويتحاشى النظر إلى أبيه. نبرة التهديد المميزة تتكرر، وترتعش أهداب مبروك في نهاية كل حرف منها. شجاعة الخوف تواتيه، يقفز فجأة إلى أمه، يدفن رأسه في بطنها، يبكي. ينتزعه أبوه من ذراعه الضعيفة، يوقفه عن البكاء، يعيده إلى مكانه فوق البقعة، يكرر السؤال الذي لا يعيه مبروك: «أين ضاع؟».

يرتعش مبروك وهو ينتظر بقية السؤال.. الصفعة المؤلمة. تسأل الأم الاثنين معاً: «ما الذي ضاع؟».

يتجاهل الأب سؤالها، يكرر سؤاله وهو يفرك أذن مبروك بين ابهامه وسبابته: «أين ضاع منك يا حيوان؟».

*

في الغرفة الأخرى ست أخوات لمبروك يشاهدن مسرحية على جهاز الفيديو. أصوات المسرحية عالية غير مفهومة، تتخللها ضحكات مبتورة أو ممطوطة، وأصوات تقليد لما قيل ولما سيقال في محاولات متنوعة لتقليد النغمة نفسها.

*

مبروك هو الطفل الأخير. العادة أجبرت على الانجاب المتكرر حتى خروج الذكر، مبعث الفخر والرجولة. هذا النحيف الصغير في السنة الثانية الابتدائية، يتميز عن اقرانه في المدرسة بالذكاء والتعليقات الساخرة، وعن شقيقاته بذكورته.. ولكنه طفل صغير يحمل من الحياة سبع سنوات عجاف مثل هيكله.

*

أبو مبروك يعمل سائق سيارة أجرة. منحته الحكومة ترخيصاً لنقل السيّاح بين مكانين محددين بسيارته. واليوم قبل الظهر، بعد جلسته على المقهى للشكوى من الحال في تذمر المتحفظ الخائف على أكل عيشه، عاد إلى البيت يسب ويقول أمام زوجته ما لم يقله في المقهى: «الله يلعن البلد! لا يمر شهر إلا ويغلق المكان أياماً، ويحظر على الجميع التحرك في هذا المكان. حتى أصحاب المحال تقطع أرزاقهم وتغلق محالهم من أجل عيون الرئيس وضيوف الرئيس.. قاعدين على رأس البلد لخرابها».

ينطق أبو مبروك الكلمات بمرارة ويأس، وفي صوت تهديدي أعلى: «أين ضاع منك يا حيوان يا ابن الحيوان؟».

تهتز شفتان رقيقتان نهايتاهما إلى أسفل. عيون زجاجية تحفظ خلفها دموعاً، واحساس ببرودة السروال والجورب داخل الحذاء. الأم تنتظر الاجابة أكثر لهفة من الأب اليائس. يتهدج مبروك بحروف ممطوطة: «الـ... ر.... رئيس».

- «رئيس؟».

يسأل الأب وهو يجلس على نهاية السرير. يكمل مبروك - بعد ابتعاد الأب عنه قليلاً - في صوت ملتو حزين: «جمعونا اليوم من المدرسة. (يسكت فترة) كل الفصول. خرجنا بلا درس لنقف في موكب تحية الرئيس وضيفه. أخذونا في أوتوبيس كبير وحملنا صورة الرئيس وضيفه.. وحفّظونا في الأوتوبيس الهتاف الذي سنهتف به. وقفنا طول اليوم في الشارع.. ولم يمر، أجّل الزيارة لليوم التالي. وحين عدنا للأوتوبيس (يسكت مرة أخرى وتنتابه نوبة بكاء مكتومة متشنجة) لم.. أجد.. خاتمي.. الذهبي. توسلت للأستاذ صابر أن ينزلني لأبحث عنه مكان وقوفنا، ولكنه رفض، وطلب من التلاميذ أن يبحثوا معي في الأوتوبيس. لم نجده فقال لي: أنت تلميذ خائب ومهمل..».

تلتوي نهايتا فم مبروك ويزم على شفتيه. الأم لا تتكلم، انتابتها حسرة وهي تقترب لتتحسس أصبعه العاري. كانت دائماً تفتخر بخاتمه الذهبي، تلبسه له في مناسبة وغير مناسبة، كانت تهز رأسها دائماً بحركة عبيطة معبرة عن سعادتها وهي ترى الخاتم الذهبي في إصبع مبروك. اشترته له بصحبة أمها، وأرادته الجدة أوسع قليلاً، ليلبسه أطول فترة من الزمن. لفّت عليه من أسفل خيطاً رفيعاً ليضيق ويناسب أصبع مبروك النحيف، ولكنه لم يضيق. كان الأب أيضاً فخوراً حين ينادي من جلسته على المقهى ابنه مبروكاً ليصافحه بطرقعة يد عالية يقهقه لها الأب، ويفرك خاتم ابنه سعيداً، ثم يطلب إليه الإسراع ليشرف على حريم البيت حتى عودته.

يقوم الأب من مكانه ساخطاً مهزوماً، يقول: «ستظل طول عمرك حيواناً».

بكاء مبروك يعلو في هدجات متشنجة متقطعة، والأم تقترب وهي تعاود من البداية السؤال الكريه على مسمعه: «أين ضاع منك الخاتم يا مبروك؟».

*

في المساء يعود الأب من المقهى، يأمر الجميع باغلاق الفيديو والذهاب للنوم، ينفذ الجميع الأمر في هدوء. تذهب أم مبروك فوراً لتجهز ماءً ساخناً. تعود إلى غرفة النوم، تجري مبسوطة خائفة.

يقوم مبروك ليخفف عن مثانته الخائنة حملها، يمر بغرفة أمه وأبيه المغلقة، يسمع أصوات بحّات وقبلات ونهنهات مكتومة، وصوت أبيه متحشرجاً متخللاً أنفاسه المبحوحة العالية: «ولد.. ولد.. ولد».

يسرع مبروك إلى الحمّام. يفرغ ما في مثانته في وعاء الماء الساخن، ويعود مسترخياً لينام. □

التوق

عبد القادر محمد ابراهيم

■ يغوص الارتباط عميقاً في أغوار التاريخ، ضارباً بجذوره بعيداً عبر الأيام والسنين والقرون. ارتباط لا انفكاك منه منذ الزمان السحيق، آلاف آلاف السنين والقرون، وكانت الأرض غيرها الآن، أدغال وعواصف وأمطار وثلوج. حيوانات تلتهم الأعشاب فزعة من حيوانات تفترسها. ولقد كان الارتباط أبدياً بين ذرات الكربون، وثيقاً بينها وبين ذرات الأكسجين والايدروجين في جزيء البروتين ذاك.

عندما التقت عيناه بعينيها، أحس الفتى فوراناً داخلياً صَخِباً واختلاجاً يعم جميع الجسد. خفقات سريعة متتالية كأنها حبات عقد انتضدها خيط قوي يشد العينين إلى العينين. وما فتىء يحدق فيها، وهي بالمثل، حتى جذبه أحد الصحاب لائماً إياه عدم مشاركتهم اللعب، فاستجاب غائب الذهن يخطىء الكرة تارة، وتارة تمر بجانبه دون أن يلمسها. فتيات كثيرات رآهن في تجواله؛ في المنازل الأنيقة التي تحيط بالميدان وفي غير تلك التي تحيط بالميدان، في هذا الحي وفي غيره، لكن واحدة منهن لم يحدث معها ما حدث مع هذه. ففي تينك العينين اللتين بادلتاه التحديق والانبهار، والشد والجذب، شيء يخصه.

من ذرات مهملة بين الطحالب مفككة على شاطىء معشوشب امتصها جذر نبات صعّدها لثمرة آخت بين الكربون والأكسجين والايدروجين وعقدت رباط الذرات، تكوّن الجزيء. التقط عصفور الثمرة وارتوى من ماء الشاطىء ثم حلّق في الهواء. هضمها وابتنى منها جسده. وهكذا استقر جزيء البروتين لبنة في نسيج خلايا العصفور. لكن العصفور هوى ذات يوم غذاءً للديدان، فامتصت دودة الجزيء فيما امتصت وذهبت به تدبّ في الأرض. اعتلى طائر أنثاه يلقحها. نفضت الأنثى ريشها بعد اللقاح وخرجت تبحث عن طعامها مطمئنة هادئة البال، وبينما هي تنكث الأرض بمنقارها إذ عثرت على دودة سمينة كان غذاؤها من بني جلدتها. وهكذا شاءت الأقدار لجزيء البروتين أن يغدو في رحلة داخل جهاز أنثى الطائر المضمي وعبر دودتها الدموية حتى الرحم حيث يطيب له المقام واحداً من مكونات البيضة. وفي الركن حيث يتفرّع فرع شجرة من ساقها أعدت الأم عشاً دافئاً وضعت عليه البيضة واحتضنتها لفترة ثم طارت. اجتذبت رائحة البيض الطازج ثعباناً التف حول ساق الشجرة وزحف صعوداً إلى العش. ابتلع البيضة هنيئاً مريئاً ثم تلوى على الساق هبوطاً إلى الأرض متراقصاً عليها حتى اختفى بين الأعشاب.

من غياهب الماضي، تلقت العينان من العينين رسالة تحمل روائح الأمطار والبروق والزوابع. دهور من الثلوج والصواعق وتفاعل الكربون والجير. غابات وجبال وكهوف وارتباط الإنسان بالإنسان من الأبد وإلى الأبد. رحلة الصراع والشقاء وافتراس الوحوش. ارتحلت الفتاة عبر عيني الفتى إلى ركن غامض غموض الحقيقة في ظل المأساة، ومن الركن تنبلج شموس وعوالم كانت هناك معاشة ومنسية، كهوف وصيادون ورعاة. عصور انحطاط ومجاعات وحروب ودمار. عصور ازدهار وسفن مبحرات وفرسان ودمقس وحرير. منداة الجبين رغم الشتاء سارت الفتاة إلى داخل المنزل محاذرة تخفي اضطرابها عن العيون. خافقة الفؤاد اختلت بنفسها في حجرتها، استلقت وأغمضت عينيها تستعيد عالم تينك العينين، لكن سؤالاً ظل ينقر في جدار القلب يلح مع كل نبضة من نبضاته؛ فبالميدان كثير من الفتيان، تراهم يومياً في غدوها ورواحها، وفي الشوارع أيضاً يوجد أمثاله، فلماذا هو بالذات؟! غير أن احساساً غامضاً في الأعماق وارتياحاً ينساب حيّاً بين الحنايا، يؤكد أن هذا الفتى يخصها هي دون العالمين!

تنقّل جزيء البروتين في الزمان والمكان وعبر الأجساد حتى قرّ قراره الأخير حيث انفك رباط القرون بين الذرات وثم انقسامها فريقين ذهب كل فريق مذهباً يتوق للقاء الآخر. الرحلة من بين الطحالب عند الشاطىء المعشوشب وثمرة النبات الى فخذ خروف معلقة في دكان جزار بالحي الأنيق استغرقت عصوراً من البراكين واحتراق الغابات والجليد والفيضايات. كان في جسم حشرة ابتلعها زاحف فدخل في بناء ذيله، وكان ضمن تركيب قلب حمار وحش افترسه نمر فصار في أنسجة دماغه. هو تارة في كبد أرنب، وتارة في خياشيم سمكة قادها حظها السيء إلى جوف تمساح. وهكذا كان هنا وكان هناك، لا انفكاك بين ذراته، ولا زيادة ولا نقصان، حتى كان ذلك اليوم حين عمل الفرن الكهربائي وسكين ربة البيت. الدرجة العالية للحرارة مع سريان الكهرباء في سلك ناشز من أسلاك الفرن وشرارة انطلقت كالبرق على احدى قطع لحم فخذ الخروف، فتباعدت الذرات وتمدد الجزيء، مما مكّن السكين لتغوص وبتغلغل حدها قاسمة الذرات الى جزيئين صغيرين يذهب كل واحد منهما في قطعة شواء، يتوقان إلى الالتقاء، والالتئام مرة أخرى.

في صالة المنزل المنسق في الحي الأنيق جلس الأخوان يستأنسان. كان الأصغر العازب في زيارة للمدينة ينزل في ضيافة الأكبر المتزوج حديثاً. وكان الأخ الأكبر يحاول استمالة قلب أخيه للحياة الزوجية ويزيّنها له. لكن الأصغر إلى العبث والانطلاق كان أميل. وضعت ربة البيت صحاف الطعام أمامهما وتدخلت في الحديث تعد حماها بالبحث له عن العروس اللائقة إن أراد. أقبل الاخوان على طبق الشواء بشهية وهما يتضاحكان. غير أن احساساً مأساوياً غامضاً انتابهما حين تناول كلٌ منهما في اللحظة نفسها قطعة الشواء المحتوية على جزيء البروتين النصف. كأنما مغنطيسية تجذب القطعتين إلى بعضهما. سرى خدر المغنطيس في كلا الجسدين وهما يلوكان القطعتين وشعوراً مبهماً بارتكاب ذنب ما يتكتمان عليه.

صباح اليوم التالي، جلست الفتاة في حديقة المنزل تنتظر الفتى. تشرئب بعنقها كل آونة وأخرى عبر السياج تبحث تحت الأشجار التي تحوط الميدان. قناعة داخلية تؤكد أنه سيجيء مدفوعاً بالاحساس نفسه. ستأخذه تواً إلى الحمام تزيل عنه الأدران والأوساخ، تصفف الشعر المنكوش، وسينجلي عن فتى وسيم وديع فيه منها الشبه الكثير. أخبرتها بذلك المرآة حينما حدقت فيها بالأمس. ستبدل ثيابه الرثة بأخرى نظيفة جديدة وتجلسه بجانبها على الأرجوحة هنا في الحديقة. ستعتذر له عن خطايا البشرية والأدباء والأجداد، يبكيان ويغتسلان من شوائب الدهور وما ارتكب القوي في حق الضعيف وما استذل إنساناً أنساناً. وبعدما تصفو روحاهما ستحدثه كثيراً عن صاحباتها وعن سكان حيها وعن مدرستها وهي تعلم جيداً أنه لم يدخل مدرسة قط. ستنقله إلى عالمها وسيضحكان من القلب ويلعبان ويتسابقان ويتقاذفان.

زايل الاحساس الأثم المبهم الأخوين حالما ابتلعا قطعتي الشواء فعادا إلى الضحك والمؤانسة. ذهب الجزيء النصف في كلٍ فيما ذهب ضمن مكونات ماء الرجلين، وما فتىء التوق إلى الالتقاء ولَمّ الشمل يحدو الذرات.

بعد أيام، ألحّت الحاجة على الأكبر، فاختلى بزوجته، وأفرغ فيها احساساً مأساوياً غامضاً. قامت منه تكتم قرفاً وامتعاضاً مبهمين. أما الأصغر فلم يجد حين اعتصرته الحاجة غير خادمة المنزل. بكت هذه كثيراً، فلولا ظروف مجاعة وجفاف قذفت بها إلى هذه المدينة ◄



لكان لها زوج لا يمزقها بعد مواقعته خوف ولا قلق.

صاحبة المنزل لا تحبه، يعرف ذلك، ويعرف أنها تكره وجوده في منزلها. وأمه لا تملك غير دموع تذرفها في صمت مرير رضوخاً لرغبات التي تؤويها، ولولا المأوى لما كانت لقمة العيش. عليه أن يجيء إلى المدينة صباحاً كل يوم ولا يغادرها حتى المساء. يجوب شوارعها، يستظل في ميادينها، يلتقط طعامه من براميلها، تطارده شرطتها، يلعب مع أمثاله ويتجنب بيوتها خاصة تلك التي تبدو نظيفة منسقة. وعندما يعود مساءً عليه أن ينام بعيداً عن حجرة أمه؛ وهذا أمر إذا احتمله صيفاً حين يوضع سريره في ركن قصيٍّ من الحوش، فهو فوق احتماله شتاءً. وفي تينك العينين اللتين اجتذبتاه دفء وأمان. كيف تنام تلك الفتاة في هذا الشتاء يا ترى؟ لا بد أنها بين أمها وأبيها في حجرة مليئة بالمفارش والمساند والأغطية، لا تقلق منامها الوساوس والمحاذير.

بشرت الزوجة زوجها بانقطاع الحيض. قال يريده غلاماً يحمل اسم أبيه وينشئه مفيداً للآخرين، يحقق فيه أفكاراً تربوية طالما راودته. قالت تريدها فتاة تزوقها وتهذبها وتجعل منها زينة البيت وبهجة الحياة. قالت الخادمة في سرها: لو حدث - ولا قدر الله - فإنها لا تريدها فتاة تضعف أمام الأعاصير وقسوة الحياة فتنزلق منزلقها، بل فتى يكبر ويعمل، يبتني لها منزلاً يؤويها. لاحظت الزوجة أن بطن خادمتها في نمو وانتفاخ موازٍ لانتفاخ بطنها. تهامست مع زوجها في الأمر فلم يجدا بداً من أبعادها. لكن ما أثار حيرتها وتكتمت عليه فلم تبح به إلى أحد هو أن ما في بطنها يتحرك كلما نظرت إلى بطن خادمتها.



اغتسل رغم البرد، حتى أن صاحبة المنزل احتجت على تبذيره للماء. سخرت منه عندما رأته يرتدي أحسن ما عنده من ملابس. قالت مخاطبة أمه إن ابنك قد صار عاشقاً، فلا بد أنه اليوم على موعد مع حبيبته قرب أحد البراميل. سار كالمنوّم وقد اكتسى محياه بسيماء الإرهاق والأرق فحملت وسامته نكهة خاصة. جاء إلى الميدان وجاءوا. جاء خافق الفؤاد مثقلاً اسياناً، فلم يشاركهم اللعب. جاؤوا في أسمالهم يتسابقون ويمرحون. مشى في تصميم نحو المنزل. رأته فترجلت من أرجوحتها وسارت نحو الباب. رآها فتسمّر في مكانه. لم تقو هي على فتح الباب فوقفت تنظر إليه من بين القضبان لتنقل النظرات حديثاً مهموساً في القلب. تشابكت نظراتها طويلاً فشكا لها وآسته. نادتها أمها بصوت غاضب فانتزعت عينيها من عينيه وهرولت إلى داخل البيت. تقهقر هو إلى ظل شجرة وجلس ساهماً.

في طرف قصي من أطراف المدينة، ولدى صاحبة منزل توفر المتعة للطارقين ليلاً، كان الملاذ حيث تضع حملها، نظير أن تبقى بعد ذلك طبقاً في موائد اللهو. في الحي الأنيق كانت الاستعدادات لاستقبال المولود تجري في صخب وابتسام. في الطرف القصي جاءت القابلة سراً وجرى الاستعداد في همس وحذر. أطلقت هذه صرخة المخاض مجلجلة كأنها زغرودة تشق سكون الليل تعلن أمومتها. كتمت تلك صرخة مخاضها فخرجت حشرجة من بين أسنان مكشرة في اشمئزاز. أرسلت المولودة هنا بكاءً كأنه أهزوجة ومناغاة فاستبشرن من حولها لملامح الجمال الواعد وحمدن الله على سلامة الأم. أرسل المولود هناك عويلاً مؤلماً ينضح مرارة كأنها أشواك وخزته، فتنفست صاحبة المنزل الصعداء لانقشاع الأزمة، ولولا بقية من إنسانية تبقت فيها لامتدت يدها إلى رقبته.

لاحظ انفراج أغصان السياج الخضراء وعينين تلمعان من خلفها. ازداد الانفراج شيئاً فشيئاً، وأطل الوجه كقمر انزاحت عنه ركام السحب. انزاح عن قلبه ثقل الأسى وتسرب بصيص من السعادة. ابتسم فابتسمت في حياء. بقيا هكذا؛ العينان في العينين، وظلّ الابتسام معلقاً بينهما، كلاهما لا يود أن يكون البادئ فيطوى حبله. جاء أبوها من الخارج، فاستنكر وقفتها تلك. وقف حيث وقفت ونظر حيث كانت تنظر فاكفهر وجهه. انفتح الباب بعنف وانفجر منه حاملاً عصاته متجهاً نحو الفتى. لم يجد هذا غير الهرب فأطلق ساقيه للريح.

جرى بأقصى ما يستطيع وجرى أترابه معه. لاموه بأنفاس متقطعة وذكروه الحذر من بيوت الناس. في وسط المدينة وجدوا البوليس يطارد أمثالهم. سمع كلمة «الحصاد» تتناقلها الأفواه. تساءل فعرف أن الحصاد يعني السفر إلى مكان بعيد يؤخذون إليه بالقطار. هناك يعملون ويطعمون وفي نهاية الأمر يجزون مالاً وفيراً ويعودون.

راق له هذا المصير الجديد، فصاحبة المنزل لا تحبه، وبينه وبين أمه سدٌّ من المحاذير والمحظورات، وفتاة الحي الأنيق حلم مستحيل دون مجرد الاقتراب منه عصاة الأب. استسلم لأول يد قابضة حتى أن صاحبها استغرب رضوخه أول الأمر. ثم أخذ يثني عليه ويزين له العمل، وأنه عندما يعود بمال فحتماً ستتغير هيئته ويصير مقبولاً عند الناس، كأنما يقرأ ما يدور في دواخله.

أطلق القطار صفارة بدء رحلته، فسمعتها نواح فراق أبدي. تجاوبت خفقات قلبها مع دقات عجلاته على القضيب فعجبت لمشاعر الشجن التي أثارها هذا القطار بالذات. وسوس شيء في دمها. صعدت إلى سطح المنزل، فبدا لها كثعبان يتلوى وهو يدور حول الحي في رحلته شرقاً. تمعنت في الكتل السوداء المكتظة بها عرباته، فعرفت أنها أجساد لآدميين. لفحت خيالها صورة ذلك الفتى، فانقلبت وسوسة الدم إلى صخب وضجيج.

تسلل من بين الأجساد المكتظة وجه يبحث عبر النافذة في بيوت الحي الأنيق، يتوق إلى وجه ينبلج من بين أغصان السياج الخضراء يحمل عينين تلمعان وابتسامة ترسل في حياء. □



انتحار شهرزاد

خلف الحربي

- ١ -

■ (صاح الديك).
أشعة الشمس الكسولة تخترق ببطء الستارة الحديدية الزرقاء.
فجأة اصطدم شهريار بفجيعته اليومية. كانت الحكاية قد وصلت إلى نقطة مشوقة جداً، ولكن شفتيّ شهرزاد عانقتا بعضهما البعض فجأة وتوقفتا عن سرد الحكاية. ثمة علاقة غريبة لاحظها بين صمت شهرزاد وازدياد لمعان الوسائد المستديرة الحمراء.
لم تحلق نظراته المستجدية أي تغيير في نظراتها التي اتجهت نحو الأسفل. أدرك أنه لا مجال لإكمال الحكاية اليوم، فانتفض مغادراً الغرفة الواسعة.
حتماً هناك شعور بالألم يصاحب خطواته البطيئة. كتفاه الخرافيتان يبتعدان شيئاً فشيئاً، وذيل ثوبه الحريري يطارده بإخلاص.

*

هبط الخدر جميلاً فوق جفني شهرزاد. داهمها شعور لذيذ حين مطّت عنقها للأعلى، ثم تمددت على السرير الفخم ملقية بعقد اللؤلؤ على طاولة جانبية.
لم تقنع بالوسادة المحشوة بريش النعام، فتوسدت ذراعيها. كانت تؤمن أن ذراعيها أكثر حناناً.. أكثر دفأً، وأكثر ثقة حين تأتمنها على أحلامها.
لقد ذهب. وهناك يوم جديد ستعيشه. يوم آخر لن يطير فيه عنقها الفاتن، يوم ستنام فيه وهي مطمئنة أنها لن تصحو فترى رأسها يتدحرج في فضاء الغرفة ولن تمتلىء خياشيمها برائحة دمائها الساخنة.
أليس هذا سبباً كافياً لأن تسعد وتنام؟! فلماذا لا يقبل النوم بأمواجه الهادئة؟! لماذا تخلّى عن ساحل عينيها.. وألقى بها عارية أمام أحزانها؟
بدأت الصور القديمة تتعاقب أمامها، وللذكريات شكل الطحالب.
ماذا يمكن أن تتذكر؟
(عينا أب ترقصان في كرنفال عظيم من الحب والخوف والحذر، وعينا أم تلمعان كالدعوات النقية أو تلمعان كالخناجر المصقولة).
(ذلك الشيء الذي يجب أن تحتويه بحرص كي يمزقه رجل محدد).
ماذا يمكن أن تتذكر واللحاف الذي يغطيها مشبع بهلع الزوجات السابقات، ممتلىء بدموعهن، متشرب بدمائهن لحظة القتل الصغرى، ودمائهن لحظة القتل الكبرى؟
ماذا يمكن أن تتذكر وتاريخها كان الانتقال من الجدران الأربعة الأولى إلى الجدران الأربعة الأخيرة؟
أي ذكريات ستتداعى.. والمدى أربعة جدران!

*

يقول عنها بائع الخضروات في ناصية السوق إنها سيدة هذه المدينة.
تبتسم.. وتتمنى لو كانت سيدة نفسها. تغمض عينيها.

- ٢ -

(فرس بيضاء جميلة محبوسة في كأس صغيرة من الذهب.. تحاول الخلاص فتصطدم بباطن الكأس. تحاول مرة أخرى. تواجه نفس المصير.. تحا.. و.. ل... يمزقها التعب.
تتكسر الأفكار في مقدمة رأسها. يكاد يقتلها العطش. تمد لسانها المنهك. تلعق السطح الذهبي فيزداد عطشها. تؤمن أن لا مكان هنا لفرس.
تضرب بحوافرها الحديدية جسدها. يتناثر دمها الساخن خمراً. تمتلىء الكأس. حتماً هناك من سيحتسي.. ويثمل)
أفاقت من نومها مذعورة. تشبثت بصدرها كأنه سيطير. تحسست عنقها، وشعرت بألم حاد لا تستطيع أن تحدد مصدره.
منذ قرون طويلة (والكابوس) نفسه يطاردها ليلياً ولا يتغير من تفاصيله شيء.
تتمنى لو تفهمه.. ولا تفهمه.
حكيمة جداً هي. تعرف الكثير عن هذا العالم. تحفظ الكثير من الحكايات والأساطير والألغاز، ولكنها لا تستطيع تفسير كابوسها الذي يطاردها منذ لحظات ولادتها.
كم هو مؤلم هذا العالم!
كلما حاولت أن تهرب إلى أحلامها، نبت الشعر على هذه الأحلام، فأطبقت لثامها، وفرّت إلى حيث لا تدري.

- ٣ -

آه.. ما أقذر الحياة حين تتحول إلى (لا موت)!
آه.. ما أصعبها
إلى متى تستمر هكذا؟!
إلى متى وهي كلاعب السيرك الشقي.. يسير على خيط رفيع جداً؟ يكاد يسقط ويموت. يكاد يصل ويصفق الآخرون. كل ليلة يفر من موته بأقدام حذرة. كل ليلة يصفق الآخرون لأنه بلغ اللاشيء.. واللامجدي.

.....

ألقت بالمخدة الفاخرة أرضاً، وضربت الجدار ببعض قبضتها.
إلى متى تعيش كي لا تموت؟ إلى متى وهي تؤجل لحظة موتها بحكاية غبية عن امرأة عشقت.. أو سلطان أحب.. أو بحار ألقت به الأمواج في مجاهل جزيرة مجهولة؟ إلى متى تتوالد حكاياتها الناقصة؟!
إلى متى لا يحق للآخرين سواه أن يسمعوا حكاياتها؟ وهذه الجدران الأربعة.. هل ستبقى طول العمر؟!

....

لماذا لم تستطع أن تحكي لأمها عن ذلك الشاب الوسيم الذي ابتسم لها عندما كانت تطل من شباك بيتها قبل سنوات بعيدة؟
لم خافت أن تصف لها ذلك التيار البارد الذي مرّ من بين رئتيها؟
ولو فعلت.. هل كانوا سيقتلونها حقاً؟!

آه ما أقرب الموت في هذه المدينة!

. . . .

تداعى شعرها ككذب الأطفال حين نكست رأسها المثقل بالأسئلة.

ـ ترى كيف سيكون طعم الموت؟

لا تدري لماذا تخيلته مشابهاً لطعم الرماد، خشناً كالحقيقة، ساماً كلحظات المواجهة.

رفعت رأسها بقوة. كان السقف فضاءً خاوياً نقياً.

بحثت في مساحاته البيضاء عن أرواح الزوجات السابقات. لم تجد شيئاً.

ترى أين اختفت تلك الأرواح المذعورة؟

هل اخترقته.. وغادرت نحو السماء؟

آه ما أجمل أن تسافر الأرواح نحو السماء!

هناك باستطاعة الروح أن تجد الكثير لتفعله. باستطاعتها مثلاً أن تتحول إلى غيمة جميلة تتجادل مع البدو الرحل بلغة الماء والحياة.. أو تتحول إلى نجمة مرحة مشاغبة، تغير موقعها كل لحظة فترتبك النجمات الباقيات في لحظات الاستعداد الأخيرة قبل قدوم السيد الليل!

لماذا عليها أن تنتظر حتى يختار الآخرون لروحها موعد السفر إلى الأعلى.. إلى الأرحب؟

لماذا تحرم حتى من اختيار هذه اللحظة؟!

لماذا يتراقص قلبها بين يدي ذلك الرجل كل دقيقة؟

ولم تخلق الحكايات الناقصة لذلك الذي سيقتلها حين تكتمل حكاية؟!

إلى متى تعيش كي لا تموت؟!

قفزت من مكانها واتجهت إلى الحمّام الفخم. كان للبلاط ملمس ساخن هذه المرة. في إحدى عينيها نبت الشوك.. وفي العين الأخرى فتحت نافذة.

كانت شفرة الحلاقة الذهبية هي كل ما تحتويه الأرض في هذه اللحظة.

بهذه الآلة الغبية يبدو للآخرين جميلاً، وبهذه الآلة ستبدو لنفسها جميلة!

اخترقت الشفرة الوريد الذي لم تسر دماؤه باتجاه قلبها أبداً. وبدأت الآلة الحادة تطارد كريات الدم الجبانة وتمزقها.

. . . .

.. خيط متعرج من الدم يسير على البلاط البراق، وجسدها ممدد في وسط المكان.

الروح تتسلق إلى الأعلى ببطء.

بعد قليل ستخترق خواء السقف..

بعد قليل ستتحول إلى غيمة.. أو نجمة..

دقائق فقط.. وتصل إلى الأعلى.. إلى الأرحب.

فتحت عينيها بمشقة.

كان الصباح يتخذ شكلاً منفراً.

وثمة ديك وقح لا يكف عن الصباح.

حاولت أن تبتسم عندما قفز السؤال الأخير في رأسها المثقل بالأسئلة:

ـ لماذا هناك ديك يصيح كل صباح.. ولا تصيح دجاجة؟ □

إيقاع الصوت المبتور

ابراهيم حسن الخضير

■ إيقاع خطواتي كان ذا نغم موسيقي مبتور (هكذا قيل لي). هدأة الليل للتو بدأت. إستقبلني هدوء المبنى العتيق، ودفء أماكن مغلقة. هذا المساء كنت مزهواً.. مصمماً على أن أصل مهما كلف الأمر. أول نور ظهر أمامي كان من نافذة غرفة (السنترال). حين رآتني العاملة لوحت بيدها أن «مرحباً»، حركت أصابع يدي اليمنى «إني سعيد»، وواصلت المسير. بدأت أرقب إيقاع حذائي على الأرض، وأتاح لي السكون التام أن أتأمل الصوت. لم ألحظ أنه ذا دلالة معينة.

«اللعنة.. كيف يقولون نعرفك من طرقعة حذائك؟ لا بد أنهم يهزأون بي». قالت لي أخصائية العلاج التأهيلي: «ربما لأنك تسير ورقبتك مائلة إلى اليسار، فإن صوت خطواتك يجيء كنغم مبتور». بعد ذلك صرتُ أراقب وضع رقبتي في أثناء سيري لأتأكد أنها مستقيمة ولا تميل ناحية اليسار. أحياناً كنت أتأكد بلمسها ومس كتفي الأيسر، مما يثير الضحك أحياناً، إذا كررتها عدة مرات.

تأكدت أن رقبتي في وضع مستقيم، وأن خطواتي لا تميّز فيها. بدأت أعدّ الأبواب التي على اليمين، وكذا التي على اليسار. أقرأ الأسماء التي على الأبواب كي أتأكد أني أسير في الاتجاه الصحيح. كل الأمور تدل على أني سائر في الاتجاه المطلوب. ما زالت أمامي مسافة طويلة حتى أنتهي إلى آخر الممر، ثم أنحرف إلى اليسار وأخرج من المبنى، ثم أسير في أرض الحديقة عبر ممر مرصوف حتى أصل إلى تفرعاتٍ كثيرة ثم أسلك الممر الذي أقصى اليمين وأسير عبر أشجار كثيفة حتى أصل إلى مبنى (رعاية المرضى المسنين).

*

ليلة البارحة حدث معي الأمر نفسه، سرت كل هذا، وأخيراً لم أستطع الوصول إلى المبنى، درت عدة مرات. وأخيراً اهتديت إلى أنه يجب أن أعيد المسير منذ البداية. كررت الأمر ثلاث مرات، وفشلت أن أصل إلى المبنى. لم أُصدق نفسي. مرَّ عليَّ أكثر من شهر وأنا أعمل في هذا المكان. كل صباح آتي إليه. حتى في أيام عطلة الأسبوع، كنت أحضر، إذ لم يكن لديّ شيء آخر أعمله، فكيف لا أستطيع أن أصل إلى المبنى؟!

ليلة البارحة لم أستطع النوم. كيف أُضيِّع مكان عملي في الليل؟ طيلة الليلة، وأنا أتساءل: كيف لم أستطع العثور على مبنى كبير.. ضخم، يضم ما يقارب مائة مريض؟!

انتظرت ـ بتململ ـ أن يظهر نور الصباح. ومبكراً جداً على غير

ما عادتي، سلكت الطريق المعتاد، كما هو كل يوم.. كل صباح، وجدت نفسي أمام المبنى.

فتحت الباب بالمفتاح الذي أحمله، دخلت إلى غرفة الممرضات. وجدتها أمامي. افتر ثغرها عن ابتسامة. وضعت القلم بين أسنانها: «أينك ليلة البارحة؟ انتظرتك طويلاً، وأخيراً فقدت الأمل في أن تأتي. ما الذي منعك من الحضور؟». فتحت عيني بقوة حتى أغالب النعاس. صمتُ. تابعت هي: «عيناك تدل على أنك لم تنم جيداً ليلة البارحة. هل سهرت في مكان آخر؟». خفت أن تفسّر الأمر تفسيراً في غير محله. أجبت. خرجت كلماتي بطيئة: «لقد حاولت أربع مرات أن أصل إلى المبنى لكن لم أجده». تنبّهت إلى كلمتي الأخيرة. استدركت: «أقصد لم أستطع الوصول إليه». نظرت إليّ بهدوء، وقد بدت علامة دهشة ترتسم على وجهها: «كيف لم تستطع الوصول إلى المبنى وأنت هنا الآن. وأيضاً كل يوم تأتي، كيف لم تصل. ربما تكون تمزح؟».



اقتربت من المكتب الذي تجلس إليه. تكلمت بصوت جاد: «هل تصدقين؟ ليلة البارحة سرت في الطريق نفسها الذي أسير فيها كل يوم، وحين أصل لا أجد المبنى أمامي. لا أدري بالضبط كيف أفسر هذا!». تراجعتْ. أسندتْ ظهرها إلى الكرسي، ونظرت إليّ بتمعّن: «يا إلهي.. هل تتكلم جاداً؟». أجبت وحركة يدي تؤكد ما أقول: «نعم، أتكلم جاداً».

هزّت رأسها عدة مرات، وقالت: «لا أدري.. لا أدري». نظرت إليّ نظرة جميلة: «لماذا لا تأتي إليّ في مسكني؟!». أجبت: «لا أحبذ ذلك». قالت وهي تضغط على مخارج الحروف: «لماذا؟». أجبت: «لا أدري.. لكن لا توجد لديّ رغبة في أن أزوركِ في مسكنك».

علّقت دون أن ترفع رأسها عن المكتب: «بارانويا..». قلت بحدة: «لا.. لا.. لا تقولي بارانويا».

- هل من تفسيرٍ آخر؟ ثم ما حكاية أنك لم تجد المبنى أمامك ليلة البارحة؟!

- اسمعي، لا أدري كيف أفسر الأمر لكِ. لكن هذا ما حدث تماماً لي.

قلت ذلك بصوتٍ هادىء تتخلله نبرة حزنَ:

- لا تقلق. على أية حال هذا المساء أيضاً سوف أكون في المبنى. هل تأتي؟

- بكل تأكيد.

- لا تعد عليّ حادثة المبنى. وعدم وجوده. وتجعلني أقول بارانويا. وسنمضي ليلة طيبة!

*

واصلت طريقي حتى نهاية الممر. وقفت كي أتأكد من أنني أسير في نفس الطريق الذي سرته صباح اليوم. انحرفت إلى اليسار كي أخرج خارج المبنى وسرت عبر الطريق المرصوف في الحديقة، ثم سلكت الطريق إلى أقصى اليمين، تماماً كما صنعت صباح هذا اليوم وعندما انتهى الطريق لم أجد المبنى أمامي.

أطلقت تنهيدة كبيرة. حركت يدي: «يا إلهي أين ذهب المبنى؟! صباح هذا اليوم كنت هنا.. لا أستطيع أن أتخيل الأمر هكذا.!».

طرأت عليّ فكرة جديدة. في البدء بدت لي سخيفة. بدأت تُلحّ عليّ: «إنها فكرة نشاز». لو حدّثت أحداً عنها، فسيقولون إنها «أعراض ذهانية». هونت على نفسي الأمر. «ما عليّ.. سوف أعود مرةً أخرى من البوابة الرئيسية للمستشفى، وأسلك الطريق الذي أسلكه كل يوم، ربما أخطأت في سلوك أحد الممرات».

عدتُ مرةً أخرى. بدأت بتفحّص الطريق جيداً. عندما وصلت إلى غرفة «السنترال»، تقدّمت العاملة من النافذة: «مرحباً دكتور، هل بالإمكان أن أساعدك؟ أراك تسير كمن يبحث عن شيء».

نظرت إليها بحدة. ما دخل هذه العجوز؟ هل تراقبني؟

تراجعت عاملة السنترال، وما زالت نظرتها تتفحصني قالت مُخاطبةً زميلتها: «يا إلهي.. في هذا المستشفى لا تعرفين من المريض ومن الطبيب.. الجميع يتصرّف بصورةٍ غريبة».

واصلت الطريق. وقفت أمام كل باب. قرأ الأسماء بتمعن شديد. نعم.. أسير في الاتجاه الصحيح. انتهى بي الممر الطويل. التفت إلى الخلف كي أرى الممر. نعم «هو الذي اسلكه كل صباح. انحرفت إلى اليسار. وقفت عند التفرعات في الحديقة، تماماً كما هي. سلكت الطريق إلى أقصى اليمين، عند النهاية لم أجد المبنى.

صرخت: «لا بد أنهم يزيلون المبنى في المساء ويعيدونه في الصباح!». تأملت معنى ما قلت، «أرجو أن لا يكون قد سمعني أحد». تلفّتّ حولي لم يكن هناك أحداً.

لعلني أخطأت، لأبدأ من جديد. عدت من البوابة الرئيسية. وصلت إلى غرفة السنترال. وقفت عند النافذة الزجاجية للغرفة. كانت عاملة السنترال تتحدث مع زميلتها. عندما شاهدتني توقفت عن الحديث. تواريت كي أستطيع سماع ما تقولانه. بعد فترة من التوقف، قالت عاملة السنترال لزميلتها: «هؤلاء الأطباء الأجانب..». توقفت عن الكلام. هززت رأسي: إذاً هم يتكلمون عني!

واصلت السير، كما صنعت في المرة الأولى. تأكدت تماماً أني أسير في الطريق الصحيح. لكن عند نهاية الطريق لم أجد المبنى.

أجلتُ نظري في السماء.. في الأرض، تأكدت: لا بد من أن هناك أموراً غريبة تحدث.. أين المبنى؟ لا بد أنه أُزيل هذا المساء.

*

أرهقني السهر وكثرة التساؤلات وغموض الموقف: «ما الذي يحدث؟!».

سرت خلال الظلمة، ونور الصباح يوشك أن ينبلج. عندما وصلت إلى البوابة الرئيسية للمستشفى، كان نور الصباح بدأ يعم المكان. دخلت، سرت خلال طريقي المعتاد. الأشياء كما هي. تفرعات الطريق كما هي، عند نهاية الطريق انتصب المبنى الحجري الكبير، فتّحت عيني. استجمعت كل حواسي: أين كان هذا المبنى الحجري العملاق ليلة البارحة؟ هل يُعقل أن يُزال مبنى بهذه الضخامة في المساء، ويعاد نصبه في الصباح؟!

دخلت إلى المبنى. دلفت إلى غرفة الممرضات. وجدتها. لم تسألني، وإنما اكتفت بنظرات مريبة. بادلتها النظرات نفسها. توقعتها أن تبدأ الأسئلة. تحفّزت للإجابة، لكنها لم تفتح فمها. اقتربت منها. نظراتها تتبعني. فقلت: قلت: «أريد أن أسألك سؤالك».

- تفضّل.

- هل بالإمكان أن يُزال مبنى ضخم كهذا عندما يُطبق الظلام، ثم يُعاد نصبه عندما يوشك الظلام أن يرحل؟

وضعت كلتا يديها على رأسه وزفرت: «يا إلهي.. هل أُصدق ما أسمع.. هل أصدق؟!». □



ليلة مشمسة

محمد يوسف الصليبي

■ تتقاذفنا الأحداث كطائر في عاصفة. غرسنا جذورنا في الأرض. قوة ما تحاول اقتلاعها. أمسكت بيد طفلي الأول. ضغط على يدي وهو الذي لا يقوى على نقل قدميه. ضممته إلى صدري. أحاط وجهي بيديه. المساء والنسمة والقلق الذي يعشعش في رأسي. تحسست أطرافي، فوقعت يدي على الأرض. تلمستها ضاغضاً أسالت الحجارة المتناثرة الدماء منها. لم أشعر بالألم. تركت قطرات الدماء تطوف الذرات الساكنة. أحسست اللزوجة. غرست أصابعي أكثر في الأرض خاطبتها: بحق الذي سواك، ما سرك؟! يغزوك كل آفاق من أصقاع الأرض، ونحن لا نبخل عليك بالدماء. أخاطبك، لا بخلاً بدمائي، لكن معاناتنا تزداد مع الأيام.

تمسكت الذرات اللزجة بيدي. تركت لها حرية امتصاص دمي. نظرت إلى السماء. غاب القمر. تربعت النجوم في الفضاء. مسابقاً نظراتي، أتاني بثيابه البيضاء على صهوة حصان أسود. غاب الحصان في العتمة. تصورت أنه يركب الهواء. اهتزت أطرافي. بقيت مستلقياً على ظهري. أوَ انتظره؟ سأفعل. اقترب.. اقترب. استلقى بحصانه فوق صدري. احتضنتني القوائم السوداء الأربع. لا مجال للهرب. ارتعدت فرائصي. نظرت وجه الحصان لم يظهر منه غير عينيه تبرقان في الظلام. تلاقت نظراتنا. اقترب الوجه مني. حاولت أن أغرس رأسي في الأرض ابتعاداً. لفظتني الأرض. هل يتحدث إليّ؟! لا أفهم لغته.

صرخ: انهض.

يا لغرابة الغرابة! هل ينطق الحصان؟! لم تنفرج شفتاي. احتبست الأصوات داخلي. مجنون من يظن أن الحصان يتكلم.

ردد الفضاء الساكن صدى صرخاته.

صرخ مرة أخرى: انهض.

ـ كيف أفعل وقوائمك تحيطني كسياج لا انفكاك منه؟!

صرخ للمرة الثالثة: انهض.

يزيد آلامي هذا الحيوان.. تسللت ونظراتي إلى ذلك المستلقي فوق ظهر الحصان. صارم النظرات، متجهم الوجه بدا، لعله أحدنا!

ـ يا...

ـ انهض.. انهض.. انهـ..

اختلط صوته بصوت قادم من لا مكان. ميزت صوته بوضوح.

ما هي خطوته التالية؟! من يدري! استنجدت بذاك القابع فوق ظهره. ما زالت نظراته قاسية، زادها الغموض صرامة. لا أمل في مساعدته. لم ينطق بحرف حتى هذه اللحظة، تمددت يدي المغطاة بالتراب الممزوج بالدماء بجانبي، تلمست طريقها إلى حافر الحصان، تحسسته.. رفعته قليلاً. استوت يدي أسفله، هبط بكل ثقله عليها. تسلل الألم إلى كل أجزاء جسدي.. انحبست الصرخات داخل شفتي.

ـ انهض..

زاد الأمرُ صعوبة. قوائمه الأربع تحيطني كما الإسمنت الصلب حول القضبان الحديدية حافره يضغط على يدي كقيد حديدي. لم يكن بمقدوري أن اشتكي. وعندما لم أستجب للأمر، زاد ضغطه على يدي.

انهض..

إن أردت المحافظة على يدك سليمة، استجب للأمر. لا مجال للمناورة. (تحرك)، صرخت في أجزائي. تململ جسدي، تزحزح. حركت أطرافي للخلف. قطعت مسافة قليلة في عدة دقائق. كان صبوراً. وهبني الوقت الذي أريد. ابتعدت عيناي عن وجهه. لم يعد بمقدوري أن أقرأ أفكاره. اقتربت من مؤخرته. لامست أطراف ذيله قدمي. ارتحت أفكاري، فأنا في طريقي للخروج. وفي لحظة، تطاير ذيله في الفضاء. ها هو ذا يفسح الطريق واسعاً لأتخلص من مأزق ظننته سيدوم.. ثم.. ثم، بكل عنفوان القوة، انهال بذيله الضخم على قدمي. تداخلت شعيراته بها. سكاكين حادة تغوص في لحم طري. سالت الدماء غزيرة، غصت فيها. انطلقت صرخاتي تملأ الفضاء الساكن. انتفض الهواء من عنفوان صراخي، ربما من عنفوان الضربة. ما قطعته في دقائق رجعت عنه في ثوان. عدت حيث كنت. وبدون أن أشعر ارتفع الحصان إلى أعلى. فَرَدتُ ساقيّ ويدي الأخرى. كصاعق من السماء هبط ثانية.. استولى على أطرافي الطليقة. من شدة الألم، لم أعد أشعر به.

تقطعت بي الأسباب. لم يعد في مقدوري أن أتحرك.

ـ انهض...

أظنه صوته! هل يتكلم؟! ترى هل فقدت عقلي؟! حاولت ترتيب أفكاري، فانتظمت. إذن لديّ القدرة على منطقة الأشياء. وهذا الحصان الذي يكتم أنفاسي.. أهو حقيقة؟!

ـ انهض..

لم ينطق غيرها. وأين أذهب؟! هارب من قدري لأقابله هنا! ما الذي يحدث؟! هل انعدمت اللغة؟! ألا يوجد غير تلك الكلمة؟ مغروس في الأرض، مصلوب على ثراها. كيف أنهض؟! يا للأمر اللامنطقي!

ـ انهض..

لا يكف عن الصراخ بهذه الكلمة كأنها الوحيدة الباقية من لغة تحتضر. أوَ تحتضر اللغة؟! ملأوها بآلاف الكلمات. لا عمل لها. متقاعسة، ربما عاجزة. لقد فهم هذا الحصان هذه الحقيقة كأنه يريدني أن أفهم. يا سيدي، ما فعلت ما فعلت إلّا لأنني فهمت. لِمَ أنا بالذات تطاردني الأشباح التي أوصلتني إلى ما أنا فيه؟! ماذا تريد مني؟! ألا يكفي أنك استبدلت يد طفلي بتراب الأرض المنقوعة بدمائي؟ كم من الدماء يختزن جسدي حتى تسيل منه هذه الكمية!

اختفت الحجارة المدببة التي تحمل ظهري. حلت محلها لزوجة ناعمة. أحببت تلك اللزوجة.

ـ أو تعشق آلامك؟!

صرخ، فاهتز الهواء. انتفض جسدي، لكني بقيت مصلوباً على الأرض.

أذهلني ما سمعت. يقرأ أفكاري. من أنت؟! احتواني سر الأرض، وها أنت تضيف إلى حيرتي حيرة أخرى.

بصوت بدّد العتمة فرأيته بوضوح. صرخ: مغروس أنت في الأرض. قوائمي أوتاد في أطرافك. لا انفكاك لك منها. إن حاولت، فستنهشك الديدان الآتية عبر الأفق. محكوم أنت بالمعاناة. التاريخ خلفك، ولا علاقة لك به، والجغرافيا هي حيث أنت. أتفهمني؟

ـ لماذا دعوتني إلى النهوض إذن؟

ـ دعوتك لكنك رفضت.

ها هي ذي اللغة قد أقبلت. ها هو ذا يحملها على كتفيه. كيف غادرتني الفكرة؟! إنه محق فيما ذهب إليه. غزوته بنظرات فاحصة. رأيته بوضوح. لم يكن بمقدوري تحديد ملامحه. صَعُبت عليّ رؤية ذاك الذي امتطى ظهر الحصان عندما شاهدته أول مرة. استأنست الواقع. قبلت أن أبقى حياً ومرصوفاً في تلك البقعة النائية. أملت أن يكتفي هو بما أنا فيه، لكنه زاد ضغطه على أطرافي. أحسست كأنها تنفصل عني. إن تخلصت منها وانسحبت بما تبقى لديّ سأكون سعيداً. لحيرتي. تسلل ذيله بين قائمتيه الخلفيتين ورشقني على كل أنحاء جسدي. تضاعف ألمي. تسارع نزف دمي.

لن يتركك إلّا جثة هامدة.

ما الذي يريده مني؟!

تخليت له عن أطرافي.

لم يكتف بها.

سبحت في دمائي.

استولى عليّ الألم.

صرخت.

تعالى صراخي يشكو قلّة حيلتي ولوعة نفسي، تطاير مع جزيئات الهواء التي تملأ هذا الفضاء اللامتناهي، واصطدم بتلك الصخرات المتناثرة في ذاك المكان. استغثت بكل ما يمكن أن يغيثني. لا مجيب كأنني صخرة ملقاة بإهمال. لم يكن أمامي إلّا ذاتي.

وفجأة.. انتفضت على ذاتي. وبكل ما تبقى لي من قوة دفعت الحصان وفارسه إلى أعلى. كانت دفعة قوية.. ألقت بهما بعيداً. التأمت جراحي. وبلا تردد، قفزت فوق ظهره. امتطيته. أحكمت سيطرتي عليه. استجاب لمحاولاتي. نظرت إلى فارسه الأول. إنه يشتعل.. يشتعل.. النار تأكله والحجارة تغمره. ما زال أمامي الكثير.

وبحركة كان يطير بي حول أماكن أعرفها.

ـ وولدي وزوجتي؟

صرخت في نفسي.

استجاب لندائي الصامت. رسا فوق منزلنا. أتاني ولدي ضاحكاً. احتضنت زوجتي. طار بنا جميعاً. طاف بنا المكان من البحر إلى النهر. أزهار.. أشجار. بساتين العنب والبرتقال. حدائق وأطفال..

ـ لماذا ساويتني والأرض؟!

ـ ......

ـ كنت أفعل؟

ـ يومكم هو ماضيكم. أين المستقبل؟!

ـ الصراخ والعويل والشكوى كما المرة الأولى.

ـ .....

ـ أنت محق.

سحابة من حجارة رافقت موكبنا. رسا مرة أخرى. قبة ذهبية. الهيبة والوقار.. من يصونهما؟

قال رفيقي بعد أن لكزني برفق:

ـ لقد حان الوقت.

ـ حقاً لقد حان... □

سورية

من مذكرات رجل مهم

صبحي دسوقي

■ أنا مضطر دائماً إلى توجيه الشتائم إلى من دفعني لتعود هذه العادة التي بدأت تسيء إليّ بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من مجد ومال. كان المعلم يحرضنا على كتابة مذكراتنا وتسجيل انطباعاتنا حول ما يجري في حياتنا البسيطة، وكنت من الذين يحصلون على علامات متميزة لأنني كنت أسجل كل ما تراه عيناي، وما أحسه تجاه الموجودات، وكانت تشغلني بعض الأفكار الساذجة التي بدأت أكرهها وأتذمر من مجرد تذكرها، كالطيور والربيع والأغاني وحب الآخرين والتضحية من أجل إسعادهم.

هذه السخافات بدأت تنحسر من الذاكرة لتحل محلها الأمور العملية التي تحقق تفوق الإنسان حتى على ذاته، فلماذا عليّ أن أضحي من أجل الآخرين؟ ولماذا لا يضحي الجميع بكل إمكانياتهم من أجل إسعادي؟

لكنني ظللت أسير تلك الرغبة في تسجيل الأحداث التي تمر بي رغم أنني اضطر أحياناً لوضع بعض الإشارات حول الأشياء التي لا أريد التصريح بها. فشلي الدراسي لم يعد عقدة في حياتي، وحتى تذكري لأعمالي السابقة كبيع أوراق اليانصيب، ثم عملي كمستخدم، فقد اشتريت ومنذ فترة شهادة كبيرة من المدينة المجاورة زيّنت بها غرفتي كي يراها الآخرون ويبتسمون لجرأتي. وبعد أن عرفت مفاتيح اللعبة وأتقنتها استطعت أن أفرض شخصيتي على كل من يتعامل معي وأرغمه على إظهار الاحترام.

أعرف أن الكثير يقال عني سراً في محاولة للتشهير بي، وأعرف المصادر جيداً، لكنني أتحدى كل الفاشلين الذين يحلمون بالوصول إلى مكانتي وتحقيق نصف ثروتي.

لقد آمنت ومنذ صغري بمقولة: «من يملك قرشاً.. يساوي قرشاً». فإذا كان الإنسان لا يملك شيئاً فهو في أدنى السلم الاجتماعي حتماً، ولا يثير حتى رغبة الآخرين في البصاق عليه أو شتمه.

ومن يومها بدأت أخطط لتأمين القرش بكل الطرق المتاحة حتى وصل رصيدي إلى رقم لا أريد التصريح به.

وأقول وبكل تواضعي الذي أصبح سمة لشخصيتي إنني أحكم المدينة بالقول والفعل.

لا أقصد مركزاً محدداً ولكن قدراتي ترغم حتى الكبار على تنفيذ رغباتي. وبإشارة من يدي أستطيع رفع أي إنسان إلى المكانة التي أريدها أو إنهائه بحيث لا يتجرأ أحد حتى على مجرد السؤال عن مصيره.

زوجتي الفاتنة تستسلم الآن لأحلامها مكللة بأنوثتها الساحرة التي تفجر رغبات الآخرين وتشدهم إليها فلا يملكون إلّا تنفيذ رغباتها وطلباتي. وما أكثرها!

لقد رضخت زوجتي السابقة وجارتني قليلاً، لكنها تحفظت على الكثير ولم تتجاوز حدود الشرف حسب تعبيرها. فاضطررت بناءً على رغبات أصدقائي الكبار أن أطلقها، ووقع اختيارهم على زوجتي الحالية، وأصروا على تقديم كل ما يمكن لإسعادي، فدفعوا نفقات الزواج، وتكفلوا بتكاليف شهر العسل.

ولا أستطيع مطلقاً أن أنسى السعادة التي عشتها خلاله وتمنيت له تدوم، لكن أصدقائي الذين شاركوني بهجته أعلنوا عن رغبتهم في العودة والتخطيط للأيام السعيدة القادمة، ووعدوا زوجتي أن أوامرها مطاعة دوماً.

ما الذي يضير إذا تصرفت كإنسان حضاري.. وتركت فسحة من الوقت لزوجتي كي تمارس متعتها مع أصدقائي؟ ألا أحقق السعادة للجميع؟

لقد ساهمت زوجتي السابقة في إيصالي إلى وضع مقبول إلّا أنني ظللت محافظاً على موقفي من تنفيذ الطلاق إن لم تدفع. ودفعت، ودفع والدها، وشتماني كثيراً، لكنني تلقيت الشتائم بكبرياء رجل المواقف.

ومددت يدي وقبضت النقود وأضفتها لرصيدي.

على الإنسان أن يدرك من أين تؤكل الكتف. وبعدها عليه أن يأكل ويأكل من دون أن يكف عن الأكل فقد يجد نفسه يوماً وقد عاد إلى جوعه السابق.

حتى والدتي ما وجدت حرجاً في الإلحاح عليها عندما أعلنت زوجة أحد المسؤولين عن رغبتها في أن تمر عليها وتصنع لها بعض الأطعمة المحلية التي تجيدها أمي.

قبلت يدها مراراً وأوصيتها أن تحقق رغبات تلك السيدة من أجل مستقبلي.

ومضت أمي في إعداد الأطعمة وترتيب المنزل وتنظيفه، ثم طلبتها زوجة مسؤول آخر، وآخر، وكنت أزداد سعادة عندما يهمس لي أحدهم وهو يتذوق الطعام الذي أعدته والدتي:

ـ إنها أمهر طباخة في المدينة.

حتى شقيقتي الصغرى حرضتها على التخلص من ملابسها القديمة واستبدالها بالألبسة الجديدة التي قدمها أحد أصدقائي معاتباً:

ـ حرام أن يبقى جمالها أسير الملابس الرثة.

ثم تراكمت الألبسة في خزانتها حتى ضاقت عن استيعابها، فطلبت من صديق آخر إحضار غرفة نوم كبيرة. وإكراماً لي لم يخجلها، وحقق رغبتها في اختيار ما تريد، وقد قال ضاحكاً عندما التقيته بعد عودتها من السفر:

ـ لقد أتعبتني خلال بحثنا الطويل.. ذوقها رائع.

حاولت الاعتذار وأنا أؤكد أنني سأعاتبها بقسوة، لكنه تابع ضحكه:

ـ دعها تمارس حريتها.. إنها لا تطلب من غريب.

وذات مرة صدمني موقفها عندما أعلنت أنها ستخبىء نقوداً لحسابها الخاص فالأيام لا ترحم وهي لن تستطيع العودة إلى أيام



القهر والفقر التي عاشتها. أيدتها زوجتي وهي تحاول إقناعي بقبول فكرتها، فقلت مسلماً:

ـ هي ليست صغيرة.. فلتفعل ما تشاء.. أنا لم أعد أحتاجها فأنت تكفين المدينة.

واستسلمت ليدها التي تجيد تخديري وإرسال النشوة في خلاياي. أعتقد أنني استرسلت في هذياني، سأتوقف عن الكتابة فالصباح قادم وعليّ أن أخفي هذه الأوراق كي لا تقع في يد أحد. فأنا أحاول أن أكون متوازناً وأخفي بعض الأسرار الصغيرة حتى عن زوجتي.

*

أنا متعب جداً هذه الليلة. أيام طويلة مرت وأنا أبحث عن تلك الأوراق التي سجلت فيها الكثير من التفاهات. إنها الخمرة التي تزحف في دواخلنا وتجبرنا على الانصياع لتأثيرها والتصرف دون حرج في الكثير من المواقف التي ترفضها خلال وعينا.

سألت زوجتي عنها، فزمّت شفتيها غاضبة:

ـ آخر مرة أحذرك فيها.. لك حياتك وأوراقك اللعينة، أما أنا فدعني أنهي زينتي.. لدي موعد هام.

آلمني غضبها فحاولت مداعبتها:

ـ العالم كله يهون أمام توهج ابتسامتك.

فابتسمت مجاملة، وأردفت بنزق:

ـ لقد دست منذ زمن على عالمك. إنني أقرف منك.

اللعنة على الأستاذ وعلى المذكرات. سأكسر الأقلام وأمزق الأوراق وأحبط كل الرغبات التي تتصارع في داخلي من أجل الاستمرار في الكتابة. أنا رجل مهم، ما حاجتي إلى العودة إلى المراهقة والكتابة، صحيح أنني انجرفت ذات مرة وبدافع الغيرة وراء الكتابة فسرقت بعض القصص واشتريت غيرها من كتّاب يحبون المال، ثم نشرتها باسمي، لكنني ومن خلال مركزي الآن ووعيي المتطور أؤمن أن الكتابة على اختلاف أشكالها تنتمي إلى الجنون وقد شفيت منه.

سأدع الكتابة لمن يتوهمون أنهم سيحافظون على نقاء المدينة. أي نقاء يساومون عليه وقد سحقته تحت قدمي وحولت الجميع إلى جثث تتراكض من أجل المال واللقمة!

الباب يغلق بعنف. أصحو من شرودي. سحقاً لي.. لم تركت زوجتي تذهب إلى موعدها دون أن أصالحها؟ كيف تجرأت وسألتها عن الأوراق؟ فلتذهب كل أوراق العالم إلى الجحيم.

*

قررت زوجتي الانتقام لأنني أغضبتها وبحثت طويلاً حتى وجدت الأوراق وسلمتها لأحد كتّاب القصة الفاشلين وأوضحت لي:

ـ من أجل منعك من الاستمرار في الكتابة وعدم إهانتي مرة أخرى.

سألتها بمرارة:

ـ ولماذا أعطيتها لهذا بالذات؟ أنت تعرفين أن «صبحي دسوقي» يكرهني ويحاول دائماً النيل مني.

فضحكت وتركتني أعاني من الموقف المحرج الذي وجدت نفسي فيه، ثم فكرت بالذهاب إليه وتحطيم المنزل فوق رأسه، إلّا أنني قررت في اللحظات الأخيرة أن الرد يحتاج إلى التأني والاسترشاد بآراء الأصدقاء، فقد أجد مخرجاً على أيديهم. قال أحد الأصدقاء مداعباً:

ـ كيف تمكن ذلك الولد من أن يهزك؟ تقرير بسيط ثم نرسله إلى جهة غير معلومة.

ثم أردف آخر:

ـ القصة لا تحتاج أن نصنع منه بطلاً. إنه لن يجرؤ مطلقاً على نشرها، وحتى إذا غامر فسيعمد إلى إغفال الأسماء والتمويه على مكان الأحداث.

عدت إلى منزلي وأنا أحمل قناعة لا يمكن الرجوع عنها: لن أعود إلى كتابة المذكرات.

ثم طلبت من زوجتي أن تستعد للذهاب معي لمقابلة المسؤول عن جريدة المساء.

ضحكت زوجتي وهي ترتدي ملابسها. لقد عرفت بما أنوي فعله: سأطلب من المسؤول عن الجريدة بعد أن يتعرف إلى زوجتي وتتوطد علاقتي به أن يمنع نشر أية كلمة لذلك القاص المشاغب.

وبعد فترة صمت طالت، صاحت زوجتي مبتهجة:

ـ أنا جاهزة.

وكنت مستعداً منذ ساعات لجولتي القادمة التي أعرف مسبقاً نتيجتها. □

حالة عامة

محمد نديم

■ أذكر النوبة الأولى جيداً، الآن. عنده فاجأتني، وأنا جالس مع كتاب جديد. كنت قد شرعت في قراءة مقدمته. خلال لحظات غاب الكتاب من أمام عيني، ثم وجوه أولادي، ثم المكان بكامله.

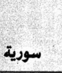
عندما عدت إلى الوعي، ثانية. فركت عيني، وأنا أعتقد أن إغفاءة طارئة، داهمتني. كما يحدث لي في كل مرة، أطالع فيها كتاباً. لكن ما أثار دهشتي أن صفحات الكتاب، كانت تشير إلى أني تجاوزت المقدمة بكثير، وأن معلومات من الكتاب علقت بذاكرتي.

النوبة الثانية هي التي ذكرتني بالأولى، وأكدتها. كنت أتجه من البيت إلى عملي صباحاً. التقيت، عادلاً، زميلي في العمل. كان الشارع العام مزدحماً كالعادة. فجأة. في منتصف الشارع، غبت مع المكان عن نفسي. عندما عدت إلى الوعي ثانية، كنا قد وصلنا إلى نهاية الشارع. وكان زميلي عادل، ينفض الغبار عن كتفي. كنت أسير الى جانبه. وكان ينظر إليّ برثاء، وسمعته يقول:

ـ الحمد لله، وجهك قد راق قليلاً، وتجاوزت الصدمة. لم يكن باستطاعتك أن تفعل مع هؤلاء الناس أكثر مما فعلت.

وقبل أن أتكلم، تابع زميلي وهو يتأبط ذراعي:

ـ وحسناً ما فعلت. إنك لم ترد عليهم. وهي ليست إهانة على ◄



كل حال. وغيرك لم يكن ليفعل. غير ما فعلت.

أردت أن أتكلم، ولكني غصصت بـريقي، من الـدهشـة. ثم عـدت أحاول الكـلام، فشرقت بريقي هـذه المرة. وأخـذت أسعـل سعالاً متواصلاً. كان يمنعني من الكلام كلما حاولت ذلـك، ولكنه لم يمنعني من أن أسمع زميلي عادلاً يقول:

ـ حتى الآن، لا أصدق ما حدث. كادوا يـدهسونـك بسيارتهم. ورغم سرعتهم الجنونية وصعودهم على الرصيف، فقد وضعوا الحقّ عليـك. دفعك أصغـرهم برجله، وألقـاك على الـرصيف. وشتمـك أكبرهم بأقذع ما يكون، ولم ينصرفوا عنك حتى استعطفتهم بمذلة مـا بعـدها مـذلة. تصـور.. كانوا يريـدون ـ بعد كـل ما حـدث ـ أن يأخذوك إلى القسم. أنا حتى الآن لا أصدق ما حدث.

النوبة الثالثة جاءت وأنا أسير مع ابنتي الكبرى هدى. كنا عائدين عند العشاء من معرض الكتاب. أردنا اختصار الطريق، فدخلنا الى الشارع المعتم الذي يلف حول الحديقـة العامـة. فوجئت عنـد نهاية الشـارع بابنتي وهي تنشج. وكـان شعرهـا المعقوص قـد انـتزعت شريطته الحمراء انتزاعاً. كانت تمسك الشريطة الحمراء بيد مـرتجفة، ويدها الأخرى كانت تحاول أن تغطي بها مكاناً قد تمـزق من ثوبهـا. وكان ثمة شاب، لم ألمح منه سوى وجهه الذي كان ينضح بـالعرق. وعندما أخذ يدفعني، أنا وابنتي التي تعلقت بي، لمحت كدمة حديثة تحت عينه اليسرى. صاح بي:

ـ خذ ابنتك واركض إلى الشارع المضاء.

وعاد الى شابين، كانـا يقفان أمـام دراجة نـارية، واشتبـك معهما بالأيدي.

لم أسأل هدى عـما جرى، فقد اكتشفت أنها النوبـة الثالثـة. في البيت تـركتها تشرح مـا جرى. اكتشفت أن ابنتي تعـرضت لعملية خطف لم تكتمل من قبل الشابين راكبي الدراجة، وإن الشاب الذي تركناه مشتبكاً معهما هو الذي خلصها.

وقـررت أن أراجـع طبيبـاً. وفعلت ذلـك ذات ليلة. خفت إن فعلت ذلك نهاراً أن أثير حـولي التسـاؤلات، وأنـا أتـردد إلى عيـادة طبيب نفساني.

لم يعجبني تشخيص الطبيب، فقد هون علي الأمر، واعتبر أني لا أشكـو من أي مـرض سـواء في جسمي أو نفسي. وكـان رد فعـل الطبيب لا يتناسب أبداً، مع الأرق الذي عشته كل الليالي التي مرت بعد النوبة الثالثة.

ليس تشخيص الطبيب الذي لم يعجبني، وإنما الطبيب ذاته. فلم يكن يشبـه حتى الأطباء العـاديين، فكيف النفسـانيين. كـان يحمـل عينين زجاجتين وصوتـاً رتيباً لـه لون واحد فقط. وكانت حـركاتـه أقـرب إلى الآليـة. خـلاصـة القـول، لم يعـاملني بحميميـة هي من صفات الأطباء النفسانيين خاصة.

وتذكرت أن صـديقاً من أيـام الدراسـة الثانوية قـد تخرج طبيبـاً نفسـانياً، وفتـح عيادة في العـاصمـة، فـأخـذت اجـازة من العمـل، وادعيت أمـام أسرتي أني ذاهب في مهـمـة عمـل لجلب أشرطـة (للكمبيوتر) الذي أعمل عليه مبرمجاً.

أسعدني استقبال الدكتور حسام، زميل الـدراسة الثـانوية، فقد أضـاع خمس دقائق من وقتـه الثمين ليسـترجع معي بعض ذكـريـات المدرسة رغم صالة الانتظار المحشورة بالمرضى.

دخلت في الموضوع مباشرة، وأخذ يستمع إليّ حتى أنهيت كل مـا عندي، وظل صامتاً دقيقة أخرى، وأنا انظر إلى أصـابعه وهي تعبث بالقلم الذي كـان يدون فيـه على ورقـة تحمل اسمي. قـام فجأة إلى الباب يتأكد من أنه مقفل جيداً من الداخل، وعـاد يجلس إلى جانبي وهو يهمس:

ـ إنها حالة عامة، وليست خاصة، كما تعتقد. هذه النوبات التي جاءتك حتى الآن ثلاث مرات فقط هي التي تسبق النوبة الأخيرة.

نظر الى الفرحة التي نطت من عيني بحزن، وقال:

ـ النوبة الأخيرة.. هي القاضية.

وقفت متشنجاً، فأجسلني وهو لا يزال يهمس:

ـ لن تموت، إنما ستحيا ضمن نوبة مستمرة أبدية تشبـه النوبـات الثلاث التي أصابتك.

شعرت كأني أتعامل مع كابوس أو حلم من أحلامي الـرهيبة التي كنت أصحـو منها وأنـا منهـوك القـوى، خـائـر النفس، وصحت بالطبيب:

ـ لماذا تريد ترهيبي؟ ألا تشفع لي صداقة الدراسة؟

أجلسني على المقعد ثانية، وهو يشد على يدي بقسوة آلمتني وازداد همسه خفوتاً وهو يقول لي:

ـ بـلى. لأنك صـديقي، أحـاول أن أقـرِّب لـك الموضـوع حتى تعرف مرضـك. إنها حالـة مرضيـة عامـة. الطبيب الـذي فحصك مصـاب أيضاً بمثـل مرضـك. وهو في النـوبة النهـائية. ثـلاثة أربـاع النـاس، انتهى أمرهم. أنا سيأتيني الدور أيضاً. حالتك أنت شـاذة. الجميع يدخلون في النوبة النهائية القاضية مبـاشرة بلا إنـذار، وليس كما حدث لك.

أخـذت رويداً رويـدا استـوعب كـلام الـطبيب، وأخـذت نفسي تهدأ، إنما كنت أتنفس بصعوبة. ولما تأكد الطبيب من أن توتري قـد زال تقـريبـاً حـررني من قسوة قبضتـه، وعـاد يجلس أمـامي، وتـابـع كلامه:

ـ اكتشفت بعـد النـوبة الأولى أنك قـرأت المقـدمـة، وجـزءاً من الكتاب. وفي النوبة الثانية قطعت الشارع المزدحم، بعـدما وقـع لك ما وقع. ولم تصـطدم بأحـد المارة. ممـا يعني أنك كنت تمشي بصـورة طبيعية. في النوبة الثالثة، كنت تراقب ما يجري لابنتك. إنما الذي لم تقم به هو أنك لم تتدخل بما يجري أمامك.

قاطعته:

ـ أي أني سأبقى حياً.

ـ أجل، ستظل حيا.. ولكن كالميت.

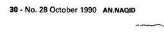
عـدت أقف متشنجاً إلّا أن الـطبيب لم يقف لتهدئتي فقـد هدأت من تلقاء نفسي لأني بدأت استوعب الحقيقة. قال الطبيب بهدوء:

ـ أجل ستكون كالميت.

ـ هل سأذهب في السبات كما يحدث للمصابين بالجلطة الدماغية أم سأستلقي دون حراك وكلام كما يحدث للمصابين بالشلل؟

قال الطبيب وهو يبتسم راضياً:

ـ لا هذا، ولا ذاك. ستكون إنسـاناً سـوياً بـل أكثر من سـويّ. ستكون مثالياً. ستقوم بعملك المعقـد كمبرمج للكمبيوتـر وأنت في نوبتك القاضية. وأوضح مثال أن الـطبيب النفساني الـذي فحصك قبلي هو مصـاب أيضاً اصـابة كـاملة. ستعمل، وتتصرف، وتتكلم، وتمارس حياتك الطبيعية، من نوم، ويقـظة، وجنس. إنما لن يكـون لـك أي رأي فيما تفعـل. ستكون مـبرمجاً كـما هي مهنتـك. تصـور



ستكون أنت مبرمجاً، وفي الوقت ذاته تقوم ببرمجة الكمبيوتر الذي تعمل عليه.

ساد الصمت بيننا مدة طويلة كنت خلالها انظر إلى اللاشيء. أما الطبيب فكان ينظر إليّ بانتباه، وهو ينتظر رد فعلي النهائي. قلت ببطء:

ـ وماذا أفعل، حتى موعد النوبة القاضية؟

أمسك بي ضاحكاً وهو يوقفني على رجلي، وقال:

ـ أنا سعيد لأنك استوعبت مرضك. الذي أريده منك ألا تتحدث عما جرى لك، وعما سوف تنتهي إليه إلى أي انسان.. حتى زوجتك. عندها سيحدث لك أمر لا يمكن تداركه ومنعه فالمرض سيفقدك حريتك العامة. أما الذي سيكتشف حقيقتك، فسوف يفقدك حريتك الخاصة أيضاً. هل فهمت؟

قلت وأنا أتهيأ لمغادرته:

ـ لقد وعيت كل شيء. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل حتى موعد النوبة القاضية. ولو أنه سؤال مكرر؟

قال وهو يصافحني مودعاً:

ـ مارس حريتك الخاصة بقدر ما تستطيع. كل ما تشتهي. افعل ما يحلو لك لأنك بعد ذلك.. ستأكل كما يشتهي سواك. وقس على ذلك في كل الأمور.

بعد عودتي إلى البلد، رحت استمتع بما بقي لي من أيام بحريتي الخاصة، واندفعت في ذلك كمن ينهب في مال شبت فيه النيران فالنوبة ستكون القاضية لأن الانذار وكما أكد الطبيب لن يكون أكثر من ثلاث مرات. وهذا ما وقع لي، والنوبة قد تأتي اليوم أو غداً أو بعد لحظة.

ذات مساء، وأنا جالس مع زوجتي في غرفتنا، شعرت فجأة أن النوبة القاضية قد جاءتني. وكانت آخر صورة، ارتسمت في مخيلتي ـ ويا لتعاستي ـ النظرة الساخرة في عيني زوجتي. كانت تلك النظرة تؤكد لي دون أي شك أن زوجتي تعلم علم اليقين أن النوبة القاضية قد جاءتني أخيراً. □

اذهب وارتح

جميل حتمل

■ ستكتب قصة هكذا. تقول إنه هذا المساء يجب ألا يذهب إلى منزله لأنهم سيأتون حتماً. لن تشرح بالطبع من هم، لسلامتك، ولسلامة أن تنشر القصة وتقبض بالتالي ثمنها. لن تذكر من هم. ستقول فقط: هذا المساء لن يذهب إلى منزله. أخبره صديقه في شارع الصالحية أنه في خطر. لكن لماذا تسمي الشوارع؟ اذكر فقط أن صديقه أخبره في الطريق. لا تسم الشوارع واترك الأمر دون تحديد. إذن قرّ قرارك على هذا الشكل: الوقت مساء من يوم ربيعي، الشارع مزدحم، ووسط الزحمة يطل رفيقه حسب الموعد المتفق عليه. يقول له الصديق بنبرة قلقة: أخذوا علياً.

ـ متى؟

ـ مساء أمس.

ـ كيف؟ ألم يكن مختفياً؟..

ـ اضطر للذهاب إلى مكان عمله ليسلم أوراقاً مهمة بالنسبة للعمل، وكانوا ينتظرونه هنالك.

ـ هل تعتقد..؟

ولا يتركك تكمل السؤال، يحسم الأمر: كل شيء جائز. هنا لا محل للنوايا الطيبة. وأنت عليك ألا تذهب لمنزلك، هو يعرف أشياء كثيرة عنك، وقد يذكرك..

لاتقل شيئاً، ولكن تردد لنفسك.. «وقد لا يذكرني». تقول لنفسك هكذا لتطمئن، وتبرر لخطواتك أن تتسلل باتجاه المنزل، فهي تنتظر، وأنت في هذا الوقت بالذات يجب ألا تتركها. هل يعقل أن تظل وحيدة في أوقاتٍ مثل هذه، قد تضع في أي لحظة فيها؟ هل كان يجب أن تسلم أوراقك في هذا الوقت يا علي، في وقت ولادتها؟

«لا بأس». تتمتم لنفسك. القصة هنا قد تبدو آخذة بالإثارة: رجل يقع بين خيارين: ألا يذهب لمنزله ويترك امرأته الحامل التي ستلد وحيدةً، أو أن يذهب ـ وربما حينها يأتون.

نعم اترك الأمر هكذا. اجعل الحدث كأنه قصة بوليسية أو ما يشبهها، قصة بوليسية فيها بعض المؤثرات العاطفية، لكن ماذا لو جعلته يعود، يقول مثلاً: «عليّ لن يعترف» ويمضي إلى بيته؟ هل ستجعلهم يأتون؟ إلى الآن طبعاً، لم تقل من هم. ولماذا سيأتون؟ كذلك من هو صديقه علي هذا، ولماذا اعتقل؟ اشطب، اشطب كلمة (الاعتقال). قل لماذا أخذوه. هكذا أفضل.. أفضل للإثارة بالطبع. ثم ماذا لو تجعله يعود دون أن يكون في الأمر شيء. فقط يرى صديقاً في زحام الشارع، فيتسامران، ويتحدثان عن فيلم جيد، فيه ممثلة جميلة، ثم اتركه ينهي الموعد بسرعة:

ـ أنت تعرف أن «المدام» في أيام حملها الأخيرة، والسيد ولي العهد قد يشرّف في أية لحظة..

سيقول صديقه عندها:

ـ مبروك وسلم لي عليها..

طبعاً أفضل من تلك «الحبكة» التي كنت ترسمها، يعني أن يقول له:

ـ يجب ألا تذهب..

نعم سيذهب. لكن ماذا لو أتوا حقاً؟ ماذا ستفعل؟ هل ستتركه يمضي معهم؟ هل ستكتب القصة هكذا؟ يصل. يبدو قلقاً، ثم عندما يطرق الباب بعنف، يقول بلهجة متوقعة مستسلمة:

ـ أتوا.. لا تخافي..

ثم يمضي معهم، ويتركها تبكي ربما.. ألن يؤثر ذلك على الجنين؟ لماذا مثل هذه الخاتمة؟ لماذا تكتب قصة من هذا النوع أصلاً؟ أليس أفضل أن تفكر بقصة مسلية من نوع آخر؟ عن شاب وحيد، يجد فتاة جميلة وحيدة مثله، ثم، ثم بعد أن يمضيا معاً، وتبدأ قصة حبهما السعيدة، تعده ولا تأتي، وينتظر كثيراً، دون أن يعرف أنهم «أخذوها». لماذا مجدداً هذا المزاح السخيف؟ لماذا تصر أن تتحدث دائماً عنهم؟ لماذا هذه النوعية من قصصك المرعبة؟ اذهب. اذهب وارتح. يبدو أنك متعب. اذهب. وبعدها ستكتب عن.. اذهب. اذهب الآن وارتح □



شتاء طويل

ابراهيم صموئيل



- جاؤوا . . .

ما كادت تصيح وتنتفض مخلوعة القلب كأنما حفَّ جلد أفعى بجسدها العاري تحت اللحاف. . حتى تَنَّر يده كما لو سرت العدوى إليه من خلف عنقها وغائر نهديها، وانتفض مثلها فانكشفا معاً: هو بصدره العريض تتلألأ فوق شعيراته حبيبات العرق اللامعة، وهي بنهديها البيضاوين مثل إجاصتين فوق بركان قلبها الراجف.

صامتين، مترقبين، وجلين، التفتا نحو الباب. لا نأمة ولا صوت. سكون رابض منتظر كتيم، لا يشققه سوى وجيب قلبيهما، وتدافع مرتبك لأنفاسهما يزيد في ترقبهما وخوفهما.

هنيهات قليلة، مرت كأنها ساعات، ظلّا في جمودهما. بعدها، نظر إليها يسألها بعينيه الشاكّتين، فردّت عليه بنظرات مضطربة هلعة. حرك رأسه دون أن ينبس، فقلبت شفتها السفلى تزيد في حيرته، وبقيت عيناها محملقتين بفزع مبهم.

حاول بصوته كبت خوفه النابت، فهمس: ما بك؟

باحت بصوت بدا وكأنه مطمور تحت اللحاف: أما سمعت؟

بلمحة، فتّش ذاكرته فوجدها خالية من أي صوت أو حركة غريبة. ربما لأنه كان غارقاً في أحضانها كما لو كان غاطساً في البحر. أو بسبب من طغيان لهاثه الجموح. أو ربما سمع ولم ينتبه، أو انتبه ولم يأبه أو يخمّن كما، لا بد، خمّنت!

أمسك يدها تحت اللحاف فأحس بارتعاشها. همس لها من ناهد توجسه: وما سمعت؟!

خفضت صوتها كمن يبوح بسر بين جمع: صوت السيارات في أول الحارة. .

جاب الحارة بمخيلته: لم يتأخر أو يبكّر عن الساعة المتفق عليها! ولا دخل الدار من بابها! ورغم البرد والمطر الغزير، دار أكثر من دورتين حوالي الحارة! أبواب الجيران ونوافذهم كانت مغلقة بالعتم والصمت. وتذكّر أن البستان المجاور، عدا بضعة كلاب، كان خالياً! وأنه لم يخلف تنبيهات الشباب، قالوا له: قد تكون الدار مراقبة من ناحية الباب. . ولذا التفّ من الخلف، صوب شجرة التوت، واصعد. وكذا فعل! لا بل حتى حين صعد الشجرة ووصل إلى منتصفها، تلفّت نحو أسفلها وحواليها، بعيداً عنها، فلم يلمح أحداً! ولحظة قفز إلى أرض الدار وخبطت قدماه، ظل مقرفصاً لاطئاً يسترق السمع لأية نأمة أو نحنحة تنمّ عن تنبُّه الجيران لصعوده الشجرة أو نزوله عنها. وخطر له أن ينقف نافذة الغرفة بحصاة، لكنه ما فعل لأن الباب كان، كما الإشارة، موارباً. وحين تسلل إلى الغرفة لم يوقظ أولاده. صحيح أن الشوق ذبحه لحظتها، وحرقته أنفاسهم العطرة المتجمعة في الغرفة. . لكنه كبس على جرحه ملحاً ولم يفعل خوفاً من تهللهم وهرجهم وصياحهم فينبّهون الجيران. اكتفى بأن غمر رؤوسهم الصغيرة الغافية بقبلات خفيفة، واحتضنهم بعينيه لدقائق، ثم ضمّ زوجته بصمت أخرس وغابا معاً. . . فكيف عرفوا بوجوده؟! كيف عرفوا! كيف!!

قال يبعد هاجساً ساوره مذ فكر بلقائها: متأكدة؟!

- طبعاً. هكذا سمعت. مثل انغلاق أبواب سيارات في أول الحارة!

- هس س س. .

ضغط على أصابع يدها، وحاول نزع اللحاف عنه، فأحس بشلل في ساقيه كأنهما غائصتان ملتصقتان بالدفء الحنون السائح حول جسديهما، ذائبتان في حرارة الدنيا التي آوت إلى فراشها، موغلتان في طراوة جسدها اللائذ بجسده وكأنها المرة الأولى. . .

قال يؤجل اللحظة التي لا بد منها: ربما كان صوت المطر في الخارج. . خرخرة المزاريب؟

- حسان. . قلبي يقول لي: هم. ثم اسمع. . اسمع الآن. . .

أدارت وجهها نحو الباب، وراح ينصت كاتماً أنفاسه، فسمع ما يشبه لغطاً بعيداً. . وقع خطوات غامضة غير منتظمة. نطّ من فراشه، ونطت معه. همس لها: لا تضيئي النور. ابحثي معي عن الثياب، ولا تفتحي إن دقوا. .

وراح يفتّش باللمس المتوتر المتخبط عن ثيابه، وكذا راحت أفكاره تتخبط في رأسه: «يعني وما كان لزوم مجيئي أصلاً! الجماعة طلعت روحهم وما لقطوني! هكذا. . ببساطة جئت إليهم بأقدامي!؟ كيف غلطت هذه الغلطة!؟ كيف لم أفكر بأنهم. . . يا سيدي! لا غلطة ولا كفرة! وما الصحيح؟! أن أبقى بعيداً عنها، متخفياً مثل الفئران. عام ونصف. . طقّ قلبي! نشفت روحي! متخف عنهم. . فهمنا، وعنها أيضاً! عن أولادي!». وتقلقلت أفكاره مع تقلقل حركاته المتلاحقة وهو يلبس ثيابه «ثم. . لِمَ افترضنا فوراً أنهم جاؤوا؟! ربما ليسوا هم! قد تكون مجرد أصوات ظننّا أنها. . .». وفكر أن يسألها ليصدق رغبته: ميساء. . .

- نعم؟

ثم عدل عن سؤاله، فقد بدا له سخيفاً، لا طعم له. أينتظر حتى يدخلوا البيت ليصدق؟! قال يحسم تردده: ميساء. . ابحثي معي. . أين الكوفية؟

وراحا يبحثان. . «ومن أجل لقاء تركهم يلقطونك!؟ لعن الله فكرتي من أساسها. يا أخي لولا البرد والوحشة والغربة ما كنت. . . الواحد منّا في عزّ الشتاء يشتهي بيته. يكفر بالشوارع الخالية والوحل والتنقل وآخر الليل. يشتاق لرائحة أولاده. يحنّ لزعرناتهم. . لالتفافهم حوله وتدثرهم به. فهمت أنني مطلوب ومتخفٍّ وما لا أدري. . . وفهمت أنه. . .».

قطعتْ أفكاره وهي تساعده في لفّ الكوفية على رأسه: حسان. . . عجّل. . . . يمكن أن. . .

شدّ الكوفية على رأسه، واتجه على رؤوس أصابعه نحو باب الغرفة. فتحه فرأى وابلاً من العتمة والمطر والسكون يملأ الدار.



ليس من صوت سوى تكتكات حبات المطر على صفائح التنك والخشب وشجرة التوت. تكتكات متتالية، متسارعة، قلقة مثل دقات قلبه. أخذ يدها وهرولا نحو أغصان شجرة التوت المدلاة. سحبها من العتمة وضمها إلى صدره.

ـ ميساء.. لا توقظي الأولاد، ولا تخبريهم بمجيئي. إن دقوا الباب فلا تفتحي. دعي الجيران يفتحون وتظاهري بالنوم. أنا ذاهب. قولي للشباب إن الموعد الرئيسي قد ألغي.. أراهم في الموعد الاحتياط ثم لا تنسي..

وسكت بعد أن أحسَّ أن الوقت سيغدره. أمسك بغصن غليظ مدلى، وكاد يدفع جسده إلى الشجرة حين نادته بصوت غائر مشخن كأنه آت من آخر الدنيا: حساااان...

التفت إليها، فما باحت أو قالت شيئاً. فردت يديها وضمّته، وشدَّت. شدّته حتى أحست أنها تكسِّر أضلاع صدرها وتوغله فيه. تفتح قلبها، تدفعه إليه، ثم تغلق خلفه وتخفيه عن الدنيا كلها. تخفيه عن الصقيع الذي أحست فجأة أنه يأكل عظامها، وعن الليل المخيف الذي يسحُّ حولها الآن، عن حفيف الصمت المفزع، عن أصابع الشجرة التي تمتد لتسرقه منها. شدّت، تخفيه في عينيها اللتين اشتاقتا عن الوحدة في فراشها البارد، وعن الانتظارات، واللهفة، والترقب، والغياب.. وعن الشتاء الطويل الذي لمّا ينته من حياتها.

وبغتة، مثلما ضمته من شوقها، دفعته من خوفها نحو الشجرة، إذ تناهى إليها وقع خطى قريبة من باب الدار. دفعته واستدارت تهرول. وفي اللحظة التي غاب فيها بين الأغصان نحو الحارة الخلفية، كانت قد دلفت إلى الغرفة. أغلقت الباب بحذر، ثم اندست في الفراش، والتحفت، فأحست بوحدة تأكل جسدها مثلما كان التوجس المتحفز الرقيب يفعل بقلبها الواجف. ◻

السيرك

خطيب بدلة



■ أحب خروف أبيضُ اللون أجعدُ الصوف أن يتفرج على السيرك. كان يعبر شارعاً مزدحماً فوجد كومة من الغنم تتدافع على باب الخيمة الكروية الغامضة، التي طالما سمع بأن ألعاباً خطرة للغاية تقام في داخلها؛ حيث تقف في حلبة العرض ذئاب مضحكة تحمل سياطاً مصنوعة من الأعضاء التناسلية للثيران، وتوعز لحيوانات كاسرة مروضة بإجراء حركات مخنثة من مثل تقليد نومة العجوز وعجن الصبية.. الهدف منها جعل جمهور الغنم المتفرج يفرط من الضحك.. هذا بالإضافة إلى جوائز وهدايا ذات قيمة تدار عليها دواليب الحظ، لتكون من نصيب الجمهور.

تدافع الخروف الأبيض مع المتدافعين حتى وصل إلى كوة بيع التذاكر وحصل على بطاقة مختومة ومرقومة، حملها بيده واقترب من الباب الرئيسي لخيمة السيرك، فانحنى له ثعلبان وسيمان يرتديان ثياباً رسمية، مدّا له أيديهما عازمَيْن إياه على الدخول.. فدخل.

وما أن لامست قائمته الأمامية أرض الخيمة حتى عاجله ذئب أسمر البشرة، زرًا قميصه العلويان مفتوحان، وكمّاه مدروجان على ساعديه، برفسة قذفته إلى وسط الحلبة، فانخبط بالأرض ونطّ، فتناوله ذئب يعتمر قبعة لها شكل قمع مقلوب إلى الأسفل، من أذنه، لاحه في الهواء لوحتين، وقذفه باتجاه الباب المقابل للباب الذي دخل منه، فوجد هنالك ثعلبين وسيمين يرتديان ثياباً رسمية، انحنيا له باحترام، وأشارا له بالخروج، فخرج.

مشى مترنحاً بينما كان صوت يأتيه من مكان غير محدد يقول له: «إذا تفوهت بحرف أمام أحد فلا تلم إلا نفسك!».

أحس الخروف أن هذه العبارة زائدة عن اللزوم، فقد كان، بطبيعة الحال، عاجزاً عن تحريك شفتيه.

تابع سيره ببطء، حزيناً ساخطاً.. لكن نوبة من الضحك انتابته عندما وصل إلى الباب الرئيس للخيمة الكروية الغامضة ووجد المزيد من أبناء جنسه يتدافعون للوصول إلى كوة بيع التذاكر. ◻



سبق صحفي

مصطفى اياد الأصفري



■يسرنا أن نعلن لجمهور قرائنا الكرام، أننا وقفنا على سرّ اختفاء الطبيب المختص بالأمراض الداخلية، الدكتور الباحث جمال كمال الدين، الذي يقول عنه البعض إنه انتحر، وغالبية الناس تقول إنه هاجر خارج البلد. كل ذلك غير هام. المهم والثابت فقط أن الدكتور جمال ألغى نفسه، أو ألغي بطريقة ما كمواطن عربي.

كان الدكتور جمال منذ حداثته متقدماً في دراسته على أقرانه، وعندما دخل كلية الطب لم يدخلها لتفوقه في شهادة الدراسة الثانوية، وإنما دخلها بمزاجه. لم يكن يتصور نفسه إلّا طبيباً تطوّق رقبته سماعة نبض القلب وحشرجات الصدر وانفجارات براكين الغازات في الأمعاء. لمع نجمه وهو يختص بالأمراض الباطنية لبحوثه المعمّقة فيها ولاقتراحاته التي تهدف المعالجة الوقائية لها ولاستئصال الأدواء من جذورها.

من المعروف أن الدكتور جمال كان قد اكتشف جائحة يشكو منها جميع العاقلين في الوطن العربي. تنقّل في سبيل دراستها على نفقته بين جميع الدول العربية، وقدم في وصفها تقارير علمية. كان لجهوده ولاسمه العلمي الكبير أكبر الأثر في عقد مؤتمر طبي عربي، عقد بصورة سرية برعاية الجامعة العربية. ولكي نوضح طبيعة هذا المرض، الذي يعدّ اكتشافه مأثرة من مآثر هذا العالم العربي، نورد فيما يلي مقطعاً من التقرير السري لهذا المؤتمر:

«..... ونبين أن الطبيب الباحث الدكتور جمال كمال الدين لم يكن بحاجة إلى نماذج من مرضاه ليرينا الحجارة والحصيات في أفواههم. فبعد شروحه للمؤتمر كيف يمكن مشاهدة هذه الأجسام في أفواه العرب، رأيناها في أفواه بعضنا بعضاً. ومن غريب الصدف أن احصاءاتنا اتفقت تماماً مع احصاءات الدكتور مقدم البحث. ففي فم كل واحد منا نحن أعضاء المؤتمر حجران سوداوان كبيران من الصوان وعشرون حجراً مختلفة الأحجام والألوان، عدا الأعضاء الفلسطينيين، ففي فم كل منهم حجر واحد من الصوّان الأسود وواحد وعشرون حجراً آخر من مختلف الألوان والأحجام.

أما أعراض هذا المرض فهي: تردد في الكلام، شره في الطعام، أرق في الليل وقلق في النهار، مع إقبال على كل ما يخلّ بوعي الإنسان من مسكر ومخدر ومهدىء. أما عندما يشتد المرض بالمريض، فأعراضه تزداد حدة: شعور بالذلة واليأس، تلبد باللسان، إطباق في الفم، وإمساك باليدين عن العمل.

جميع ما ذكر أعلاه وارد في البحث القيم الذي قدمه الدكتور جمال للمؤتمر، وثبتت لدينا بالأدلّة القاطعة. أما النقاش فقد دار بين الأعضاء لخلافهم مع مقدم البحث من حيث نشأة المرض وأسبابه. فقد خالفه كثيرون فيما ذهب اليه من أن المرض ابتدأ وافداً بعد مشانق جمال باشا في دمشق ولبنان. وبعد ذلك تطور ليصبح جائحة تعمّ العالم العربي. فقد أعرب بعضهم عن اعتقاده أن الوافدة ابتدأت مباشرة بعد الخلافة الراشدة. وبعضهم الآخر قال إن للمرض جذوراً في التاريخ تعود إلى بدء تجمع البشر في تجمعات إنسانية. أما أكثر الأعضاء فمن رأيهم أن الجائحة لا بدّ ابتدأت بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وكذلك الأمر، فقد اختلف أعضاء المؤتمر في الأسباب التي أدت إلى انتشار هذا المرض واستفحاله، فالدكتور الباحث يقول إنه لاحظ أن تطور هذا المرض وانتشاره في العالم العربي جاء مترادفاً مع تطور التقنيات وأسباب الرفاهية في سيارة المرسيدس وزيادة انتشارها في الشوارع العربية. وقد خالفه بعضهم في مرحلة من النقاش، من حيث أن أموراً كثيرة في العالم العربي تستدعي انتشار هذا المرض غير سيارة المرسيدس، إلّا أن الباحث حسم الموضوع وأقنع الحاضرين جميعاً بوجهة نظره. وقد وقفوا يصفقون له عندما قال:

ـ سيارة المرسيدس، أيها السادة، تتكثف فيها جميع الأمور الأخرى. فسيارة المرسيدس يركبها في بلاد العالم المتمدن ذوو الكفاءات. أما في بلادنا فيمتطي صهواتها ذوو الميزات الأخرى، وهي تسحق تحتها ذوي الكفاءات من أمثالنا.

أما فيما يتعلق بعلاج المرض موضوع البحث، فتقرير الباحث جاء خالياً من أي اقتراح. وبالرغم من أنه أسرّ لبعض زملائه أنه اكتشف مؤخراً علاجاً ناجعاً لهذه العلة، إلّا أنه عجز عن تقديم أي اقتراح في هذا المجال. أي أنه بصريح العبارة، عجز عن تقديم أي علاج. وهو بذلك، لا يشكل سابقة في هذا المجال، إذ أن عللاً كثيرة موصوفة في كتب الطب وليس لها أي علاج، كالفتق الذي يصاب به بعض الشبان الرياضيين في ركبهم. حيث وصفه طبيبان ألمانيان وسمي باسمها (اسكوت ـ شلاتر) دون أن يظهر له حتى الآن أي علاج.

لذلك، فالمؤتمر إذ يحيط معالي السادة الرفاق، وزراء الصحة في الدول العربية علماً بهذا المرض بوصفه وأعراضه وتاريخه وأسبابه، يبلغهم أنه قرر بالإجماع تسمية هذا المرض (مرض جمال)».

ـ انتهى ما جاء في التقرير ـ

أما لماذا يختفي الدكتور جمال كمال الدين في هذا الوقت الذي أصاب فيه هذا القدر من التقدير والاستحسان، فذلك هو السر الذي يسرنا أن ننشره كسبق صحفي كما عودنا قراءنا الأعزاء بأن تكون صحيفتنا عند حسن ظنهم، وسبّاقة في خدمتهم.

كان عالمنا الباحث الدكتور جمال كمال الدين خاطباً لنفسه فتاة غاية في الجمال والرشاقة، كان يحب فيها جاذبيتها وجاذبية روحها الخفيفة، ويقدر لها أنها من أسرة محافظة، ساذجة في العلاقات الاجتماعية، رأى فيها خامة يكوّنها بين يديه لذكائها ولوفور علمه وفضله. وقد أسعدته إذ اعتبرها مكافأة وحيدة قدمها وطنه إليه.

عندما حدد موعد المؤتمر ودعي لتقديم بحثه إليه، رآها فرصة مناسبة لقضاء أيام عسل بأرخص التكاليف ضاناً بأمواله القليلة المتبقية لديه لحاجته إليها في إجراء بحوث أخرى يخدم بها علمه

ووطنه وأمته. فسارع إلى عقد قرانه على خطيبته ودخوله بها، لترافقه إلى المؤتمر والاستمتاع معاً بالنزول في أحد الفنادق الفخمة.

في أولى جلسات المؤتمر قدم عالمنا بحثه القيم. وفي المساء أقيمت أولى الحفلات الساهرة لأعضاء المؤتمر. كان طبيعياً أن يتحلق الزملاء حول زميلهم ليعربوا له عن إعجابهم وتقديرهم لبحثه. كان ذلك مدعاة لإهماله عروسه بعض الوقت، فما كان إلا وتقدم منها أحد كبار المسؤولين في البلد العربي المضيف، غازلها غزلاً سافراً وبكلام فاضح. فوجئت المسكينة بالموقف، فاستنجدت بزوجها الذي لحق بها وآثر الستر والانسحاب من الحفلة.

ربّ ضارّة نافعة. هذا ما حدث مع الدكتور جمال الذي دأب بعد هذه الحادثة على قضاء كل الوقت بعد انفضاض جلسات المؤتمر في غرفته بالفندق مع عروسه. ولكي يعوض لها سجنها معه في الغرفة، توقف عن القراءة، وأكثر معها من مشاهدة برامج التلفزيون، وهو الذي يعاف عادة مثل هذه التسليات. ومن هذه البرامج شاهد بعض اللقطات لانتفاضة الحجارة في الأرض العربية المحتلة، يعرضها تلفزيون البلد العربي المضيف على استحياء وخوف وكأن المسؤولين فيه يرتكبون معصية يتسترون عليها. رنا الدكتور بنظره إلى هذه المشاهد، فكانت المصادفة التي قادت الكثير من العلماء أمثاله إلى كشوفهم العلمية الجليلة، فقادته هو أيضاً نحو اكتشافه علاجاً ناجعاً لهذه الجائحة التي يشكو منها ومن أعراضها الشعب العربي.

عندما تابع مناظر ثورة الحجارة، لاحظ ظنيناً بوقع رتيب بين حركة الأيادي التي ترمي الحجارة، وبين حركة الخناجر بالشتائم في أفواه الشبان الثائرين. تساءل في نفسه: من أين يأتي الشباب والشابات والأولاد الفلسطينيون بالحجارة بهذا القدر؟ المفروض بالمدينة الآهلة أن تكون خالية من الحصى والحجارة. وبإعمال تفكيره الفذ توصل إلى تفسير منطقي. في فم كل فلسطيني عاقل، صبياً كان أو راشداً، اثنان وعشرون حجراً. يذكر حجارة رآها في أفواه بعض المسنين والمسنات من الفلسطينيين تزن الواحدة منها رطلاً أو تزيد. وأكبرها عادة تكون سوداء من الصوان تلمع عليها نجمة داوود. ويذكر أيضاً أنه قبل أن يبدأ بتلاوة بحثه في الجلسة الأولى للمؤتمر، التفت إلى رئيسه وزير الصحة في الدولة المضيفة ليقول له: «سيادة الرئيس»، فرآه يتثاءب، وشاهد في فمه حجارة، كل واحدة منها بحجم رمانة كبيرة. عند ذلك أدرك بثاقب نظره أن الفتيان والفتيات والشبان والشابات في الأرض العربية المحتلة، يقومون بإخراج الحصى والحجارة من أفواههم وأفواه آبائهم وأمهاتهم يرمون بها عدوهم. إنهم انتزعوا حريتهم بأيديهم وأخرجوا الحجارة، بقوها من أفواههم فزالت عوارض المرض عنهم. أكيد أن ذلك لن يشفيهم تماماً طالما وأسباب المرض تحيط بهم. فأفواه الفلسطينيين اذن، معامل ذخيرة للانتفاضة، معامل حصى وحجارة تعمل وتنتج دون كلل وبورديات ثلاث.



بعد أن تكونت القناعة لدى الطبيب، صاح بعروسه: «وجدتها... وجدتها. غداً سأصحبك إلى جلسة المؤتمر لتكوني بين المشاهدين كما في الجلسة الأولى. سترين العلماء العرب وهم يهللون لي ويصفقون وهم وقوف عندما سأقول لهم: علاج هذه العلة أيها السادة، هو أن يتملك العرب حريتهم بق الحصى والحجارة من أفواههم. عند ذلك فقط ستزول أعراض المرض من العالم العربي، وستطمر إسرائيل تحت أكوام تعلو لأمتار من الحصى والحجارة. إن زوال إسرائيل، أيها السادة، رهن بامتلاك العرب لحريتهم بق حصياتهم من أفواههم».

في الحقيقة، لم يكن الدكتور جمال منصرفاً في ذلك الوقت إلى التفكير في علمه وبحثه فقط، وإنما كان دائم التفكير في المسؤول العربي الذي حاول إغواء زوجته والاعتداء على شرفه. لذلك، ما إن وقف أمام المؤتمرين ليعلن اكتشافه العلاج الجذري الناجع لهذا المرض، حتى شعر بانهيار وإحباط شديدين، وبتلبد في لسانه، وإطباق في فمه، وكذلك أمسكت يديه عن الحركة لتناول منديله من جيبه ليلتقط به حبات العرق عن جبينه. ولم يبق له سوى ساقيه يسيطر على حركتها، فأطلقها للريح وانسحب من الجلسة، والناس من مؤتمرين وحضور مشدوهين به، بين متعاطف مشفق أو حقود شامت. وبعد ذلك اختفى الدكتور جمال كمال الدين.

أما فيما يتعلق بطريقة هذا العالم الذي نفخر به جميعاً، والتي يستطيع كل واحد منا بواسطتها، أن يشاهد الحصى والحجارة في فمه أو فم أي عاقل من الشعب العربي، أذكراً كان أو أنثى، فهي طريقة في غاية البساطة، وتتلخص...

تعليق من الصحيفة:

نعتذر من قرائنا الأعزاء عن متابعة هذا التحقيق الصحفي، لأن المحرر عندما وصل فيه إلى هذه النقطة، انهارت أعصابه، وأصيب بتلبد في اللسان وإطباق في الفم وأمسكت يداه عن الكتابه.

(١) ..... ونبين أن الطبيب الباحث الدكتور جمال كمال الدين لم يكن بحاجة إلى نماذج من مرضاه ليرينا الحجارة والحصيات في أفواههم. فبعد شروحه للمؤتمر كيف يمكن مشاهدة هذه الأجسام في أفواه العرب، وأينا في أفواه بعضنا بعضاً. ومن غريب الصدف أن احصاءاتنا اتفقت تماماً مع احصاءات الدكتور مقدم البحث. ففي فم كل واحد منا نحن أعضاء المؤتمر حجران سوداوان كبيران من الصوان وعشرون حجراً مختلفة الأحجام والألوان، عدا الأعضاء الفلسطينيين، ففي فم كل منهم حجر واحد من الصوّان الأسود وواحد وعشرون حجراً آخر من مختلف الألوان والأحجام. □



وعاء الضغط

فيصل عبد الحسن



■ لم تكن مهمة صعبة، إنه مجرد قدر ضخم للضغط، مغلق ولا يخترقه الصوت. كانوا يقضون نهار الجمعة في التجوال في الأسابيع الماضية، والحديث عن أمور حياتها المشتركة تستغرقها، وابنها الصغير مثل قرد صغير ينط أمامها في دروب الحديقة ببنطاله السميك الأزرق، والحذاء الصغير في قدميه يصدر صفيراً خاصاً كلما أسرعت خطواته. كانت امرأة ضئيلة وقد بان الأصفرار على وجهها، وبدت يدا الرجل ملوثتين ببقايا أصباغ وجروح قديمة مندملة، وحزوز كثيرة في جلد راحتي كفيه، وأخذت المرأة توافقه على كل ما يقوله دون نقاش، لكنه كان يتضايق من هذا القبول غير المشروط ويتمنى لو أنها ناقشته في ما يعتقده، للوصول إلى حلول ممكنة. أخذت المرأة تسرح ببصرها بعيداً. كان شعرها جميلاً، مرسلاً على ظهرها، ليغطي الورود الحمراء المطبوعة على قميصها. وبين الحين والحين تنظر إليه بعينيها الواسعتين، فيشعر الرجل بمسحة الحزن التي تغطي قسمات وجهها. وتذكر أول لقاء بينهما قبل أن يتزوجا، فقد بهرته بعينيها الوامضتين، ولم ير شيئاً غير العينين في تلك الأيام. فكر الرجل أن عليهما أن يجتازا الحديقة ليصلا إلى بغيتهما، وثمة ورقة مدعوكة ينظر إلى العنوان المسجل عليها بقلم رصاص بين الحين والحين، قال الزوج وهو يومىء للصغير للإبطاء في السير: «إنهم بحاجة إلى امرأة ورجل وطفل؟».

لم تقل المرأة شيئاً. كانت تتبع رجلها بصمت. وقف الصغير على أرض الممر ينتظرهما. وحالما وصلا إليه مدَّ يده باتجاه أبيه. أمسك الأب الكف الصغيرة وسارا معاً يسبقان المرأة. أعادت المرأة خصلة شعر سرحت على عينها اليسرى. عبرا الشارع. كانت الأم في هذه المرة هي التي تمسك كف الصغير، همس الزوج: «إنه مصدر رزق جديد، لنتمكن من تسديد أجارات البيت المتأخرة علينا، ونشتري ما نحتاجه من الملابس للصغير».

أمام مبنى كبير، أخذ الرجل يعيد قراءة العنوان المكتوب على الورقة المدعوكة التي يمسكها في يده. ضحك الرجل: «قلت مع نفسي سأجد المكان، وها نحن قد وجدناه».

دخلا المبنى. كان ثمة بواب يجلس على مصطبة. حدثه الرجل، فاقتاد العائلة الصغيرة في ممر طويل ينتهي بغرفة إلى اليسار، وثمة رجل يجلس خلف منضدة، أعطى الرجل ورقة المعلومات، ووقفت زوجته قريباً من باب الغرفة وهي ترتجف خوفاً. همس زوجها وهو يملأ الفقرات الفارغة على الورقة: «إنها اجراءات شكلية. لا تشعري بالخوف منذ البداية».

حين أكمل الزوج املاء ورقة المعلومات، طلب منه الرجل أن يوقعها بإمضائه، ففعل الزوج ذلك، وأخذ الرجل الورقة بعناية كأنما يستولي على كنز، وطلب منهما أن يجلسا على مصطبة في الجوار ليقودهما بعد ذلك إلى وعاء الضغط. بدت الأضواء لعيني الزوجة باهتة، والممر الطويل يشبه ممراً في إحدى المستشفيات. أجلسا صغيرهما بينهما. كان الصغير كثير الحركات فلم يستقر في مكانه بينهما سوى لحظات. وحالما شعر بأبيه وأمه ينشغلان بالحديث ترك مكانه وأخذ يلعب في الممر ويحجل بقدم واحدة ويصدر أصواتاً عالية. قال الزوج: «لن يطول انتظارنا».

كانت المرأة أكثر قلقاً من زوجها، وقد أخفت الأضواء الباهتة لون وجهها المصفر، وجعل القلق عينيها أكثر حيوية، فأخذت تشع بلمعة غريبة لم يعتادها من قبل. قالت مترددة: «سندعهم يفعلون بنا ما يشاءون لكن الصغير لن أتركه يخضع لتجاربهم».

عاد الرجل واصطحبهما في ممر جانبي. ومن خلال نوافذ زجاجية واسعة تطل على حديقة كبيرة وسط المبنى، كان وعاء ضخم من الألمنيوم يتوسط الحديقة، وكان ثمة رجل مُعقّل يجلس على كرسي، ورجل آخر يضع على المنضدة جهاز التنصت لضربات القلب يقف بصدريته البيضاء المتسخة عند أطرافها، وبدا للرجل ولزوجته أن الرجل المُعقّل الذي يجلس على الكرسي هو الذي يصرف على هذه الماكنة واختباراتها. كان يضع رجلاً على رجل وقد بان شعر ساقه الكثيف وأخذ ينظر إلى الزوجة بنظرات متفحصة، وسأل المضمد الرجل المعقل، الذي بدا بوجهه الفتي وشاربه الدقيق وهو يراقب المرأة ساهماً، إنه صاحب الأمر: «أأسجل عدد النبضات؟».

هزّ الرجل المعقل رأسه موافقاً. أخذ المضمد يسجل على ورقة اخرجها من جيبه عدد النبضات. وعندما أكمل ذلك، ترك الرجل المعقل كرسيه وفتح بوابة جانبية في قدر الضغط، ودلف إلى الداخل، وأعاد غلق البوابة، فانتهز الزوج الفرصة ليسأل المضمد عن مدى خطورة التجربة، فقال المضمد: «إنها ليست خطيرة، لكنها تستغرق وقتاً».

أكمل المضمد بعد ذلك، كأنما يقصد إسماع المرأة ما يريد قوله: «إن الوعاء معزول عزلاً جيداً، ومهما صرخ الإنسان داخله بصوت عال فلن يسمعه أحد في الخارج».

كان الوعاء كبيراً بحجم شاحنة وقد أُلصقت على جدرانه الخارجية الخرائط الكهربائية وصور الأجرام السماوية، وثمة عدة أبواب جانبية توصل إليها سلالم حديدية مثبة على أرض الحديقة، وفوق كل باب عُلقت صورة فاتنة بالحجم الطبيعي لامرأة وهي تبرز مفاتنها بحركة ونظرة خاصة جامدة، وثمة بارومترات معلقة إلى جوانب الوعاء الخارجية والسائل الكثيف داخلها يترجرج صعوداً ونزولاً، قال المضمد وهو يقودهما صوب بوابة الوعاء الرئيسية: «ستجرى التجربة عليكم أنتم الثلاثة أول الأمر، ثم بعد ذلك كل واحد منكم على انفراد».

دمدمت المرأة لزوجها بصوت مكتوم: «لن أترك ابني وحده عند اجراء التجربة عليه».

سمع المضمد ما تهمس به المرأة، فقال ببطية: «يمكنك أن تبقي معه».

فتح البوابة ودلفوا إلى الداخل. كان الوعاء من الداخل مؤثثاً، وثمة ضوء ضئيل ينبعث من فانوس معلق إلى الجدار. وحين اعتادت



عيونهم الظلام، كان الصغير يحاول الافلات من يد أبيه ليكتشف بنفسه مجاهل المكان الجديد، إلّا أن الأب لم يترك كفه الصغيرة. بدا الوعاء للزوج مقسماً من الداخل بعدة حواجز، وعلى ضوء الفانوس استطاع أن يرى سريراً لشخصين وثمة صورة معلقة إلى الجدار، وسمع المضمد يقول: «سيضيء مصباح قوي ثلاث مرات وسينتهي الاختبار الأول».

أبقاهم في الوعاء المعزول وخرج وأغلق الباب خلفه. مدَّ الزوج يده وقبض على كف زوجته. كانت أصابعها ترتجف والصغير يناضل للخلاص من قبضة يد أبيه، ولم يطل انتظارهم طويلاً فقد أضاء مصباح قوي لثلاث مرات وانطفأ وسمعوا باب الوعاء يُفتح من الخارج، ووقع قدمي المضمد على الممر، وطلب المضمد بصوت متهدج من الزوج أن يصطحب ابنه إلى الخارج، لتبقى المرأة وحدها، فهمس زوجها: «لا يقلقك البقاء وحدك؟!».

نظرت إليه بعينيها الجميلتين. كانت ترتجف من الرعب، لكنها ابتسمت له، وقالت بصوت خافت: «سأحاول أن لا أخاف..».

أطبق المضمد الباب من جديد. كان الباب محكماً لا ينفذ الصوت من خلاله. اصطحب المضمد الزوج وابنه إلى الحديقة، وأخذ يجري عليهما الفحوصات المختلفة، ويسجل المعلومات على ورقة على المنضدة. قاس طولهما وعرض كتفيهما وارتفاع عقب كل قدم على حدة وعدد نبضاتهما، وأنفاسهما، وقاس درجات حرارتيهما كل هذا والطفل يقاوم الفحوصات المملة التي يجريها المضمد، وهو عند كل فحص يخشى أن يزرقه المضمد بإبرة، ووجهه ينبيء عن عدم اطمئنان طفولي لكل حركة يؤديها الرجل. وحين أكمل المضمد كل الفحوصات، سأله الزوج وهو ينظر صوب وعاء الضغط الموصد: «أتستمر التجربة على زوجتي طويلاً؟».

كتب الرجل شيئاً على ورقة أمامه: «بعد قليل سيضاء المصباح المعلق عند البوابة الرئيسية وسأفتح الباب لتخرج زوجتك..».

صمت الزوج لحظات، استطاع خلالها الصغير التملص من يد أبيه وأخذ يركض في الحديقة، ويقطع الزهور الصغيرة المتفتحة القريبة من متناول يده. سأل الزوج من جديد: «ما النفع من اجراء كل هذه التجارب وصرف هذه المبالغ الضخمة؟».

ضحك المضمد وقال ساخراً: «إننا نجرب امكانية عيش الإنسان في أمكنة ضيقة. أليس هذا سبباً كافياً؟».

اعتقد الزوج أن الرجل لا يحتمل النقاش الجدي، فأخذ يتابع بعينيه المصباح. وحين أضاء بعد دقائق، شعر بفرح طاغ يتملكه، وأشار للمضمد أن المصباح قد أضيء، فقام الرجل بضجر وفتح الباب، فخرجت الزوجة مذعورة وهي تحاول اعتياد الرؤية في ضوء الشمس، وأخذت تنظم شعرها، وتعيد طرف قميصها الخارج من التنورة. ركض الصغير صوبها واستقبلها الزوج ورأى على وجهها ورقبتها قطرات عرق، قال لها: «أرجو أن تكوني بخير».

هزت رأسها ايجاباً. كانت يدها تقبض على أوراق نقدية. قال المضمد: «اكتملت الاختبارات اليوم ستحضران حالما نهاتفكم. ربما نطلب حضور الزوجة وحدها أو الرجل وحده. إن ذلك يتوقف على نوعية الاختبار».

قال الرجل هامساً لزوجته: «أقبضت؟!».

فتحت كفها فبانت الأوراق النقدية المدعوكة مبللة بعرق كفها، ولم تقل شيئاً. خرجا من البناية وأخذا يسيران في الشوارع المزدحمة بالناس. وبعد ذلك قطعا شارعاً عريضاً صوب الحديقة التي مرّا بها قبل ساعتين.

قال الزوج: «أكان أحد غيرك داخل وعاء الضغط؟».

هزت المرأة رأسها ايجاباً ولمعة غريبة في عينيها: «هو الذي أعطاك مكافأة التجربة؟».

هزت رأسها من جديد ايجاباً، قال الزوج مخففاً: «إنها اختبارات بسيطة! إنهم يرمون أموالهم في الطريق. سنكسب مالاً كثيراً في الأيام القادمة».

أخذت المرأة تنظر واجمة صوب أطفال الحديقة بملابسهم الملونة، وثمة فتيات يلعبن بكرة مطاط ملونة، وشمس هائلة الحجم تستحم في ماء النهر القريب وتخرج لاهثة لتلقي بنفسها على أوراق الشجر القريبة، وتتقلب بين أوراق العشب وتنساب منسلة بين أقدام الأطفال اللاعبين هنا وهناك.. □



وقائع ما جرى بين السلطان ووزيره

حسب الله يحيى

■ فتح السلطان الرسالة السرية التي وصلته تواً، وتأمل سطورها. للوهلة الأولى أزاح عنه غشاوة التجني، ولكنه حين استعاد القراءة الثانية والثالثة، اقتنع بكل ما ورد فيها.

وفكر ملياً: ما هو الإجراء السليم الذي ينبغي اتخاذه في مثل هذه المسألة التي تتعلق بشخصه مباشرة؟

ضجر السلطان، وحاول أن يتجاوز غضبه، فقد يكون نتيجة القرار الذي يتخذه في صالح خصمه.

تأمل جوانب المسألة، وناقشها مع نفسه من عدة وجوه ومن عدة زوايا.. من الداخل ومن الخارج.

استعاد صورة وزيره.

كان الوزير يظهر حلاوة في الطبع، وحباً غامراً لم يألفه عند بقية ◄



وزرائه.

كان الوزير في خدمة السلطان. وقد عرف عنه أنه كان أول من يشعل سيكار السلطان حال أن يقوم بالتدخين. كانت تلك مهمته، لا ينافسه فيها أحد.. حتى عرف عنه أنه صاحب قداحة السلطان. وكان شديد الاعتزاز والحرص على أن يكنى بهذا اللقب.

وتوطدت الثقة بين السلطان ووزيره... حتى أصبح الوزير ظلاً لسيده السلطان، يتشبه به، ويتخذه قدوة حسنة ونموذجاً رفيعاً يسير على هديه.

كان يماثل السلطان في ضحكته السمجة، وجلسته المعتدة، ووقفته المكابرة، وشعبيته المبتذلة.

ينقل عنه أقواله، يحفظها، ويوردها على لسانه بكل اجلال وتكريم وتقديس.. لا يشك في صدقها ومدى تطابقها مع الواقع. المهم عنده أن كل ما يقوله السلطان قانون حق، لا نقاش فيه ولا اختلاف في شأنه.

كان السلطان يلمس رأس وزيره بود، والوزير ينكمش خجلاً، يأخذ يد السلطان الحانية ويقبلها.

ولما كان الوزير لا يطالب بشيء لا لنفسه ولا لأحد من قومه، انطلاقاً من قاعدة يؤمن بها، وهي أن عيون السلطان بصيرة، ولا يخفاه شيء ليذكره أحد بها، كما أن حكمة السلطان هي غاية لا يدرك عمقها وأهميتها سواه.. فعلام إذن يشغل السلطان بما يعرف، ولماذا يجعل السلطان يستاء منه مثلما يستاء من بقية وزرائه بسبب كثرة مطاليبهم وتعدد مشكلاتهم، وعدم توفر الحكمة لديهم لاتخاذ قرارات عاجلة أو متأخرة حسبما يشاؤون؟

ولأن الجميع من أفراد الحاشية وحراس ووزراء السلطان يعرفون المكانة الحسنة التي يشغلها الوزير.. مشعل سيكار السلطان، اعتبروا كل ملاحظة منه أمراً، وكل إشارة منه إنجازاً، فارتفع شأنه، وازدهى مكانه قرب السلطان.

وذات مساء خريفي، انحنى الوزير، وانكمش عند ركن من كرسي السلطان، وأخذ يترقب تناول السلطان لسيكاره، كي يبادر إلى اشعاله كعادته.

لامست أصابع السلطان رأس وزيره مثلما يلمس قطة أليفة.

عندئذ قبّل الوزير الأصابع المقدسة للسلطان.

ابتسم السلطان، وسأل وزيره بود:

ـ منذ أن عيّنت يا وزيري وأنت لم تتقدم إليّ بطلب..

وقبل أن يكمل السلطان عبارته، أجاب الوزير بكل خشية وسكينة:

ـ أفضالكم علينا كثيرة يا سيدي السلطان، جلّ مقامه.

ارتاح السلطان لإجابة وزيره، وصمت قليلاً، ثم قال:

ـ ما رأيك بأن تكون سفيرنا في أكبر بلد في العالم؟

سرّ الوزير في داخله غير أنه قال:

ـ وكيف أستطيع صبراً على فراق سيدنا السلطان؟

قال السلطان:

ـ إن هي إلّا مهمة لا يستطيع انجازها سواك، وترفه فيها عن نفسك ثم تعود إلينا.

ـ الأمر لمولاي السلطان، فكل ما يصدر عن حكمته خير للرعية.

ـ اذن جهز نفسك للسفر.

ـ أمركم مجاب سيدي السلطان.

*

هناك.. في عالم بعيد مضيء.. وسهرة معطرة حتى الصباح، جمعت الوزير المدلل مع عدد ممن شملهم كرم السلطان، وهم في الخارج يمرحون. رحبوا به لمناسبة تواجده معهم، وتوليه سفارة بلادهم.

ولما كانوا يعرفون مدى اعتزاز السلطان بوزيره، وأن وجوده بينهم لا يتجاوز الترفيه.. ازدادت حفاوتهم به.

وهناك، اتكأ الوزير السعيد في مقعد وفير، وطاب له المقام، ولعب برأسه الخدر، فأحس بأنه طليق، وراح يتحدث في أمور شتى، والجميع منصتون له.

قال: ألست أولى بمكانة السلطان من ولي العهد الفتي؟

ورافق تساؤله ترقب إجابات من معه. وعندما صمت الجميع ولم يبح أحد بجواب، كرر السؤال على أسماعهم، وأضاف يقول: ماذا أفعل بمحبة السلطان إن لم أكن بديلاً عنه بعد مماته وهو أمر ليس ببعيد؟!

كان أحد الجالسين يرقب الوجوه المحيطة به واحداً واحداً، وجهازه السري يعمل بكتمان.. والوزير يطلق تساؤلاته ويزيد في كل مرة عبارة جديدة.

والجالس المترقب، سعيد بالجلسة، شديد الإصغاء والانتباه.. ومع أنه استاء من صمت الآخرين إلا أنه فرح بصيد كان يترقب الحصول عليه منذ أمد طويل، فقد كان يطمح إلى كرم سلطاني، وقفزة سريعة في سلم السعادة وبلوغ أقصاها.

*

انقضت السهرة. وقبل أن يستيقظ الوزير من ليلته الباذخة، كان صوت الوزير مع رسالة توضيحية تتوزع بين أسماع وبصر السلطان.

غضب السلطان أيما غضب، وفكر بقطع رأس وزيره على عجل إلّا أنه استعان ببصيرته اللماحة، فمن شأن غضبه؛ جعل الوزير شهيداً من شهداء المعارضة، ويصبح دمه مثلاً تتناقله الأفواه، ويتباهى به أعداء السلطان للدلالة على البطش والطغيان.

فكر ملياً، ووصل إلى قناعة جديدة.

*

أرسل بكرسي أثري ومنضدة كتب لهما الخلود زمناً طويلاً إلى وزيره ـ السفير، وأبلغه بوضع الكرسي والمنضدة في مكان مهم لكي يكونا في متحف خاص، فالكرسي والمنضدة كما ذكر السلطان يعودان إلى جده سلطان البلاد المعظم.. ولهما قيمة معنوية كبرى لا تقدر بثمن.

وأنجز الوزير وصايا سيده السلطان المبجل على عجل.

وكتبت الصحف في تلك البلاد العامرة تفاصيل عن الجذور التي ينتمي إليها كرسي ومنضدة المغفور له سلطان البلد الحليف، وصار للكرسي والمنضدة صيت لدى أولئك الذين تعنيهم التحف القديمة التي تمثل جلال الماضي وأبهته حتى أن البعض عرض مبلغاً طائلاً لشرائهما.

وأرسل الوزير ـ السفير إلى سيده السلطان، خبر الثروة المعروضة عليه لقاء شراء الكرسي والمنضدة.

وعلى غير توقع الوزير، وافق السلطان على الصفقة وباع الوزير

تراث الأجداد.

عندئذٍ أعلن السلطان الخبر لشعبه بعد أن أرسل طالباً مثول الوزير بين يديه على عجل.

ولأن الشعب كان يحب السلطان الراحل، ويذكر كرم نفسه، ودفاعه عن حدود بلاده، وسعيه الحثيث من أجل تحقيق الرفاهية والعدالة للجميع.. استاء من بيع الكرسي والمنضدة اللذين هما رمز سلطانها العادل.

استنكر الشعب فعلة الوزير الذي كانوا يكرهون تملقه للسلطان، وطالبوا بإنزال العقاب الصارم بالوزير الذي أساء إلى تراث سلطانهم الراحل الذي لم يترك ثروة ولا أراضي وإنما ترك الكرسي والمنضدة لا غيرهما.

استجاب السلطان لأماني شعبه في معاقبة الوزير، وأحاله إلى القضاء ليأخذ جزاء خيانته وتفريطه بتراث الأجداد.

وبعد عدة جلسات، وأمام الأدلة الدامغة والبيّنة ودهشة الوزير، وسكوته الذي يعطي أكبر دليل على الجناية التي ارتكبها، صدر قرار القضاء بالحكم المؤبد على الوزير.

عندئذٍ، ارتاح الشعب لقرار الحكم مثلما ارتاح السلطان للحكمة التي اتخذها ضد وزيره الطامع بكرسي ولي الأمر.

*

بقي الوزير في سجنه سنوات عدة نسيت من جرد الحسابات ومن ذاكرة الناس، شاخ الوزير فيها، وبلغه المرض وتراكمت عليه الأوجاع إلى أن مات بينما كان السلطان يعد ولي الأمر لتسلم مقاليد البلاد. □

أيأتي المطر بالرعب؟

جنان جاسم حلاوي



■ ثلاثة أيام والمطر الاستوائي يدق ناقوس الماء، هيولي الكوكب المظلم يطمر المخلوقات بالضباب والوحول، يرميها إلى العتمة والفراغ، أطياف العميان والمجانين والسحرة والبرص وقارئي الكف والعرافين تتراكض في طوفان المدينة. الزهور تترمد، الضوء يلبس قناعاً مخملياً أسود، يكسر قناديل الطفولة تحت شجرة الزقّوم، يفترسها مطر أبيض كالملح.

إنها سهرة الصمت الأخيرة، وبداية جريمة، مذهبة الريش. على فراش، تمددت فوقه جثة المطر القتيل.

النخيل تأرجحه سواقي الوحول المتماوجة، ناكثاً عن سعفه البلل، ترطم جذوره الناتئة، جثث الضفادع، أو تتجاوزه هائمة أشباح كلاب فزعة.

المدينة تتخبط، يغرقها الغمر، تركلها الغيوم، يجبلها صدى غناء مبحوح تموسقه مزامير ساحرات المساء، يستجلي المرايا المتصدعة، وأكفان الرماد، ومشاعل الذكريات الآيلة إلى الزوال.

رحيق المطر يضبب زجاج نوافذ الغرفة، يعطيه شكل صورة سلبية للشفافية. أثاث البيت تضمخه الرطوبة.

.. هذا المكان يومىء بالوهم والكتمان، ثمة (رسيس) غريب يتهادى، يوسوس حول صورة باهتة للعائلة، صورة يحاصرها مستقبل أنقعه فيض الماضي، المكان هنا حوض اختنقت أسماك زمنه داخل فقاعات الرعب، ورغوة الهستيريا.

ذراعا مقص يقصان الهواء أمام فم مفلوج وعينين جامدتين ويدين مصلوبتين. الأم تدس خشبة بين أسنان (ج) حتى لا يعض لسانه.

الأب يرضع حنظل قلقه، متفحصاً صدر ابنه الموشك على الهمود.

ـ أمسكه.. صرخت به، مستغيثة وجسد ابنها (ج) يكاد ينوش منفذاً وهمياً، ينصهر فيه. هرعت إلى (الكومودينو)، أحضرت زجاجة خضراء، وملعقة بيضاء.

ـ ستقتله الهستيريا.. نفث الأب كلماته المهموزة تعباً، بينما انتزعت الأم الخشبة، وغصصت الحلق المختنق، بسائل بني سال من طرفي فم (ج)، المتشنجين، وأرنبة أنفه ترتعش بين خدين لجمتهما كومة عضلات يابسة.

للمطر رائحة النخيل والطين، للميازيب قيء المطر.

عينا (ج) دودتان يلوثهما الصديد. صوت الانهيار المائي يرج حيطان الغرفة، يحشو نخيخها بهرج طقطقات الكنبات. تكتكات الساعة الرتيبة تردد ذلك النقر المزعج، زهور الضوء رماد. زهور الضوء رماد. زهور الضوء رماد.

جلس (ج) الى منضدة. اتكأ على النافذة، عاكفاً على زنابق روحه المفلوشة، متفحصاً كل ما يطوف، خارجاً، خلفها.. خلف النافذة: الريح يسيرها عسس يصفرون ثم ينطفئون، القناديل تمج المطر دموعاً أسيدية. لم تعد هناك مدينة. مجرد ضوء زئبقي مكتوم ينوّر أفقاً قاحلاً مزرقاً. الفضاء بنفسجي عند قمة الكون، يقبع صمته فوق صخور اكوارتيزية، وجرانيتية، وماغناتية.

قال (ج): «المطر يلبس قفازات سوداء..».

أومأت الأم موافقة ثم دخلت مع الأب غرفة أخرى..

ـ «أين جهينة؟..» تساءلت:

ـ «من جهينة؟». رد الأب مستغرباً.

ـ «ابنتنا.. نسيت؟».

ـ «حقاً؟».

خرجت جهينة من الخزانة فرحة، تغني:

مطر مطر يا شاشا

عبر بنات الباشا

مطر مطر يا حلبي

عبر بنات الجلبي

قالت: «ماما.. وهل يختنق المطر؟».

نهراها، عادت الى الخزانة. سمعا صوتاً مريباً يردد: «بابا في◀



المطر.. . ماما في المطر.. أنا أين؟».

كان (ج) يبدي غبطته أيضاً، لولا يأسه الواضح.

المطر في الخارج كالأسئلة في الداخل، والعائلة تغرق.

*

فتح (ج) الخزانة، هرب الظلام منها ناسياً خفيه. لم يجد جهينة. دخل الغرفة الخالية. بحث عن أمه، تحت الكنبة. لا أحد. شمّ رائحة وصال جنسي تنز من البلاط. سأل الصورة المعلقة عن أبيه، ارتعشت السجادة المفروشة، وسط الغرفة.. صرخ (ج) «ماما.. بابا.. . جهينة».

عاد إلى النافذة. ارتعب. من ترى فتحها؟ من أدخل الحياة المختفية، عبرها؟ غيوم مبحوحة، وأعضاء نباتات عنكبوتية، وأصداف لها قلوب مخروطية، وطيور زيتونية اللون وصخور كبلتها مهاميز سلم، يمتشق أطراف الأزل.

خيوط المطر تلوح كأسلاك فضية تخيط حيطان البيوت.

- «وهل البيوت مفتوقة؟» تساءل (ج).

لعل انهار المطر أياماً عديدة كان سبباً في شق مسيل قدّام الدار، جارفاً معه بضعة أطفال عراة. فُتح باب البيت المقابل. بانت وراءه امرأة ترفع طفلاً. رقصت ثم رمت الطفل إلى الماء، وعاطت: «ليس هذا ابنيَ.. انه سمكة..».

المساء يقرض أنامله قلقاً. السكون يبحث عن معاطف الأصوات في مشجب العتمة، والقمر يدهن أبطيه بـ (الديتول).

- «تركوني وحيداً».

أكد (ج) ذلك لنفسه.

لبس جوربيه وحذاءه المطاط، وغادر البيت. كانت أشباح أمه وأبيه وجهينة تخطو خارج لوحات المطر، ترحل لتختفي في العتمات. هذا ما لمحه. هرع صوب الأشباح المتهادية. المطر يثنيه، يسربله الضباب.

صرخ فزعاً حال اختفاء الصور على منصة منظر التلاشي: «ماما.. بابا.. جهينة.. أنا وحيد.. خذوني معكم».

ولكنه الآن بات يسمع جلياً صدى الخرير يشهق باكياً عليه.

*

قلبت الأم السجادة. بحلقت مرعوبة، همست: «أين يختفي ابني؟».

أندس الأب تحت اللحاف، مصّ الهواء، وبحّ: «في الهستيريا».

نطت جهينة، صاتت كالقطار: «أخذه القطار».

تضايق الأب من فضول ابنته التي لم تصدق يوماً أن (ج) محض طفل مريض بالعصاب.

- «الموتى يرحلون الى القبور». هكذا قمع ابنته.

«ولكن التوابيت تأخذها القطارات..».

بربرت جهينة أسيانة.



صرخت الأم، مزقت وجنتيها، قبضت رقبتها المختنقة، رفست الهواء برجليها، وعيناها أبيضتا.. أبيضتا ألماً. زحفت جهينة إلى (الكومودينو). طالت قنينة الدواء، أرتها لأبيها المتخشب المرعوص، ورغوة فمه الدكناء تناثرت على ذقنه المفلوج. خزرت جهينة وجهي أبويها، صبت الدواء على شفاههما وغنّت مغتبطة: «مطر مطر يا شاشا.. عبّر بنات الباشا...».

ثم غادرت المكان راكضة صوب القطارات الذاهبة الى بغداد، لترى حقاً إن كان المطر يختنق أيضاً.

ارتجت أمامها صور مشلولة، تباعدت، ذرّت، ونثرت أشكال (جهيات) عديدات، نادتها: «أختي أنا هنا، أنا هنا، أنا هنا..».

لم تسمع سوى صدى (أنا هنا) يهطل عليها، يلطمها. كانت جهينة وحيدة، تجري، تبحث عن (ج) الغائب أبداً، يعصفه مطر الرعب هذا الذي يلبس قفّازين سوداوين كالهستيريا. □



الخيول

علاء الدين محسن

■ أجساد الجنود تتلاحق مسرعة. بمحض المصادفة يموتون أو يحيون. والنافذة أمامي تمتلىء بصور الخيول.. صور ملونة تستقر على زجاج مشروخ.

أجساد الخيول وأجساد الجنود، وسعاد تتمدد على الفراش كقطة. أما أنا فأدخن سيجارتي السابعة هذا الصباح وأرقب الحوافر تدق وجه النافذة الشاحب وأسمع صراخ الذين يتقاتلون هناك من أجل شيء ما في لعبة اسمها الحرب.

في أولها ابتسمت لي سعاد، وفي وسط الحرب ابتسمت لها، وهي معي الآن في الفراش.

مات لنا، لي ولها، كثيرون. والحرب مستمرة، ويمكن أن نموت نحن أيضاً.

وبانتظار ذلك، نذهب إلى تلك الغرفة في آخر سبعة طوابق نصل إليها منهكين لنقبل بعضنا ونتعانق حتى موعد موتنا، تطل علينا وجوه الخيول الآمنة في ضوء الغرفة الخافت.

وعندما مددت ساقي وأنا أدخن سيجارتي السابعة في ذلك الصباح الذي شهدت ليلته الماضية موت الكثير من الجنود محتفظين بأسرارهم وصور الأطفال والزوجات والرغبات التي لم تتحقق، في ذلك الصباح مددت ساقي فأصابت الزجاج المشروخ الذي تداعى شظايا توزعت أرض الغرفة وانغرزت في أجساد الخيول التي فار الدم منها وتبللت عيونها بالدموع وتكومت على الفراش متكئة على جسد سعاد التي قامت مرعوبة تنفض عنها مثلثات زجاجية لامعة البريق وحادة الزوايا، أما الجنود فكانوا مكفهري الوجوه مثل أطفال يقادون إلى حتفهم دونما ذنب.

ولم يعد ثمة مجال لممارسة الحب، فقد تكسر مزاجنا، ونهضنا متكاسلين ورحنا نحدق عبر الزجاج المحطم إلى الشارع الساكن في هذه اللحظة لولا أن عدداً من الشاحنات البنية خرجت من آخره بضجة مدوية، وأطلت منها وجوه الجنود المتربة تحدق عيونهم في

الفضاء المحتوي موتهم المنتظر، وبدلاتهم الكاكية تنضح بالدم، فقد انغرزت فيها شظايا الزجاج، وأخذتهم الشاحنات ليموتوا، بعيداً، وضجت الغرفة بأصوات نحيبهم.

كانوا يبكون كالخيول، وكالأطفال تماماً.

وبقينا أنا وسعاد نحدق إلى وجهي بعضنا مذهولين، ثم انطلقنا نضحك ونضحك.. ضحكاً له مذاق البكاء.

ثم اقترحت سعاد أن أغير غرفتي إلى أخرى نستطيع فيها أن ننام مع بعضنا بهدوء..

واشترطت لتأتي اليها، أن لا آتي إليها ـ الغرفة الجديدة ـ بصور الخيول.

أما أنا فكنت أفكر بغرفة تنتصب على نوافذها كشواهد القبور صور لنساء منتحبات متشحات بالسواد ينعين أطفالهن المقتولين قبل الفطام، وقبل أن يشبعوا من شفاه حبيباتهم.

وعندما أخبرت سعاد بذلك، قالت إنني مجنون، وإن جنوني مأساة، ومأساتي هي جنوني. وقالت إنها تفضل رجلاً آخر يحبها بصمت دون أن ينغص حياتها بخيول قتيلة وجنود معطوبين وأمهات نائحات. وقالت إنها وجدت هذا الرجل وستدبر خطة لاختطافه من صديقتها.

أما أنا فقلت لها إن حياتنا معاً خربت منذ أن بدأت الحرب. وبما أننا تعرفنا على بعضنا في أول الحرب، فقد خربت حياتنا منذ أن تعرفنا على بعضنا.

فلم تفهم شيئاً، واقترحت عليها أن تعرفني على صديقتها التي ستسرق منها صديقها والتي قالت عنها إنها تعتبر ممارسة الحب مهمة نضالية.

فقطبت حاجبيها وأخذتها الغيرة وقالت لي من الأفضل أن تتصرف لكآبتك الدائمة.

وعندما انتهيت من سيجارتي السابعة في ذلك الصباح كنت أفكر: لو لم أمد ساقي بقوة فترتطم بالزجاج ويتحطم وتخر الخيول جريحة ويختلط دم الجنود بشظايا الزجاج، هل كان سيحدث ما حدث وتقوم الحرب؟

وبدا لي العالم مرتبكاً ومثيراً للضحك ولكنه ضحك له مذاق البكاء كموتنا. □



كل الاتجاهات

زكي درويش



■ وتبين لي أني ضعت، ركبت أول سيارة باص في أول محطة صادفتني، أخرجت يدي من جيبي بكمية من النقود دفعت بها إلى السائق، وشاء حظي الحسن أو السيء ـ هذه مسألة تحتاج إلى مناقشة فيا بعد ـ أن يكون المبلغ مطابقاً لسعر الوصول إلى محطة ما، في مكان ما في اتجاه ما دون زيادة أو نقصان، والسائقون عادة يحبون أن يظهروا بمظهر الأذكياء.

آنذاك، لم أكن مستعداً لمناقشة ما حدث لأني كنت فرحاً بالسلامة، والسلامة كما يقولون غنيمة، وبعد أن جلست على الكرسي تسارعت دقات قلبي بعنف، وهذا ما يحدث لي عادة عندما أقع في مأزق حقيقي تكون فيه حياتي أو حياة الآخرين بسببي أمام خطر داهم: تسير الأمور سيراً عادياً حسناً، وبعد السلامة والنجاة يأتي دور رد الفعل. وهذه في ما أرى نعمة لا يدركها إلا من وقع في هذه المواقف، ولعل في هذا ما يفسر اندفاع المحارب إلى قلب النار والتهلكة، ومن ثم إحساسه بالخوف أو الندم أو حتى الجنون بعد سنوات من النصر أو الهزيمة.

على أني في هذه المرة قررت أن أقاوم ما استطعت، وبما لإحساس داخلي بأني لم أتجاوز الخطر تماماً بعد. وبما أن التدخين ممنوع في الأماكن العامة حرصاً على سلامة الجمهور وحقه الطبيعي في تنفس هواء نقي، فقد قررت أن أتسلى بمشاهدة الشوارع والناس والعمارات العالية، ولكني اكتشفت أن هذه الفكرة تغيسة، فالعمارات متشابهة، متكررة، متراصة، مكعبات ضيقة كالزنازين تمتد على طولها حبال غسيل معظمها سراويل نسائية ورجالية. على طول الشوارع اعلانات متكررة أكثرها عن الملابس النسائية الداخلية والبيرة، حتى قلت في نفسي ربما كان هؤلاء المتدينون على حق.

شوارع خالية من الأشجار. وضع مقلوب. أشجار على سطوح البيوت، بينها أشجار نخيل من النوع القزم المستعمل للزينة تبدو تعيسة لإحساسها بالغربة.

انتبهت إلى أن الفسحات التي لم تصل إليها أصابع الإسفلت كانت رملية. ولأمر ما خطر لي أن العمارات الشاهقة تسبح فوق بحر من الرمل المتحرك. ولما توقفت سيارة الباص في احدى المحطات لاحظت بوضوح أن الرمل يكسو الشارع بطبقة رقيقة، فتخيلت الرمل يخرج من مخابئه ويغمر الشوارع تماماً، ويدخل النوافذ والشرفات ويصير كل شيء رملاً فوق رمل. تمنيت أن أفضي بهذا الأمل الى جاري في المقعد، لكن نظرة واحدة الى سحنته ردتني خائباً. كان يخفض رأسه ثم يرفعه في حركات رتيبة ويقول كلاماً غير واضح بدا لي أنه صلاة.

عرفت أن لحظة المواجهة لا بد قادمة، وكنت أحاول دفعها ولكن بدون فائدة. هل ضعت حقاً أم أني كنت أريد أن أضيع لأشغل نفسي بحكاية الضياع هذه أم هل كان الوضع خليطاً من هذا وذاك؟ المهم عندما حاولت أن أعرف أين أنا فشلت تماماً.

كانت سيارة الباص تخفف السرعة عند المنعطفات. وهناك عادة يعلقون أسماء الشوارع بحروف صغيرة على معدن أزرق أو ليلكي، ثم أدركت أن الأسماء هنا لا توحي شيئاً، فاسم (هرتسل) مثلاً موجود في كل مدينة من نهاريا إلى تل أبيب وربما حتى ايلات، وكذلك اسم وايزمن وغيرهما.

هل يمكن أن أسأل الراكب إلى جانبي: أين نحن الآن؟ وماذا عساه يظن بي؟ ثم كيف أفسر له ملابسي غير المنظمة، وشعري، وبعض الأزرار المقطوعة؟

ابتسمت رغماً عني، بل كدت أقهقه فأقطع الصمت القاتل في سيارة الباص إلا من صوت المحرك الذي بدا لي ناعماً في هذه المرحلة، فقد تذكرت قصة ذلك الولد الذي أصبح حالي يشبه حاله غير أن النهاية في قصتي ما زالت مفتوحة، أما هو فقد أنهاها على طريقة الفيلم العربي أو ما يسمى بالنهاية السعيدة.

وحكاية ذلك الولد طويلة ملخصها أنه كان معنا في رحلة مدرسية الى جبل الشيخ. وفي طريق العودة توقف الباص لسبب ما في البانياس، فرأى الولد من خلال النافذة صورة فتاة بدوية من النوع الذي يوضع على بطاقات البريد، كانت على خدها شامة وفوق جبينها سلسلة من قطع النقد الذهبية. ربما ذكرته الصورة بأمه أو بفتاة يحبها. وبدون أن يفكر خرج من النافذة ولم ينتبه أحد لتسلله وذهب ليشتري الصورة. في تلك اللحظة انطلق الباص في طريق العودة. ولأنه كان صغيراً وصامتاً لم يفطن أحد إلى غيابه، ولم يكتشف الأمر إلا بعد أن وصلنا إلى القرية. الله وحده يعلم كيف وصل الولد بعد ذلك إلى صفد. لقد روى القصة على أكثر من وجه. ومن هناك صعد أول باص صادفه في المحطة، وربما قد أغفى فإذا هو في شوارع يافا وهو يعتقد أن كل باص يجب أن يمر بقريته حتماً.

أدركت لأول مرة أن حكاية الولد لا تثير الضحك، بل تحمل في أعماقها بذور مسألة مكتملة الجوانب وقلت في نفسي إن كانت الحكاية مضحكة، فحكايتي الآن مضحكة أيضاً، فهل يرضيك هذا؟

عندما انتظمت دقات قلبي وعدت جسدياً إلى حالتي الطبيعية أطبقت عليّ الذاكرة وعرفت أن لا فائدة من الهرب أبعد من هذا الحد. يجب أن أقف أمامها وجهاً لوجه، وما كان يجب أن أهرب منها أصلاً. أمسكت ما حدث من طرف الخيط وكأني أدحرج كرة صوف.

كنا حوالي عشرين شاباً وشابة في طريقنا إلى القدس وتوقفنا في المحطة المركزية في تل أبيب في ساعة لا تمتاز عادة بالازدحام. قررنا أن ننتظر قليلاً قبل الصعود إلى باص القدس نستعرض ما يعرض هناك من كتب وصور واسطوانات وملابس وتفاهات. وكنت قد لاحظت أننا لم ننجح في تكوين مجموعة، ولم نتبادل من الكلمات إلا ما كان ضرورياً، ولم نوجه أسئلة إلا ما كان جوابه نعم أو لا. شيء ما يقف أمامنا، ولم أكتشف ذلك رغم طول المعاشرة. لاحظت أننا لم



نفتح موضوعاً وتوصلنا فيه إلى نتيجة. كنا نتحدث على طريقة المسافرين الذين يلتقون في المطارات أو القطارات لأول مرة. كان يتثاءب أحدنا ويقول: أف يا للحرارة! فيضيف الآخر: والرطوبة شيء لا يطاق. ثم تعليقات عن سكون البحر تحت الشمس اللاهبة والرمل الناعم وعدد المستحمين ثم فترة سكون طويلة طويلة. فكرت أن السبب هو ذلك الحر، ثم أدركت أن هذا بعيد عن تعليل ما يحدث. شيء مفقود بيننا.

وبينما كنا نمضغ السندويشات والملل اخترق النعاس صوت هائل، انفجر شيء ما. تسمرنا في أماكننا لحظة ثم اختلط كل شيء في كل شيء. مدّ من الصراخ والصياح والناس والسيارات والشرطة وسيارات الأسعاف والإطفاء والنجدة، وناس يركضون في كل الاتجاهات الممكنة المؤدية إلى أزقة وشوارع وساحات، ركضت في اتجاه ما. أعرف الآن أني لم أحاول البحث عن زملائي، ولم أشاهد أحداً منهم حتى وصلت إلى المحطة التي صعدت منها.

قلقت. ماذا حدث لسمير ذلك الفتى الأنيق، ومروان الذي لا تفارق الابتسامة الحزينة شفتيه؟ وهلعت تماماً عندما تذكرت ليلى. أيمكن أن يكون حدث لها ما أخشاه؟

تملكني الإحساس بالندم، ولكني حاولت إبعاده كدت أصرخ: ولماذا لم يسألوا عني هم؟

ولكني وجدت هذا التبرير سخيفاً، ثم من يضمن لي أنهم فعلاً لم يسألوا عني.

كنت بحاجة إلى صفع نفسي، لهذا استخرجت من الذاكرة ما فعلته يوم وقع انفجار في مدينة عكا، ورأيت مجموعة من الشبان اليهود يضربون عربيين، وأدركت أني واقع في مأزق لا محالة، فقلت لليهود باللغة العبرية ما معناه اضربوهم. يومها عضضت يدي وأنا أتصورها تضرب الشابين العربيين، بل لقد حاولت أن أضرب نفسي لأشاركهما ما ذاقاه من إهانة وعذاب.

فقدت الجهات تماماً، لا أعرف الآن اتجاه سير الباص. كل شيء متشابه. أبرز ما يميز المكان صور الإعلانات شبه العارية ورجال يلبسون الملابس السوداء الدينية. جربت أن أستعين بالشمس فلم أفلح لأنها كانت مختفية فوق الباص.

خرج الباص من دائرة البناء نهائياً، كان يسير في شارع يمتد في صحراء على جانبيها رمال صفراء ونباتات صفراء أيضاً، عندما يمر الباص بجانبها تثب عدة وثبات في حركات بلهاء. قررت أننا نسير نحو الجنوب، فليس لدينا صحراء إلّا في هذا الاتجاه، ولكن إلى أين؟ هنا المشكلة.

وربما بسبب التداعي تصورت أننا نخترق سيناء. أحببت الفكرة، وعرفت بعدئذ أنها وسيلة للتخفيف عن النفس ما تراكم عليها من سحائب الندم والإحساس بالذنب.

ألم تشهد الصحراء من قبل، غيري يفر كالقطيع الشارد عندما أمطرت السماء حمماً وشظايا؟ وما عساي أنا المواطن الفرد إزاء ما عجزوا هم من مواجهته؟ وعندما حاولت التوغل في الفكرة إلى أبعد من ذلك عجزت، لكني كنت مصمماً على غسل نفسي مما علق عليها من خيبة. قلت: وقبل حوالي أربعين سنة انطلق جدي وأعمامي وأخوالي في كل الاتجاهات عندما اقتربت من سهول بلدنا دبابة.

وتداركت: هل يجب أن تتكرر الغلطة المأساة في كل مرة؟

وأضفت: أنا تعب، ثم أنا خائف، وهذا الجهل بأني لا أعرف أين أنا الآن. أبعد ذلك خيبة؟ انتبهت إلى أن ساعة الراديو تعلن الثانية عشرة ظهراً. تمطى صوت شاسع في سيارة الباص وأعلن المذيع موجز أنباء الثانية عشرة.

كانت حكاية المحطة المركزية في تل أبيب تتصدر النشرة، واتجهت العيون كلها وكأنها بنابض دقيق إلى الأمام والوراء واليسار واليمين وصنعت فوقي سحابة غليظة من الحقد والتساؤل والتحدي، وانكمشت في مكاني لكني قطعاً لم أنكمش مثل القطة المتحفزة. كنت أريد أن أتحول إلى شيء صغير لا يرى بالعين المجردة، على الأقل العين الحاقدة.

في هذه اللحظة توقفت سيارة الباص، ولم أعرف كيف تحول الركاب كلهم بلا استثناء إلى جنود. من أين استخرجوا كل هذه الكمية من المسدسات.. وكلها مصوبة إلى الاتجاه نفسه؟

تفتقت الذاكرة بصورة مدهشة، واستخرجت من سطحها وأعماقها صوراً مكثفة. باص قد جعل هدفاً للرماية على مشارف تل أبيب، باص آخر يحمل رقم ٣٠٠ يتجه إلى الجنوب، عربيان في عكا، صحراء سيناء، نهر الأردن، الحولة، معبر الناقورة، اتجاهات متشابكة، خيوط مترابطة، بيروت، مخيمات، طائرات، أطفال..

وهبط على نفسي شيء بارد، لامبالاة، لا أعرف من أين ينبع. لم يبق للخوف أثر. هان كل شيء، ولحظة المواجهة على بعد لحظات.

قلت في نفسي: أنا بين اثنتين كلتاهما النار، وأهونها الموت.

أما أن تتكرر المأساة الغلطة.. فلا. □



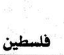
رجال ونساء

أحمد هيبي

الفراق

■ عندما كانت تلميذة عنده أحبّها حُباً جارفاً. ترك الفصل يغرق في الضوضاء وتبادل مع عينيها نظرات طويلة تشبه التنهدات الحادّة وتقوم مقام الرحلات القصيرة إلى حضن الطبيعة خارجاً. ولّما كان لا بُدّ أن يفترقا فقد افترقا هكذا: جاءت إليه تقول له إن أخاها وأمها غير راضيين عمّا بينهما من نظرات طويلة في غرفة الصف، فافترقا لأنه لم يكن أسهل من الفراق في تلك الأيام.

وبعد مضي سنين عديدة أرسلت له من يقول إنها ما زالت تحبه، وإنها تريده إلى جانبها وقد أصبحت امرأة ناضجة، وأن أخاها قد سافر إلى بلاد بعيدة وأمّها العنيدة ماتت من زمان. فأرسل لها من يقول: ابحثي يا صغيرتي عن رجل مناسب بشوارب قصيرة وثياب مُعطرة، أما أنا فقد اقترنت بامرأة تكبرني سِنّاً وتفوقني إدراكاً بحقائق ◄



الحياة، وهي تنظم لي أوقاتي، وتشتري لي الثياب التي أرتديها وتنظم لي أفكاري على أحسن ما يكون، وهي في طريقها لإنجاب الأولاد. ولما كانت قد قرّرت أن تحبه إلى النهاية فقد سمعت كلامه وتزوجت بشاب آخر، أحمر الشوارب، وسافرا إلى بلاد بعيدة وراء البحار.

وبعد ذلك، عندما خرب عالمه، ونكّلت به المرأة التي تشتري الثياب وتنظم الأفكار، وبدأ الأطفال الذين أتى بهم إلى حيّز العالم يضيّقون عليه، غاب أوقاتاً طويلة عن البيت، وصار ينظر في الشرفات العالية ووراء جدران المدارس بحثاً عن فتيات بحجم تلميذة صغيرة تتبادل النظرات. ولما كانت المدارس قد أقفرت والشرفات لا تمطر فتيات، فقد تعلّم هواية جديدة ظلّ يمارسها في شيخوخته: كان يرسم تلميذات بثياب المدرسة يتأمّلن رجلاً واقفاً أو جالساً عند زاوية الشارع. وفي اليوم نفسه الذي مات فيه، وكان هذا يوماً بارداً وقاتماً، أخرجت المرأة، التي اشترت الأكفان ونظمت الجنازة أحسن تنظيم جميع صناديق الأوراق التي كان زوجها يحتفظ بها، ونظرت بفزع إلى الوجوه الفتية وهي تطالعها من بين الأوراق. كل هذا حَدَث قبل أن تسكب الكاز فوقها وتحرقها عن آخرها.

الهاتف

اتصلت به بالهاتف وقالت له: «ألا تعرفني؟». فتمهّل قليلاً وقال: «وكيف لا أعرفك؟ وهل أعرف أحداً غيرك من النساء؟، ولكن قولي لي: من أين أعلم أن التي تتكلم هي أنت، ومن أين لي أن أعرف أن حظّي العاثر قد تحوّل عني الآن؟ وكيف لي أن أجزم في مثل هذه الأمور الدقيقة في مُكالمة تلفون؟». عندها أغلقت السماعة ساخطة، وظلّ هو واجماً، قليل الأكل، فاقداً الشهيّة إلى أن اتصلت به بعد يومين وسمعها تقول: «أما عَرَفتني الآن؟ ألا تقدر أن تميّز صوتي. وأنا عرفت صوتك منذ الكلمة الأولى التي نطقت بها؟». فقال: «بل أعرفك جيّداً، وأقدر أن أميّز صوتك من بين جميع أصوات النساء في العالم، بل لا أقدر أن أميّز غير صوتك من هذه الأصوات، ولكن ألا ترين ما أنا به من التوتر والانشداه بسبب أنك تتكلمين إليّ؟». عندها أسقطت غاضبة سمّاعة التلفون من يدها مرة ثانية دون أن تضيف كلمة إلى ما قالته، إلى أن مضى أسبوع آخر رنّ فيه الهاتف مرّة واحدة فرفع السماعة، وسمعها تقول: «إنك لا تعرفني، ولا تستطيع أن تميّز صوتي، وقد نسيت اسمي وفصلي، وعندما أتحدّث إليك تخونك قواك، فوداعاً».



اللقاء

لقيها في المدينة في طرف السوق، عند دكان نائية للأواني. كانت جميلة لا تزال وكان جسدها كالثمرة الملفوفة بورق رقيق. وفكّر أن السنين التي جعلت تحطّمه وتحوّله إلى كوخ خرب ما زادتها إلا جمالاً وفتنة، فقال لها: «هل صحيح أنك تزوجت ذلك الشاب ذي السيقان العالية كساقي اللقلق، والذي كان يسير في فناء المدرسة كالعصفور الذي اقتلعوا ذيله؟»، فقالت ضاحكة وقد أعجبتها جسارته وصراحته: «صحيح ما قيل لك، ولكنك ربما لا تعرف أن ذلك اللقلق قد جعلني أميرة قلبه وملكة قصره ومفتاح أيّامه، إنه ما زال يشفق على قدمي من قسوة الأرض ومن خشونة المصاطب حتى فرش المكان بالحرير وزيّن الجدران بالفرو الثمين».

فأجاب قائلاً: «أمّا أنك ملكة قصره فهو شيء لا تُحسدين عليه، لأنه قصر عقيم، ولأنه قيل للحكيم الأفضل أن تكون رأساً للثعلب من أن تكون ذيلاً للأسد، وأمّا أنك أميرة قلبه، فلا أدري إن كان - من دون الناس - يملك قلباً، أو يعرف في أيّ جهة من صدره يقع هذا القلب. أما قولك إنك مفتاح أيّامه، فأود أن أسألك متى كان للخرائب المهدّمة مفاتيح؟ وما حاجة الأبواب الصّدئة إلى أقفال، وهي أحوج إلى مطارق ثقيلة تحررها من الصدأ وتجعلها، ربما بعد جهد، تتحرّك قليلاً فوق محاورها حركات قليلة؟».

فردّت عليه قائلة: «ليست العبرة في البوابات في كونها تفتح وتغلق لكل طارق، ولكن في كونها تغلق على الذين يقيمون، في أمان، وراءها».

فقال لها مازحاً: «كيف الدخول إلى قصرك المُنيف، وهل هناك بوّابة خلفية أو سرداب معتم، يوصل الأشقياء أمثالي إلى الداخل، حيث تقيم أميرة القصر؟»، فقالت وقد كفّت عن الابتسام: «لا مكان للأشقياء في عالمي الصغير، وقد استغنيت عن محبّة الرجال بمحبة الملائكة والصالحين، وأغنتني الكتب المقدسة عن رسائل العشاق، أما في حديقتي فأزرع الزهور التي تنمو وتعلو وتجف دون أن يمسّها أحد». فقال لها: «وما الغريب أن يتركك جنونك زهرة جافة في حقل مالك الدار ذي الساقين الرفيعتين؟ وما الغريب أن نقترح على السجين القديم الهرب ونوفّر له سُبل النجاة فيرفض؟».

عندها رفعت عينها إليه وقالت: «كيف أهرب من رجل صالح هو موظف في البنك، ولو شئت أن يفرش لي الأرض ذهباً لفعل وهو مرتاح البال»، فقال لها: «ما فائدة أن تعيشي في الأسطورة ولا تقومي إلا بدور تمثال الرّخام القاعد في باحة القصر». عند ذلك سكتت واجمة فقال لها وهو ينصرف: «لقد تكلّمت بجرأة بالغة بحق الرجل حتى كدت أنسى أنك تشربين من مائه، وتتنفسين غباوة أفكاره، وترقدين في ليالي البرد الطويلة بين تقوس ساقيه، إن الزهور التي لا تقطف، لعلمك، تصبح جزءاً من الأرض حتى قبل أن تركن رؤوسها وتشرّدها الريح والأتربة».

حجارة الدار

قالت له: أحبني، فأحبها. قالت له: التصق بي، فالتصق. قالت: اجر ورائي كما أجري وراءك، والهث كما ألهث، وعاتبني كما أعاتبك، واكتب لي رسائل مطوّلة كتلك التي سمعتُ أنك تكتبها لأني أحب قراءة الرسائل والناس نيام، وتلهب خيالي كلمات العشق وأفكار المحبة. فجرى وراءها، وأخذ في عتابها، وقضى أياماً وشهوراً في كتابة رسائل مطوّلة ضمّنها كل حكمته وتجاربه السابقة، وأودعها كل ما عُرِف عنه من ذلاقة اللسان وحسن التعبير، حتى أنها شوهدت مراراً وهي تبكي وتكفكف دموعها كُلما وصلتها رسالة منه.

وفي يوم من الأيام قالت له: «جاء من يطلب من يدي». فقال لها: «مستحيل، حتى حجارة داركم تعرف ما بيننا»، فقالت له: حجارة دارنا لن تقرر مصيري ولكن أبي يقرر»، فقال لها: «ألا تخبره أمك؟»، فقالت له: «إن العريس من طرف أمّي»، فقال لها: «وما العمل إذن، أم جئت تقولي ألاّ أمل؟». قالت له: «بل تعالى قابل أخوي وتحدّث مع أقرباء العائلة».

وبعد أن قابل الأخ الكبير والأخوين الصغيرين كلاً على حدة، بعث لها من يقول: «ابشري، أخوك الكبير معنا». أمّا هي فقد أرسلت له تقول: «لا تخطىء. أخي الكبير صديق حميم لعريسي



المرتقب، ولكن لا تيأس، اذهب إلى أعمامي وتحدّث إلى أخوالي. هناك واحد بينهم تتحدث إليه أوّلاً». وهكذا لفّ عليهم واحداً واحداً: الأعمام والأخوال والعمّات والخالات، ومسك بكل طرف خيط يُمكن أن يُمسك، ويوم بدا له أن الأمور تجري في صالحه، وأن الذين يهزون رؤوسهم أكثر بكثير من المطرقين الذين لا يحيرون جواباً نهض باكراً، والشمس لا تزال تخرج من بين الأزقة والحارات وترك الريح الشرقية العاتية تسوقه إلى بيتها. لم يحسب حساباً لكلب الدار الذي سمع الكثير عن شراسته من الذين تبسّطوا معه في الكلام، مُعتقداً أن كلاب الدار إنما تودّ من يود أصحابها. ولكنه عندما وصل إلى الحدّ الذي لا يستطيع فيه بعد أن يقترب أكثر دون أن يفكر مُجدداً بالكلب، أدرك ما خانته حتى الآن أذناه في ادراكه: أصوات زغاريد النساء وجلبة المحتفلين بالعروسين الجديدين اللذين لم يُدع لم عُرسهما.

الفتاة الرقيقة الصافية

كانت في السّنة الأولى في المدرسة عندما عَرَفها، وكان هو في السّنة الأخيرة. كانت رقيقة وصافية كغيمة صغيرة بيضاء، انتظرها في الاستراحات، ووقف في طريقها مُتعمداً، وقال لها بكل لغة، ما عدا اللغة العربية، إنه يحبها، وكان يخيّل إليه أحياناً أنها تقف وراء الممرات وتنتظره. ولما كان صديقاً لأخيها فقد قال له مازحاً: «ليست هذه من بنات الأنس بل من بنات الجن الأزرق». ومن يومها صار ضيفاً دائماً في بيتهم، عبد حجارة دارهم، وأحب حتى الكلب الذي ينبح في قاع الدار، وتذكّر بعيداً دقات ساعة الحائط خاصتهم وهي تنذره بالوقت. شاركهم أفراحهم وأتراحهم، وتمنّى لو كان واحداً منهم إذن لاستطاع أن يبقى معهم ملتصقاً بهم. في الليل كان يستفيق، إذ يكون نائماً عندهم، ويرفع الغطاء لينظر في المدخل المظلم حيث يمكن أن تظهر هي فجأة أو تمرّ من جانبه. ولكن عندما تزوّجت لم يفطن إليه أحد. أخذها الناس ـ هكذا قال له من كان حاضراً ـ في طابور عظيم من السيارات الصاخبة التي كان عليها أن تتسلّق الجبل. وهناك في تلك القرية الوادعة على سفوح الجبل أنجبت جيشاً صغيراً من الأولاد الذين ما كان يمرّ بهم مَرّة حتى يقول في ذات نفسه: كان يمكن أن يكون هؤلاء أولادي. □

حراس الفضيلة

في قيظ أيلول عَرفها. التقيا في المدينة بعد أن فعلت وسائل الاتصال المتاحة لسكان المُدن فعلها. قال لها: «كأنما أعرفك من مئات السنين»، فردّت عليه ضاحكة: «كم امرأة تعرف من مئات السنين؟». خرجا إلى البراري. ناما فوق الصخور، واختبآ بين أحجار الوادي. وفي الغابات تكلّما لغة الصنوبر، وهناك انتقلا من ظل إلى ظل، ومن مخبأ إلى مخبأ لأن العيون كانت متيقظة جداً في المدن، و«حراس الفضيلة» كانوا منتشرين في كل زاوية. قالت له: «أحبّك، ولكني لا أستطيع أن أستمر هكذا في النور، كنت أستطيع أن أحبك أكثر في الظلام وعلى الوسائد الطريّة، أمّا أشعة الشمس فتؤذي عيني»، فقال: «أستطيع أن أطفىء لك الشمس، وأن أجعل لك من دونها حجاباً، وأن أحوّل الظهيرة القائظة إلى عتمة مُكدّسة في الأركان وإلى ليل مُنتصف»، فقالت بدورها: «أليس أسهل لك أن تقول لي: أغمضي عينيك، أو ادفني رأسك في الرمال؟»، فقال مُحتجاً: «بل بطرق بسيطة ومتعارف عليها أستطيع أن أحلّ الظلام محل النور، كأن أسكب بيدي هاتين ماءً فوق قرص الشمس المشتعل، أو أغطي وجهها الناري بحصيرة أملكها، أو ألوّح بعصا قصيرة عندي، تصنع العجائب بوجهها، فتتراجع هي مذعورة إلى ما وراء الغيوم وإلى ما خلف الأفق المرئي». عندها قالت ضاحكة: «أرجوك ألّا تفعل، وإلا ضلّ أولاد المدارس طريقهم إلى بيوتهم، وتعطلت حركة المرور في الشوارع، وعمّ الخراب أرجاء المعمورة التي تربطنا بها أواصر القربى والانتماء لا تزال. ويكون حالنا بعد ذلك كحال من يقتل جملاً لكي يوفّر عشاءً لابن آوى». □



قبل فنجان القهوة

حزامة حبايب



■ حدث ذلك لخليل الصالحي قبل فنجان القهوة:

أثاره الرأس الأخضر الصغير.. العينان زرّان أحمران صغيران، والشعر برتقالي كثيف من خيوط النايلون المجدولة. إمتد من العنق البلاستيكي قضيب خشبي بلون أخضر فسفوري، انتهى في سن مدبّب. حمله بفضول غريب. ما هذا؟! حتى أقلام الرصاص أصبحوا يصنعونها على هيئة دمى؟! وأية دمى؟!

تبعثرت على ظهر المكتب الأبيض الصغير دراجة بلاستيكية زرقاء بحجم الأصبع ورباط عنق زجاجي وقطعة شكولاته مطاطية ودبابيس برؤوس كروية ملونة.. قلبها بين أصابعه.. ضحك.. إذن فالدراجة البلاستيكية مبراة، ورباط العنق مشبك للأوراق، وقطعة الشكولاته ممحاة!

ضحك مرة أخرى..

دنا خليل من المكتب الصغير. رائحة الغراء المستخدم حديثاً ما زالت عالقة به. اتصلت بيمين المكتب طاولة بيضاء تربعت فوقها الآلة الطابعة الجديدة.

اقترب من الطابعة الضخمة بعد أن تأكد أن لا أحد يراقبه. يا للتعقيد!! ما حاجتهم إلى كل هذه الأزرار؟! أزرار كثيرة ودقيقة تزاحمت بالقرب من بعضها. الزر نفسه يحمل ثلاث قراءات..

حرف الألف باللغة العربية، وحرفا الألف باللغة الإنكليزية، حرف كبير وآخر صغير. ولكن هنالك قراءة رابعة على نفس الزر. ما هذا؟ آه. إنها علامة تعجب. أتراها بالعربية أم بالإنكليزية أم أنها مشتركة؟ ليجربها. كانت الورقة ملفوفة حول الإسطوانة السمراء. انتبه إلى أن الطابعة موصلة بسلك كهربائي. ضغط بإصبعه على الزر، فتحركت الورقة عشرين سنتيمتراً إلى اليسار. فزع. بدل أن يطبع «أ» واحدة ظهر على الورقة ااااااااااااااااا. يا إلهي! خمسون «ألفاً»! من أين جاءت جميعها؟ إنه لم يضرب سوى «ألف» واحدة.. فمن أين أتت الخمسون؟ من أين؟! من المحتمل أن يكون هنالك خلل ما في الآلة.. أو في الزر نفسه. أو.. فيه هو! لم لا؟ لعله ضغط بقوة أكبر مما ينبغي. إنها آلة حساسة على ما يبدو، أزرارها تعمل بالكهرباء. ولكن كيف يستطيع أن يطبع حرف الألف الإنكليزي؟! ثم هنالك حرف صغير وآخر كبير! إنه يعرف أنه لطباعة الحروف العربية يجب أن تكون ذراع الآلة في أقصى اليمين. فهل يجب أن يحرك الذراع إلى أقصى اليسار أولاً لطباعة الحروف الإنكليزية؟ حسناً.. ولكن كيف؟ ثم هل يكفي تغيير الذراع وحدها لتغيير الحروف؟ لا.. لا يكفي.. لا بد من أن هنالك زراً خاصاً يقلب الحروف العربية إلى أخرى إنكليزية وإلا لما وُجدت حروف مختلفة للغتين مختلفتين على نفس الزر! ولا بد من أن هناك زراً خاصاً لكل قراءة من القراءات الأربع.. أي أن للزرّ الواحد أربعة أزرار.. زر لكل قراءة! زر للألف العربية.. وزر للألف الإنكليزية.. وزر لعلامة التعجب.. وزر لـ.. ولكن أين هذه الأزرار اللعينة؟ أين؟! فتش بعينيه جيداً.. لكن الأزرار كثيرة.. وصغيرة.. و.. و.. كثيرة! آه. وضع يديه فوق رأسه. صداع وزغللة. إنه لا يفهم شيئاً.. لا يفهم شيئاً.

ضرب المكتب الأبيض بعصبية. اهتزت الدبابيس الملونة والدراجة البلاستيكية ورباط العنق الزجاجي وقطعة الشكولاته المطاطية. منذ ثلاثين عاماً لم يكلفه الأمر كله سوى بضعة قروش اشترى بها كتاباً خاصاً بتعليم الأسلوب الصحيح في الطباعة. كانت لديهم في البيت طابعة جيّدة.. قديمة ولكن جيدة.. نظفها، واشترى لها شريطاً أسود عوضاً عن الشريط القديم. واستطاع خلال شهر أن يكشف أسرارها المتواضعة: الاستخدام الصحيح لأصابع اليد وتركيب شريط التحبير وتزييت الأجزاء المتحركة أسبوعياً. لم تحتج منه أكثر من شهر.. أي والله! أما هذه الحشرة العملاقة بتوصيلاتها الكهربية وأزرارها التي كعيون ذباب مضيئة، فيلزمه سنوات لفهم وظائف وأسرار الخمسين زراً فيها. ولكن ما حاجتهم إلى آلة جديدة على أية حال؟! أما كانت تلك التي على طاولته تفي بحاجات المكتب المحدودة؟ لقد اشتراها الأستاذ عبد الكريم منذ خمسة عشر عاماً.. أي منذ تأسيس المكتب نفسه، وظلت وفية بالتزاماتهم، ولم يحدث وأن خذلتهم أبداً. فماذا جدَّ عليهم حتى يفكر الأستاذ عبد الكريم بشراء طابعة بأزرار لا ضرورة لها؟! إنها مضيعة للفلوس لا أكثر ولا أقل.. مضيعة للفلوس.. ومضيعة له هو! ولكن.. أينتهي كل شيء عند الطابعة؟ أم أن الطابعة بداية لكل شيء؟!

أمس.. وقعتْ أناملها على الأزرار الدقيقة كحبات أرز تتساقط بسرعة فوق صحن زجاجي. ما أن يبدأ السطر معها حتى ينتهي في نفس اللحظة. كان هو يحاول طباعة أحد التقارير على طابعته الهرمة، عرضتْ عليه طباعته بنفسها على طابعتها الأوتوماتيكية فرفض. لكن حبات الأرز كانت سريعة.. غزيرة كما المطر، حشت أذنيه وعينيه ثم سقطت فوق أنامله فتاهت عن أمكنتها حروفه.. ضاعت فوق الورقة، شطر القِدم أنصاف بعضها ولم يجمعها خط مستقيم! حروف إلى أعلى وحروف إلى أسفل.. وحروف لا هي إلى أعلى ولا هي إلى أسفل! وحبات الأرز أسرعت أكثر. كان شريط التحبير يلتصق بالورقة حيناً وبالحرف الحديدي حيناً آخر. وفي كل مرة كان خليل يزيحه بأظفره؛ يلحس آثار الحبر الأسود التي قد تعلق برأس أصبعه ثم يعاود الكرة من جديد. أنامله جبلت بالنشاء.. غدت بطيئة. تصمغت فوق الحروف المتحللة. بدأ يعرق. حك أذنيه الساخنتين بشدة. انبعث منهما حرارة وصفير آت من داخله.

ازدادت سماكة الغبش فوق عينيه. وشيئاً فشيئاً لم يعد يُبصر أو يسمع. حبات الأرز دفنته تماماً. وأخيراً فرَّ السطر خارج الورقة. آه.. لقد نسي أن يضبط الهامش الأيسر. ضرب على المفاتيح الهرمة بكل ثقله. كيف ينسى أن يضبط الهامش الأيسر؟! بعد كل هذا العمر وينسى؟! هو.. خليل الصالحي ينسى أمراً تافهاً كهذا؟ لا يصدق! سحب الورقة بغضب. جعّدها بكلتا يديه وقذفها نحو الحائط. عرضت عليه للمرة الثانية طباعة التقرير بنفسها، فرفض للمرة الثانية.. وخرج.

لماذا أمس؟! أمس بالذات.. لماذا خذلته؟! من دون الأيام كلها تختار هذه الحروف اللعينة أن تحرن أمس.. وأمام من؟! أمامها هي؟! أما كانت أجّلت عنادها ولو قليلاً؟

لربما.. لا! مجرد التفكير في هذا الاحتمال يخيفه. فرد كفيه في الهواء. مطّ أصابعه العشر. إنها ثابتة. لا أثر لرجفة فيها. رفع أحد الملفات الملقاة على طاولته وشد عليه بأصابعه.. أصابعه العشر. لم يهتز أو يقع. كان يشد على الملف بأصابعه.. أصابعه العشر.. كما لو كان يخشى أن تطيره ريح غير مرصودة. إذن فأصابعه أمس كانت ثابتة.. تماماً كاليوم. ألقى الملف على المكتب ثانية ودفن كفيه في جيبيه بسرعة وأكد لنفسه أن أصابعه ثابتة.

والآن.. سافر الأستاذ عبد الكريم بعد أن أوصاه بتدريبها على أعمال السكرتارية الخاصة بالمكتب. إن خليلاً لا يجد سبباً واحداً لتعيينها.. ثم إنها طفلة. أقلامها.. ممحاتها.. مبراتها.. كل حاجياتها مضحكة. قابلها خليل أول مرة منذ أسبوع تقريباً. ظن أنها دخلت المكتب بطريق الخطأ. لم يحمل جسدها التائه تحت ملابسها الواسعة أدنى صفة عن كونها امرأة، لا ارتفاعات فيه ولا انخفاضات. أحرف طابعته فيها ارتفاعات وفيها انخفاضات. انفرجت قدماها عن خطوات متباعدة. تأكد حينها أنها لا بد من أن تكون صغيرة.. وأصغر مما توقع، فالفتاة - الفتاة المرأة - تحرص أن تلملم قدميها في أثناء المشي.. تتلكأ أطرافها وتتراخى حتى في أحرج الساعات. على قصرها لم يقف حذاؤها على سيخين كموضة بنات جيلها. يذكر يكف انحشر كعب حذاء عليّة بنت الخياطة بين قضبان بالوعة الشارع و.. ما الذي ذكّره بعليّة الآن؟! منظر عليّة كان مضحكاً.. خصوصاً لما انثنت تشد الكعب المخنوق من بين القضبان. لماذا تذكر عليّة؟ والآن؟!

عيناها كانتا واسعتين أكثر من اللاّزم. لم تنتظر أن يسألها خليل عمّا تريد، فبادرته قائلة:

- دبلوم سكرتارية وعلوم مصرفية بامتياز.

و.. تعينت.

في البدء رفض خليل النظر في طلبها.. إلا أن الأستاذ عبد الكريم أصر على تعيينها، فهو المدير أولاً وأخيراً، وخليل رضخ.. بصراحة، الأستاذ عبد الكريم محق، فخليل في الأونة الأخيرة أصبح ينسى كثيراً. زوجته تؤكد أن من ينسى أن يملأ أسطوانة الغاز ينسى بعدها اسمه، وخليل نسي أن يملأ اسطوانة الغاز مرتين.. مرتين فقط! لكنه كان معذوراً في كلتا المرتين.. فالمرة الأولى كانت لمّا.. ما علينا!

وخليل يفهم أن ما يقوم به الأستاذ عبد الكريم لمصلحة المكتب. لقد أفهمه أنّ مكانه محفوظ ولن يتغير عليه شيء. كل ما في الأمر أنها ستخفف عنه جزءاً من العبء الذي يتولاه وحده. تقول خبرة! ها! أية خبرة هذه مع ذيل الحصان الذي ينطّ أعلى رأسها والغرّة القصيرة المتهدلة فوق جبينها! إذن فخليل يظل خليلاً! الأستاذ عبد الكريم قال إن خليلاً يظل خليلاً ومع ذلك خليل يشعر بأنه شاخ فجأة.. شاخ دون تمهيد! كان أجدر بالأستاذ عبد الكريم أن يرسل له إخطاراً رسمياً بذلك. والله فكرة مدهشة!

«حضرة الأستاذ خليل الصالحي...

نحيطكم علماً بأنه من تاريخه قد بدأتم تشيخوووووون!»

مرّر أصابعه فوق المفاتيح الثقيلة، ثم مررها فوق وجنتيه وانحدر إلى رقبته. ضغط على اللحم الرخو ثم مطّه ثم جعّده.. ثم مطّه ثانية. قريباً جداً سيصبح مفتاحاً هرماً لا ينفع معه التزييت. من قال إن خليلاً يظل خليلاً؟! من الأفضل أن لا يطبع اليوم شيئاً، فالأحرف كبرت يوماً كاملاً عن أمس. وهو كذلك.. كبر يوماً كاملاً عن أمس! ومن الأفضل أيضاً أن يخرج قبل أن تأتي وتراه في هذه الحالة ولكن قبل أن يخرج سيحسم الأمر نهائياً مع نفسه ومعها ومع الأستاذ عبد الكريم.. سيستقيل.. والآن! لن ينتظر عودة الأستاذ عبد الكريم من سفره حتى لا يثنيه عن قراره.. يجب أن ينهي كل شيء حالاً. همّ بالجلوس إلى طاولته الذائبة إلاّ أنه غيّر رأيه وجلس على مكتبها الأبيض. هو نفسه استغرب فعلته هذه.. استهجنها بعض الشيء. لم يجد تفسيراً لها في عقله الظاهر. ربما رغب في أن يستعير إحساساً آخر.. جديداً عليه.. لم لا؟! أخرج قلمه الجاف من جيب قميصه وتناول ورقة بيضاء من على المكتب وشرع يخط استقالته:

«حضرة الأستاذ عبد الكريم منصور.. مدير مكتب المنصور...

أرجو أن تتفضلوا بقبول استقالتي بسبب..

توقف. ما هو السبب؟ أيقول لسبب شخصي؟! ولكن الأستاذ عبد الكريم لن يقتنع. لا بد من توضيح سبب معقول.

طالعه الرأس الأخضر باسماً. وضع خليل قلمه جانباً وتناول القلم الفسفوري ذا الرأس الغريب. منظره غريب حقاً. لكنه ليس بشعاً. كتب اسمه أعلى الورقة «خليل».. فككه «خـ ل ـيـ ل».. وفككه «خ ل ي ل».. ثم لحمه «خليل».. ربطه جيداً «خليل».. مطّه «خــليــل». إنه قلم رصاص عادي كأي قلم آخر. أكمل به عبارته الناقصة فكتب: «بسبب الرأس الأخضر!» هنا.. ألقى خليل القلم على المكتب وضحك.. ضحك عالياً.. كحّ.. بصق.. كما لو قرأ نكتة. الأمر كله نكتة. خفت ضحكه تدريجياً. نظر إلى الطابعة الأوتوماتيكية. اقترب منها بحذر. كانت الورقة لا تزال ملفوفة حول الإسطوانة. أيحاول مرة ثانية؟! يخاف أن... على أية حال محاولة واحدة لن تضر. نظر إلى زر «الألف». رفع سبابته في الهواء. اقترب من الحرف ببطء، وبالكاد لامس أصبعه الزر حتى ظهرت على الورقة «ألف» واحدة. هكذا يجب أن تكون الأشياء. الحركة الواحدة تعني حرفاً واحداً. اللّمسة الواحدة تعني «ألفاً» واحدة لا ألْف «ألِف». هنا.. المعادلة صحيحة.. ومفهومة. فقط السر في اللمسة.. في شكل هذه اللمسة.. واللمسة فيه هو. فيه هو اللمسة!

قرأ خليل ما كتبه ثانية.. «بسبب الرأس الأخضر»، ضحك للمرة العاشرة. جعّد الورقة ورماها في سلة المهملات.. رماها للسبب نفسه: الرأس الأخضر.

يحتاج الآن إلى فنجان قهوة! □







كانَ رجلاً حقيقياً

عاليه محمد شعيب




- ١ -

كيف ظهرت في حياتي. ولماذا. . ؟
لماذا
في هذا
الوقت المحدّد؟
الآن . .
بعد أن اعتدت هذا النمط البليد من الحياة؟

الآنَ. . وقد تخدّر شعوري، صار خيوط صوف عفنة. . صرت **قطعة مطاطيّة من الصدأ؟**

مـا زال يلتصق بالـزجاج البـارد. في البنايـة المقابلة تتـأجّج رؤى خالصة العـذوبة في جسد احداهن وهي تتحدّى شره عينيه يغترف ويتذكّر:

أول يـوم دخلت فيه عـليّ للمرة الأولى، كيف اخـترقتني البروق؟ كيف مشت كـل الأشجـار ودخلت صـدري وأنـا جـالس مكـاني؟ (شعرك الغجري. عيناك الواضحتان. هيئتك البـريئة). حـاولت أن أفلت لكني انكسرت. وكان! والآن: أين أنا. . أين أنت؟

لم يعد يطيق النـظر إليها. صـارت مثل سـوط ساخن يتمـرّغ على صدره وظهره. أغلق النافذة. رآها حين أغمض عينيـه تفتح النـافذة فتبدو كاملة مشعّة ندية. صرخ عربها: كيف تجرؤ؟

ارتمى على فراشه. من أجمل منه؟ من أبهى من الرذاذ العطر الذي ينشقق عنه جسده إذ يكون؟

- ٢ -

«هل أنا مجنون؟».
همس له خشب الفراش: بل الأبهى والأنقى.
«هل أنا معتوه؟»
عتف حرير الغطاء: بل كن حقيقة أمام ذاتك وليحترق العالم.
فعل.

أشعل عود ثقاب عند النافذة المشرعة. رماه في الهواء، وأغلقها. رأى العـالم يحترق في داخله. النـاس تحـترق ثيـابهم في الشـارع ويصرخون. ابتسم. أسدل الستارة تماماً. بدأ في خلع ثيابه. نبتت أشجار صغيرة عند كل زاوية في الغرفة. تداخـل في اضاءات المرآة تعلن: امنحني من خصوبة الطين في لحمك لأتجدّد.

تنفس بعمق، وشدّ ذراعيه زارعاً أصابعه في كفيه: «إني أتحقّق».

نبتت الأشجـار أكثر قليـلاً: هيا اجعـل روح البلور فينا يسرد لنـا حكايات طفولته. حقّق الأنوثة في براعمنا.

ثبّت عدسة الكاميرا على الفراش جيدا، وبدأ:

جعـل لهاث الحرير أسفله ينحت حقـولاً شاسعـة الاخضرار وهو ينغرز أكثر فـأكثر. سـال مسك عـلى أرض الغرفـة. نسج في صـدره عينيها وفي رأسه رائحتها إذ كانت تتداخل في مساماته المشرعة وتخيط وجودها فيه. وتحقّق!

انتشرت رائحة عنبر في الغرفة.

تشقق السقف. تناثرت من أحداقه فتات ياسمين غطّت الجسـد المتعب. كان رجلاً أمام نفسه: يكفي هذا.

- ٣ -

جلس على طرف الفراش يرتاح.

تذكر حين كان يجلس هكذا وهي تسير نحوه عاصفة من ورد وهو يفتح ذراعيه: «ادخليني!».

لم يستطع أن يكون أمامها. كانت نبضات قلبه تدق لـه الطبـول: «انتبه. تذكر». وكان ينهض عنها ويفتح نـافذة الـذل ويتنفس. غمر وجهه عند فخذيه. بكى.

لماذا أستطيع أمام نفسي وليس أمامها؟

لماذا معها. . لا أتحقق. . لا أكون؟

نهض نحو آلة التسجيل. أعاد الفيلم وأداره. جلس يتفرّج.

قالت له الشجيرات تداعب دموعاً تنفس عنها الجلد الأسمر:

مثل وردة كبيرة أنت
أنت الرجل الوحيد في العالم
وحدك تشعل النار في أحشائنا
وحدك تُزهر لك فروعنا إذ تبلّل الجذور بمائك الخالص.

عاد الحرير يغازل الجسد الهرم: هيا تحقق.

مـدت الخيوط أنـاملها النـاعمة. جلست الأشجار تتفرج، وهـو يبتكر عاصفة الذكورة الحقة وحده خلف الباب الموصد. كـان رجلاً حقيقيّاً. □

لبنان

كم كنت شهياً!

شارل شهوان

■ كان الشاب مسجّى على سرير خشبي ضيّق تحت لمبة نهارية فعلت في الغرفة الواطئة حفيفاً بطيئاً مضنياً كتحليق ملاك للموت. صدره الباهت يمتدّ عارياً مترامياً ميتاً مثل عينيه المغمضتين وفمه وذقنه. النسوة كثيرات ولا بكاء ولا وجوه وكأن ما يحصل يومي اعتيادي، وكأن عيونهنّ الواسعة الهائلة تزور وحدها هذا الموت. الأنات المكتومة سمعتها قليلة ومتباعدة كما لو من أرحامهنّ. كنّ يلدنه تباعاً، كنّ يضعنه مكان الصمت قابلة الموت. وقفت في الزاوية على مقربة من الباب. الستائر الحمراء القانية انهمرت مثل قطع بكاء متدفق صاخب ارتفع وحيداً مضنياً. قبيل وقت كنت واقفاً أو منحنياً عند مرتفع ترابي حيث شجرة ضخمة باسقة، أحرّك بقصبة قصيرة ناراً صغيرة أشعلتها. دخان النار تلك ارتفع مستقيماً أمام امتداد الخليج الطويل والعمارات الكثيرة الملاصقة للبحر. عند نهاية ذاك الصيف ذاك اليوم رأيت النور الذي تركته الظهيرة، رأيت عظام ذلك النور. كان انبرى هادئاً راكداً مثل رماد ملاءة بيضاء فوق كل ما هنالك. فوق عيني، فوق النار. رأيت هذا قبل أن عرفت بموته، قبل أن ولدت كلمة موته. وحيداً كان جسد صديقي الصغير. بارداً خجولاً لا قدرة له على النهوض. وبقيت النار والنور كما هما ولا ريح، وعيناي تشعان تتسعان وحجبتا وجهي. في صبيحة ذاك النهار باكراً فجراً سمعنا طلقات كثيرة وسكينة فجوة عظيمة فوق العمارات والامتداد. الراديو بعث أصواتاً مائعة غير واضحة وفهمنا. السيارات لم تخرج وكذلك الرجال. أحد لم يحدس النهار. وحدث ليل فاقد العتمة. ليل مريض دون لون.

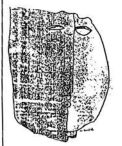
من نافذة منزلنا المنخفض رأيت الطريق. النافذة شاهقة حجبت نصفها الأباجورة المغلقة. الحيّ الحجريّ الضيّق المقابل بدا مهجوراً، وكانت ملامح رياح لم تحصل أبداً. بين الفينة والأخرى عبرت شاحنات محشوة بالمحاربين. وجوههم تركت في الهواء أثراً سائلاً شبيهاً برغوَة دبقة بماء غثيان. عبر الفجوة الطويلة كنت أرى تحليق ذلك الأثر. في الجانب الآخر النافذة المطلة على الطريق المؤدي إلى المنزل. هناك رأيت للمرة الأولى غباراً بارداً مثلجاً.

في هذا الوقت لا أزال واقفاً قرب الباب وتابعت أمّه لا تبكي. حملَتْ رأسه قرب صدرها بين ذراعيها. اقتربت امرأة شابة وقبّلت يده. شفتاها بلون الملاءة، وبقيت تداعب يده. أمّه نظرت إليّ. تابعت تنظر في عينيّ. ولم أجرؤ على البكاء. لم يجرؤ أحد على البكاء.

بعد وقت طويل كبرت، صرت شاباً قوياً. نهضت عند الفجر. أزحت الملاءة، ونظرت إلى جسمي الضخم المليء والمكسو بالشعر الأسود الكثيف. نهضت ممسكاً عضوي الكبير المرتخي ومرّغته في الاتجاهات. الفتاة الصغيرة التي ضاجعتها بحيوانية حتى وقت متقدم من الليل لا تزال نائمة. ظهر الجزء الأسفل والعاري من جسدها قرب الملاءة المكومة فوق ظهرها النحيل. شعرها قصير جداً أسود. ذراعها تدلت ساقطة ملامسة البلاط. تناولت علبة السجائر وابتلعت واحدة ثم أخرى ونفثت الدخان بكثرة. قرب السرير نظرت إلى المسدّس. أسود ثخين وقربه المدفع الأوتوماتيكي الرشاش الكبير. كانت تسمع بضع طلقات خفيفة بعيدة. تطلعت من النافذة الى المرفأ الكبير والعنابر وسفن الشحن الهائلة. من الشقة المرتفعة ظهرت الطريق الواسعة المحاذية لمنطقة المرفأ. هناك مرّت سنوات من دون أن تعبر سيارة واحدة. بعض الأعشاب الشائكة في أمكنة كثيرة على الجوانب وفي الوسط. هناك كثيرون لقوا مصرعهم. ظهرت كذلك هياكل سيارات محروقة في أمكنة متقدّمة والشمس لم تظهر بعد. النهار بدأ حاراً وجسمي يعرق بكثرة. دخلت الحمام، فتحت الحنفية وانهمرت المياه. كانت باردة لاذعة واللعنة. علا صخب وابل من الرصاص في مكان قريب والماء يتساقط على رأسي وينساب حتى القدمين. خرجت من الحمام، عدت إلى الغرفة ولم أجد منشفة. قطرات الماء ترقرقت من شعري إلى ظهري ومؤخرتي ووجدت الفتاة الصغيرة مستفيقة تبحث في جزدانها، التفتت إليّ. في الخارج تضاعفت الطلقات الرشاشة واصطدم بعضها بالأبنية المرتفعة المجاورة. انتشلت الفتاة مرآة صغيرة وراحت تحدّق في وجهها. رأيت حلمتيها كبيرتين سوداوين وغطتا القسم الأكبر من نهديها الصغيرين. نهضت وجلست أنا على كنبة قرب السرير وسألتني عن الوقت. دون أن تتوقف تابعت إلى الحمام وسمعت اندفاع المياه من جديد. قمت ولحقتها. بدا جسدها أقلّ نحولاً تحت الماء. أردت الانضمام إليها لكنها زجرتني بعنف. تابعت الاغتسال وبقيت أتفرج. أحياناً كانت تلتفت مادة لسانها أو لتشتمني. في الخارج ظهرت الشمس فجأة حادة ومبهرة وازداد الحرّ إلى درجة كبيرة. المواضع التي أصابتها الشمس شعّت وبعضها عكس الضوء فبدا مشتعلاً. شعرت فجأة برذاذ ماء يتساقط عليّ ورأيت العاهرة الصغيرة توجه صمام الدوش باتجاهي ثم وجهته نحو عضوي فلاحظت انتصابه الكامل. ابتعدت وطفقت باتجاه الغرفة وبدأت أرتدي سروالي الجينز الضيّق ولم أكمل تبكيله. بعدها انتعلت حذاءً مطاطياً أسود حين انفجرت قذيفة على مقربة وأحدثت صوتاً مريعاً. سمع صوت تحطّم زجاج. تناولت قنينة الماء وشربت نصفها. ارتديت قميصاً قصيراً داكن اللون. توقف اطلاق النار فجأة وحدث صمت تحت الشمس. كان هذا حسناً ودخلت الصغيرة الغرفة وهي لا تزال مبللة وسألتني عن منشفة. عندما قلت أن لا حاجة بدأت ترتدي بنطالها دون اهتمام. تابعت وارتدت قميصي القطني الداخلي من غير أن تضع حمالة صدرها. حين انتهت ظهر الجزء الأكبر من نهديها الصغيرين من جانب القميص. فتثيرني إلى حد غير معقول. وضعت عضوي داخل البنطال وأبكلت الأزرار. حملت المسدس على مقربة من عضوي في مقدم البنطال. قلت: «سنخرج». قالت: «أخيراً. أنا جائعة». انحدرنا معاً على أدراج البناء القديم حيث لا مصعد. عندما طللنا على الشارع كان مقفراً ساكناً وكذلك الشمس. أسرعنا ملتويين بين ◄



الأحياء الضيقة ووصلنا إلى مطعم صغير منزو. دخلنا وكان في المكان عجوزان فقط، أحدهما صاحب المطعم، والآخر يشبهه تماماً. العجوز لا يفارق مطعمه الصغير. لم يكن يتكلم في الصباح. جلسنا في مكان ما وأحضر لنا صحنين من الفول. المكان معتم لا يدخله النور سوى من الباب ومن كوة صغيرة قرب المطبخ. أحضر العجوز صاحب المطعم ركوة كبيرة من القهوة تصاعد دخانها كقطار قديم. وضعها على الطاولة أمام العجوز الآخر وقعدا معاً يتحدثان بصوت واطىء. انتهينا من الطعام وتوجهت نحوهما. ناولته ثمن الوجبة ودسّه في جيبه من دون أن يلتفت إليّ. عدت إلى الطاولة، وكانت الفتاة تدخن سيجارة، وسمعت الصوت الذي كانت تحدثه شفتاها وهما تفلتان العقب. الطلقات الرشاشة عادت تسمع بعيدة ناعمة. سمعت منصتاً وملأتني رغبة شرسة في اطلاق النار. انتشلت مسدسي ورحت أصوّبه باتجاه جسد الفتاة ورأسها. أخذت تراقبني مبتسمة ثم ضحكت بصوت مرتفع. شعرت كما لو أنني أدغدغها بفوهة المسدس. صرت أصوب منقلاً الفوهة على الأجزاء البارزة من جسدها وبشغف. تابعت الضحك بنشوة. أخيراً مدّت لي لسانها الضخم القرمزي ووجدتني ملتاعاً مهتاجاً إلى أقصى الذروة. ونحن على هذه الحال دخل ستيف صديقي وبدا فاتناً جميلاً كملاك. كان وجهه أبيض طرياً وجسده نحيلاً بارز العظام. شعره الأشقر المسترسل غطى الجزء الأكبر من وجهه ولم تظهر سوى عينيه الخضراوين الساحرتين. انحنى ستيف وأطبق على فم الفتاة ماداً لسانه الوردي الضخم. تابع يمرّغ شفتيه ولسانه في فمها لأكثر من خمس دقائق. كنت أنظر مستمتعاً، وأحسست هياجاً في عيني. حين انتهى استدار إليّ وقبلني في فمي أيضاً. كان فمه مبللاً بالريق وصارت شفتاي رطبتين. كان ستيف كثير الكلام وشرساً كحيوان. كانت ثيابه فضفاضة وغريبة الألوان. راح يتغزّل بالفتاة بكلمات فاضحة ويداعب نهديها بين وقت وآخر. لم يكن ينظر إليّ سوى نادراً. أخبرنا أنه ذهب في اليوم السابق الى البحر والماء كان بارداً. وأنه تعارك مع أحدهم وحطّم له عظام وجهه. أخبرنا كذلك كيف قاد سيارته الحمراء بمحاذاة مياه الشاطىء على طول الخليج الرملي وكيف كانت الفتيات المستحمات يصرخن هاربات. في النهاية اقترح أن نتوجه ثلاثتنا إلى خطوط التماس ونطلق النار. قلت له إني لا أحمل الآن سوى مسدسي. قفز وهو يزعق: «لا يهم، هيا. في سيارتي أسلحة كثيرة». انطلقنا في سيارته وجلسنا ثلاثتنا على المقعد الأمامي، ولم يكن هناك مقعد خلفي. كانت الفتاة في الوسط مغتبطة تقفز نشوة ورحت أعضه في رقبته. الطريق كانت خالية مقفرة وستيف يطلق بوق سيارته بجنون وعلى الراديو المشوش أغنية مهتاجة للمطربة صباح. الشوارع والمدينة ملكنا ورحت أطلق النار من النافذة باتجاه البنايات. توقفت السيارة قرب عمارة قرميدية جميلة وترجلنا. فتح ستيف صندوق سيارته وناول كلانا رشاشاً أوتوماتيكياً بديعاً. ثم انتشل أيضاً ووزع علينا أمشاطاً محشوة بالرصاص. حملنا الرشاشات وانحدرنا بين الأزقة حتى وصلنا إلى مرتفع يطلّ على درج طويل يصل عمقه إلى أكثر من مئتي متر. حين طللنا من أعلى الدرج انهمرت علينا عشرات الطلقات الرشاشة، وارتمينا ثلاثتنا على الأرض. تابعنا زحفاً إلى الاتجاه الآخر حيث كان في وسعنا الاحتماء. كنا نزحف ونطلق الشتائم وكانوا من تحت يردّون شتائمنا مرفقة برصاص نسمعه يئزّ فوق رؤوسنا. كنا نزحف ونلعن مبتهجين. لم يكن في المستطاع أن نحصل على أجمل من هذا. حين وصلنا إلى الجانب الآخر الذي يبعد عشرة أمتار تقريباً وقفنا أو قفزنا فرحاً وراحت الفتاة تتعلّق برقبة كلّ منا مطلقة صرخات الابتهاج. كنا نسمعهم يشتموننا من تحت، وكانوا يصفوننا بالجبناء الكلاب. راح ستيف يستفزّهم ضاحكاً ضحكاً هستيرياً فردوا هم بإطلاق النار بغزارة. «هاها» - قال صديقي - «سنلعب كثيراً اليوم». اقتربت من حافة الجدار ونظرت إلى تحت. رأيت بعض أكياس الرمل وبعض الرؤوس التي كانت تتحرّك وراءها. كان بعضهم يعبر من متراس إلى آخر مهرولاً بينما الآخرون يطلقون النار صوبنا لحمايته. «هذه هي» - صرخ ستيف - «سنميتهم غيظاً».



وكانت خطة ستيف كالآتي: سوف يعدو كلّ منّا بمفرده المسافة بين الجدارين اللذين يفصلهما الدرج مطلقاً الرصاص باتجاه الأسفل. وسوف لن نقطع تباعاً. يقطع أحدنا منفرداً، ولما يتوقعون هم أن يتبعه آخر يعود الشخص نفسه وبالعكس، وهكذا تباعاً وتكراراً. أحياناً قد نعبر اثنين أو ثلاثة معاً. كانت خطته ممتعة، أعجبتنا كلنا وفرح هو كثيراً. بدأنا تنفيذ الخطة، وأرادت الفتاة أن تعبر هي الأولى. تأكدنا من سلامة سلاحها وانطلقت على الفور. ما أن أطلت عليهم حتى بدأت اطلاق النار، وكان شعرها القصير يلتمع بروعة تحت الشمس. كان العرق المتصبب من مسام رأسها يتسرّب فوق الشعر ويعطيه بريقاً جذاباً تحت الشمس المشتعلة. تابعت تطلق النار إلى أن توقفت عند منتصف الفسحة المطلة على الدرج وأفرغت كامل حشوة سلاحها. في هذا الوقت قفز ستيف راكضاً وراح هو أيضاً يطلق ناره عليهم صارخاً هازجاً بجنون. حين وصلت الفتاة إلى ما وراء الجدار المقابل كان ستيف وصل معها وانطلقت من تحت الطلقات محمومة وكثيفة كمياه الدوش. كانت الفتاة تقفز مقبلة وجه ستيف وهي تومىء لي بيدها الندية النحيلة. ما إن توقف النار من تحت حتى انبرى عليهم ستيف مرة جديدة ومن الجهة اللامتوقعة وأمطرهم مرة أخرى بوابل من الرصاص. طللت أنا من جهتي وعالجتهم بذخيرة رشاشي الكاملة. في هذا الحين عبر ستيف وصار ورائي، ورأيت أحدهم يطلّ من وراء أكياس الرمل موجهاً سلاحه نحوي. عندها انطلقت مهرولاً نحو الاتجاه الآخر موجهاً مدفعي الرشاش نحو كامل المساحة المواجهة، وعاد المسلح متقهقراً إلى مكانه. تلقفتني الفتاة، وقفزت متعلقة برقبتي وشبكت رجليها فوق ظهري، فصرت أحملها. كانت في هذه اللحظة في منتهى ابتهاجها، وراحت تمسح بلسانها العرق عن كلّ وجهي. وكان لهاثها أشبه بحيوان مسعور. جسدها يتحرك منتفضاً وبقوة إلى أن وقعنا معاً على الأرض وبقيت متشبثة بي. أحسست بأضلاعها كلها تدخل أضلاعي، وأمتعني هذا الشعور. بقينا مرتميين متعانقين على الأرض بينما رأيت ستيف ينفث سيجارة في الجهة المقابلة وهو متمدّد بمحاذاة شجرة ضخمة ظليلة.

فجأة شعرنا وكأننا نطير ثم ارتطمنا بالأرض ولم نعد نسمع. أحدثت القذيفة التي أطلقوها باتجاهنا دوياً وضجيجاً هائلاً هزّ فرائصنا. راحت شظايا القذيفة تنهال حولنا، وشعرت بجسد الفتاة داخل أضلاعي. حين هدأ كلّ شيء، رفعت رأس الفتاة المنغرز في صدري وتحسست جسدها وجسدي. تأكدت من أن أحدنا لم يصب. نظرت إلى الجانب الآخر فرأيت غصناً ضخماً فوق المكان الذي كان يجلس فيه ستيف. كانت أوراق الغصن خضراء قاتمة

وكثيفة حجبت الأرض من تحتها. أردت أن أصرخ ثم امتنعت. زعقت الفتاة، وأشارت إلى موضع في الغصن تحرّكت فيه الأوراق. ثم شاهدنا معاً رأس صديقنا ستيف يطلع من بينها مبتسماً ماداً لنا لسانه. لم نتمالك أنفسنا من الضحك. كان منظره ظريفاً وهو يطلّ كالصبيّ الأزعر. قبلناه من بعيد. كنا نفعل بشفاهنا حركات كالقبلات المحمومة. ونبعثها إليها في الهواء. نهض هو ونفض عنه أوراق الشجر، ثم أشار علينا بيده أن نصمت وألاّ نحدث أي صوت. كذلك أشار علينا أن ننظر إليه ونفعل كما يفعل هو. رحنا نقلده بينما شرع يخلع عنه ثيابه. القميص ثم البنطال والملابس الداخلية (كان يرتدي ملابس داخلية). وحين أصبح عارياً تماماً صرنا مثله عاريين. رحنا بعدها ننظر إلى أعضاء بعضنا البعض الذابلة بفعل الحرّ (وبالتأكيد لم يكن عند الفتاة عضو مشابه لعضوينا أنا وستيف). لكنّ حلمتي نهديها بدتا منتصبتين وحمراوين وكأنهما ملتهبتان. أدنيت فمي وداعبت بلساني احدى الحلمتين. لكني أحببت طعمها، وتابعت امتصّ حتى ضربتني بيدها على رأسي. عدنا ونظرنا إلى ستيف. أشار إلينا، وفهمنا أننا سنطلع فجأة نحن الثلاثة عراة إلى مواجهة المسلحين في الأسفل ونعرض لهم مؤخراتنا ثم ننبطح أرضاً، ونعود زاحفين. كانت فكرته هذه في منتهى الروعة. انتظرنا بضع دقائق ثم أومأ إلينا بيده أن ننطلق معه.

انبرينا أمامهم فجأة ودفعة واحدة، وأطلقنا باتجاههم بهاء مؤخراتنا وارتمينا بعدها على الأرض ضاحكين بجنون. طار صوابهم. كنا نسمع أصوات شتائمهم أكثر ارتفاعاً من وابل الطلقات التي أمطرونا بها. كانوا يلعنوننا بأقذر الشتائم. حين وصلنا شرعنا نرتدي ثيابنا من جديد ونحن في أقصى حالات الحبور. قرّرنا بعدها أن نغادر، وكان علينا أن ننتظر ستيف حتى يعبر من الجانب الآخر. حين انتهى من ارتداء ملابسه وحمل سلاحه طفق يعدو نحونا والرصاص ينهمر حوله من الأسفل. وفجأة قبل أن يصل بخطوة أو ثلاث رأيناه يتعثر ويسقط أمامنا. قفزنا في الحال وحملناه. كان قميصه ملطخاً بالدم. نظرنا إليه مذعورين. حين رفع رأسه بدا وجهه لا مبالياً ثم نظر إلى ذراعه. ظهر جرح في ذراعه. كانت الرصاصة مرت بمحاذاة ذراعه وبالكاد لمستها. لم يكن الجرح بليغاً. خلع قميصه ولفّ به الجرح بينما الفتاة تمرّغ يديها في شعره وتقبّل رأسه باكية وتجهش في بكائها. صرخ بها أن تتوقف، وأن لا شيء مهمّاً، وأنه بخير، ثم ضمّها فوق صدره.

وقف ستيف، وتوجهنا عائدين إلى السيارة. بينما نعبر الأزقّة صادفنا سبيل ماء. توقفنا، وغسل ستيف جرحه، فبدا ضئيلاً. اقتربت الفتاة، وغسلت رأسها ورقبتها، وغسلت أنا وجهي. في السيارة قدت أنا بينما راحت الفتاة تقبل ستيف وتواسيه. ورحنا نحن الثلاثة نغني معاً أغاني غبية. عدنا إلى شقتي بعد أن ابتعنا بطيخة ضخمة حمراء وصندوقاً من البيرة. دخلت الى المطبخ وقطّعت البطيخة والتهمت قلبها. وضعت الباقي في البراد الأبيض الضخم. كذلك وضعت قناني البيرة في الثلاجة. عدت إلى غرفة الجلوس. ولاحظت ملابسهما مرمية على الأرض وصوت الدوش المندفع وصراخهما يملأ المكان. الوقت كان بعيد الظهيرة والشمس خفّت حدّتها. أدرت المهواة الكهربائية ثم جهاز التلفزيون وتمددت على الأرض. على الشاشة كانت مباراة كرة القدم تجري بين ايطاليا والبرازيل. كنت مع ايطاليا. أحب اللاعبين الايطاليين. إنهم فاتنون وجذابون الى حدّ لا يوصف. كنت أنظر إليهم بافتتان وعشق حتى كدت أذوب. سجّل الايطاليون هدفاً، فصرخت ببهجة ورحت أصفق. والفتاة تركض في أرجاء الشقة عارية وستيف في أعقابها. فرحاً أشعلت سيجارة، ورحت أمجّها بنشوة. قبالتي كان ستيف يضاجع الفتاة بوحشية على الفراش. كان جسدها النحيل يتلوى تحته وساقاها محلّقتين فوق رأسه. اللاعب الايطالي الذي قرّبوه الى الشاشة بدا أشبه بفتاة عذراء. كان مصاباً يصرخ ألماً وترقرقت في عينيّ دمعة. □

الموت في الظل

مودي بيطار سمعان



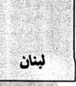
■ لم تكن، أحست، كعادتها. نظرت إلى قطعة الحلوى كأنها تتساءل هل تتناولها أم لا، برغم أنها الصنف المفضّل لديها. وهل كان هناك شيء من القرف كذلك؟ هزّت رأسها بعنف، وابتسمت ابتسامة باهتة. ارتدت ثيابها ونظرت إلى المرآة. بدت شاحبة لا يضيء فيها إلا عيناها. إنه واحد من تلك الأيام التي تمر عليها من دون أن تملك شيئاً حيالها.

قبّلت الطفلين، وهبطت الدرج لاشعورياً مع أن المصعد كان يعمل. كلما أرادت أن تفكر ملياً في أي شيء، تمشي. تأخذ وقتها، هكذا، وكثيراً ما لاحظت أنها تخفّف سرعتها أو تزيدها وفق سير أفكارها ومن تفكر بهم.

كان يوماً بليداً في العمل، وكم ودّت أن تنام. تثير حنق زوجها عندما تسبقه إلى السرير قائلة: «أعتذر، ولكن لا ألذ من النوم»، فيرد في غيظ: «تنامين كالأطفال، ماذا تربحين من لذة لا تشعرين بها؟». لذة سلبية، نعم، وقت أدائها، لكنها عظيمة بعد ذلك خصوصاً إذا واكبها حلم جميل.

«هل أملأ لك الصحن؟». سألت مريم. ردت ولم تعرف ماذا قالت. كانت غائبة، ولم تبال إذا أكل الولدان جيداً، كما تفعل دائماً. نظرت إلى الصحن وأحست باضطراب في معدتها. غادرت المائدة فوراً، ورفعت يداً باردة إلى جبينها، أكثرت مريم من دوائر البطاطا مع الدجاج وأثار ذلك قرفها. هذه المرة لا تشك. كان ذلك قرفاً. برمت بنفسها وزادها دخان سجائر سامي اشمئزازاً. سألها مستغرباً: «ما بك؟». ذهبت فوراً إلى غرفة النوم من دون أن تجيب. كأنه يبالي. يعرفها لا تطيق رائحة السجائر، ولم يتوقف مرة واحدة عن التدخين منذ زواجها.

نظرت إلى كوب النسكافة بشيء من الخوف. تضخم قلبها حتى ◄



وصل إلى حنجرتها. هل يمكن؟ أخذت تمشي في المطبخ جيئة وذهاباً وهي لا تقول سوى: «يا الله. يا الله. يا الله»، كأنها كانت في رياضة صوفية لا تتوقف إلّا مع بلوغ «النرفانا». تعرف جيداً معنى القرف من الحلوى والحليب واللون الأبيض. عقدت ذراعيها على صدرها وأسرعت إلى غرفة النوم كأنها وجدت المنفذ. دفعته بشيء من العنف: «انهض، انهض». جفل! «ماذا هناك؟ ماذا حدث؟». «يا الله. انهض». ردت بعصبية «أنا حامل». عاد يتمدد متثائباً: «لا بأس، سأطلبك من أهلك». أساء اختيار وقت المزاح. رفعت الغطاء عنه وأدارت وجهه نحوها. «هل سمعت؟ أنا حامل»، صرخت ثم تهدج صوتها. «ماذا أفعل الآن، قل ماذا أفعل؟». عاد يتمدد في كسل، وكانت تريد أن تبكي بين ذراعيه حتى تهدأ. قال: «لا نريد طفلاً الآن. أليس كذلك؟».

لا تعرف هل كان ماءً ساخناً الذي أحسته ينصبّ عليها أم بارداً. بقيت جامدة كأن كل شيء توقف فيها. «لا نريد طفلاً»، استعادت كلمته. لم يكن ذلك ما عنت عندما سألته ماذا تفعل. لا تعرف ماذا كانت تعني لكنه ليس هذا. ربما كل ما أرادته هو أن يقول لها إنه يعرف أنها تواجه مشكلة وأنه سيساعدها بالطريقة التي تريد.

يا سلام.. متى تعاطف معها ليفعل هذه المرة؟ إذا شكت مرة من تعب الطفلين يتأفف: «من يسمعك يقول لديك عشرة أطفال»، وإذا تذمّرت من شيء في العمل يرد بالسباب والشتائم لمن أزعجها، فتنتهي بأن تحس نفسها أكثر تعاسة. تنهّدت وأحست أنها تخرج كلها في هذه التنهيدة. استلقت على السرير وشدّت على رأسها بيديها كأنها تمنعه من الانفجار. تعرفه جيداً والمسألة حسمت بالنسبة له، مهما ناقشته. وهي؟ لا تستطيع تحمل فكرة طفل آخر الآن، ولكن هل تستطيع أن...

قالت لنفسها على الطريق إلى عيادة الطبيب إنما ستفعل بما يشيره عليها. كانت شبه أكيدة أنه لن يقبل، ولكن ماذا لو فعل؟ «إذا لم يقبل طبيبي أن أفعل ذلك لديّ غيره»، قالت لسامي بعدما ناقشتا وانتهيا في كل مرة إلى شجار. لم يرد كان الأمر لا يعنيه فزاد غيظها وودت أن تضربه. نظر إليها الطبيب ملياً: «ألا تريدين طفلاً آخر؟». «نعم، نعم. ولكن ليس الآن»، ردت بسرعة كأنها تستعجله أن يجيب هو على سؤالها. «أفهم ذلك، لكنه هنا، ولديك تسعة أشهر لتقبليه خلالها. أنا لا أقوم إطلاقاً بعمليات إجهاض». ارتاحت كأن المسألة حسمت علمياً، لكنها بقيت تحس بالإعياء.

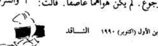
«يجب أن أملأ هذه الاستمارة». نظرت إليه بحذر وخوف، وتراءى لها أنها كرهته مذ رأته. نظرت إلى شعره الذي خالط بياضه السواد، وكانت تستلطف منظر الرجال ذوي الشعر المماثل، لكنها كرهت هذا. ابتسم وهو يسألها لماذا لا تريد الطفل، ورأت ابتسامته كريهة أيضاً. «لست مستعدة نفسياً. لا أزال متعبة من الطفل الثاني». تكلمت بضعف من يعرف أن ذلك ليس حجة كافية، لكنه وافق فوراً وأحست أنها ضحيته. ودت أن تصرخ في وجهه أنه جزّار ولا يحق له ارتداء الرداء الأبيض، لكنها سارت في وهن وفكرت أنها ليست أفضل منه. عمرها ما خطر لها أنها يمكن أن تفعل ذلك. ولكن، سامي. لا ترغب في مشكلة كبيرة معه لأنها لا تعرف كيف تنتهي. أدركت أنها فجّة، وكم درّبت نفسها على التوافق معه برغم أنها لم تقتنع دائماً برأيه. كانت تخاف أيضاً من أن يفلت زمام نفسها من يديها وتصل إلى نقطة اللارجوع. لم يكن هواهما عاصفاً. قالت: «أريد زواجاً ناجحاً وسأعمل على ذلك». لكنها كانت تتعذب في صمت كلما لاحظت انحسار شخصيتها في سبيل ذلك، وكم قهرها القمع الذي مارسته على نفسها لإرضائه وتجنب الاحتكاك. وهو اعتاد، وكثيراً ما تصرف في عناد وتيه كالديك. لاحظ اختفاء حس التمرد عندها ولم يكن فطناً ما يكفي لكي يعرف أنه بقي كامناً. إنه كان يثيرها ببروده وعدم اكتراثه كأن لا رأي لها، كأنه لا يجب أن يكون لها رأي. كثيراً ما قالت له: «لست حساساً، بالضبط». وكانت تريد القول: «كم أنت غليظ. هل كل الرجال كذلك؟».

لم تعرف ماذا فعل الجزّار. أسمته الجزّار ولن تعترف بغير هذا الاسم طوال عمرها. قالت له: «I feel awful» فاكتفى بالابتسام. ابن الكلب. تمنّت أن تنزل عن الطاولة الضيقة وتصارحه بما تفكر. لكنه كان خدّرها ولم تقوَ على شيء. أمسكتها فادية بيدها: «هل تستطيعين المشي؟». أومأت دون كلام، إذ خافت أن تبكي وأحست بحاجة إلى أمها، إلى حماية ما، لكنها لم تفكر بسامي. اللعين لم يكلف نفسه حتى مشقة مرافقتها، كأنها في نزهة. نظرت إليها فادية بعطف وقالت: «لا بأس، لا بأس»، كأنها أرادت أن تمحو ما قالته سابقاً. خفضت بصرها وارتجفت شفتاها: «معك حق، فادية. إنها الجريمة الكاملة». أطلقت رفيقتها ضحكة مصطنعة: «إننا نعظّم الأمور. لو كنت مكانك لما فعلت غير ذلك». كانت ترتدي الأبيض وأدركت أنه لم يكن اللون الملائم. لماذا ترتدي الأبيض كلما أحست نفسها ضحية؟ اليوم، وعندما دخلت عالم النساء، وعندما، تمهلت في التفكير عندما بلغت هذه النقطة، تزوجت.

كانت فعلاً جريمة كاملة. لا شرطي يسأل ولا عقاب يفرض. لكنها، اقتنعت، كانت الضحية والشرطي معاً وهو المجرم، ولم تكن قادرة على معاقبته. باتت تتجنّب الاختلاء به إذ لم تفهم كيف يستطيع أن يتابع حياته بهناء كأن شيئاً لم يحدث. يأكل جيداً، يدخّن، يعود من عمله ليتمدد أمام التلفزيون، ويدعوها بكل وقاحة إلى جانبه. كانت تجلس على الكنبة الأخرى بوجه جاف دون كلام. عرف أنها غاضبة ولم تفصح رغم إلحاحه أن يعرف السبب. إذا لم يفهم وحده لن يفهم أبداً.

انتبهت إلى أنها تسترجع قوتها شيئاً فشيئاً. لم تقصد ذلك لكنه تواكب مع عدم اهتمامها بعلاقتها حاضراً ومستقبلاً. ما حدث مضى لكنه حدث، ولن تستطيع نسيانه أبداً. تعلقها بطفليها بات مصبوغاً بشيء من الذنب والتكفير. أعطتهما وقتاً أكبر، اشترت كل ما طلباه، شاركتهما اللعب وتنزهت معهما أكثر من قبل. لكن ذلك لم يمنحها الراحة المشتهاة. باتت أكثر انغلاقاً وقساوة تجاه الآخرين، واشتد ضيقها بكل شيء، حتى بالطفلين أحياناً. كانت تشفق وما عادت، إلّا نزراً. هي أيضاً توجعت ولمست معنى ذلك الانفصال عن العالم. أن تسير في خط مغاير لكل الخطوط الأخرى دون أن يرى أحد ذلك. أن تهبط تهبط، لا تندفع يد لنشلها. الآخرون؟ عبست. لا يعرفون، وإن عرفوا لا يبالون.

تمددت أمام التلفزيون دون أن ترى شيئاً. كانت ثقيلة ثقيلة، وفي الوقت نفسه، معلقة في هواء راكد. وذلك الخواء في الداخل الذي لم يكن خواءً صافياً بل شابه شيئاً من الترقب والوجع. بدأت تنتبه إلى تفاصيل البرنامج وتتابع باهتمام كئيب. امرأة مختلة خطفت طفلاً رضيعاً وهربت حتى بلغت سطح بناية مرتفعة. لاحقها الأهل والشرطة فاقتربت من الحافة. تعثرت ووقع الطفل إلى الشارع.





انحنت على الكنبة كأنها تهوي إلى ولد. انكسرت فجأة وتشققت القشرة التي بنتها حول نفسها كشرنقة. كل الغضب والألم، وكل ذلك التاريخ من القمع والاستكانة انهمر دفعة واحدة من عينيها. بكت وبكت من دون أن تحاول التوقف كأنها تمتعت بذلك. ذهبت إلى النوم وقد حسمت الأمر. سترحل، ولا تعرف هل تعود أم لا. ليس هناك ما يثير كآبتها وبعض الشك سوى الطفلين.

عادت إلى طبيعتها، وحركتها السريعة في البيت. أحست بثقل نظراته المتسائلة لكنها لم تستطع أن تخبره بقرارها برغم محاولاتها وأزعجها ذلك. نام الطفلان فجلس قربها وجهد في ايجاد مواضيع للحديث. لم تتجاوب، وشجّعت نفسها على مصارحته. كانت اعتمدت صيغة نهائية لما يجب أن تقوله لكنها نسيت الكثير. أخذ يحدثها عن طفولته في القرية ففوجئت لاختياره هذا الموضوع. كان شقياً لم يرحم كبيراً أو صغيراً، وكان يمازح أمه ولا يجيب إلّا كذباً على اسئلتها فتلجأ إلى ابنها الأصغر لتعرف الحقيقة. انجرفت وأحست بالسلوى. فجأة قال كالعجائز: «إي. هذا ما نخبرك عنه». كرت ضحكتها كأنها انطلقت وحدها وجرّتها. كانت تضحك وتهدأ ثم تعاود الضحك حتى أدمعت عيناها. كانت تشبه أمه وتكره هذا التشابه. وكانت تعاني من أمومتها تجاه الأشخاص والأشياء. لا تعرف لماذا، لكنها قرّرت أن تعطيه فرصة ثانية. عندما هدأت أخيراً حدّقت إليه كأنها لم تره منذ زمن. فكرت: ما حدث حدث، لكنه مضى. □

الواحد

واكيم أونجي

■ فاقداً وعيي؟ نائماً؟ شبه نائم؟ لا أدري! ولكني كنت متعباً تماماً.

النافذة الكبيرة خلفي كانت الجدار الرابع لغرفتي الضيقة على الطابق الرابع عشر. إذن كنت مستلقياً، ومن داخل الغرفة من مكان ما شعاع رفيع سقط على الروزنامة المعلقة على الجدار. من علّقها؟ ولماذا الخامس والعشرون من الشهر؟ من رسم الدائرة الحمراء حول هذا الرقم؟

لم يكن طيفاً، ولكنها امّحت وحدها شيئاً فشيئاً كطيف. ومن المكان ذاته ـ على ما أظن ـ سقط الشعاع الثاني على ساعة الحائط. ما معنى أن تكون الساعة الثالثة والربع؟ رائحة بول في الغرفة. من أين أتت؟ من أين أتتني القوة كي أصل إلى الزاوية القصيّة من الغرفة؟

التقطت مرآة الحلاقة الصغيرة. ومن كل الزوايا حاولت أن التقط وجهي المنعكس فيها بلا جدوى. أنا لا أحب هذه الموسيقى الهادئة والباردة كالموت، ولا يهمني من أين انبعثت.

هل يحضر إلى زيارتي اليوم شبح ما؟ حاولت أن أوهم نفسي بهذا، ولكني سرعان ما انفجرت بالضحك. لماذا دارت في رأسي فكرة كهذه؟

تعالوا نلعب لعبة أخرى. اعتدت أن أذكر جملة ما لا على التعيين، وأن أغير الأحرف فيها: (الباء.. نون، التاء.. ثاء، الجيم.. حاء، الحاء.. خاء..). وهكذا اكتشفت متعة جديدة، وفائدة أخرى، فعقارب الساعة أخذت وضعية الخامسة وأربع عشرة دقيقة. هل تصدقون بأن للمدينة الكبيرة كلّ هذا السكون؟

من أين أتت رائحة البول؟ الفراش جاف، والكتب المكوّمة هنا وهناك لا تبول! شيء في سواد الليل خلف النافذة الكبيرة لمع، والزجاج تحطّم.

برودة جبلية دارت في الغرفة (أعرف جيداً أنّ المدينة لا تحيطها أية جبال).

الفراغ كان دائرياً. لماذا تطاردني الدوائر أينما حللت؟! هل تعرفون بأنني ألبس نظارات مستطيلة؟ وبان في كل الصور الفوتوغرافية يحيط بعينيّ اطار دائري لنظارة؟

كيف يتحطم زجاج النافذة على شكل دائرة نصف قطرها عشر سنتمترات تقريباً؟

فسّروا لي هذا. عجزت أنا عن التفسير أو لم أفكر بهذا.

مددت أصابعي بخوف وأخرجتها. هل تصدقون بأنّ لهذا متعة هائلة؟ مددت أصابع يدي الأخرى. آه كم هي لذيذة هذه البرودة! يداي على آخرهما أضحتا خارج الغرفة. خطرت ببالي فكرة ما، فعدت لأنبش جميع أوراقي، وحملتها معي.

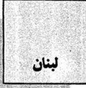
أخرجت رأسي حشراً، كتفيّ، صدري. و(أحسست بالخفة). أغراني وشاح أبيض يلوّح في عتمة الفضاء بانسيابية مطلقة.. شيء ما جذبني ليرفع آخر قطعة من جسدي. وبدفعة صغيرة من أصابع قدميّ كنت في الفضاء أمهر من الوشاح، من النسمات. كان جسدي مضيئاً، ولا أذكر إن خطر ببالي أية صورة لامرأة. إنها المتعة الخالصة.. الخفة المتناهية التي نادراً ما يصل كبار المتصوفين إلى ما يشبهها.

بعيدة المسافة من الطابع الرابع عشر إلى الأرض، وطويل الزمن الممتد بينهما. وأن تكون بهذه الخفة يعني أنك لن تموت.

أول شيء فعلته لحظة ملامستي الأرض، أنني بحثت عن أحجار أثقلت بها قدمي، لتصبح مشيتي أكثر توازناً. هل تصدقون أن الأحجار كانت كروية، وخضراء؟

طفت في المنطقة المجاورة، ولم يتبعني أحد. لم يقل لي أحد ما: «يا معلم» أو أي شيء آخر. هل لأن الوقت مبكر جداً وما زالوا مستغرقين في النوم؟ تلمّست بأصابعي النحيلة الجدران المتآكلة للبيوت العتيقة. وفي النهاية صعدت إلى رأس عمود للنور، وجلست أقرأ أوراقي بصوت مرتفع.

وفي الصباح خرجت من الغرفة، أنا الرجل الأنيق دائماً، حليق الذقن كالعادة، هادىء الملامح، بمعطفي الأزرق السماوي، وبحقيبتي الجلدية، ونظارتي المستطيلة، وعطري الفاخر، واتجهت على غير العادة باتجاه جمهرة من الناس تحيط بعمود للنور على ناصية الشارع.



المرأة التي اصطدمت بها في محاولتي الغوص بين الناس، حدّقتْ إليّ بملامح فيها من الرعب ما دفعني إلى رفع خصلة شعري عن جبيني، وتثبيت النظارة جيداً، وشد ربطة العنق.

ألقيت نظرة على الرجل العاري، الممدّد، المغطّى بأوراق متناثرة، برأس مشجوج على حافة الرصيف. لا شيء مثير، ولكن اللغز الذي رافقني طوال الطريق، كان عن سبب سقوط هذا الرجل: هل لثقل الأحجار الكروية الخضراء المثبّتة بقدميه علاقة بهذا؟ □

بوح

سحبان أحمد مروة

■ ادن منّي بنيّ، ادن أكثر، فالعتمة تغشى العالم، أو لعلّ العالم هو الذي يستلّ العتمة كرداء من قلب النور، أدن مني، فأنا ما عدت أرى إلّا وجهك وسط هذا القهر الفاحم..

لا، أنا لا أرى وجهك.. أتذكّره فأبدّد سلطان الحلكة، هذي قليلاً، فادن مني اذن، وأعن ذاكرتي الفزعانة على استرجاع حبيب ملامحك.

عتم.

ادن منّي، ادن من أبيك فأبوك يوشك أن يتحوّل، بعد آهة ممضّة وشكاية مبرّحة، إلى موضوع ديني فلا سلطة ولا سلطان، ولا شعب ولا جيوش ولا أعداء ولا عسس.. بل موضوع دين ثم ذكرى، فلقد خُلِقَ أبوك ليكون ذكرى.

العتمة، الآن، صارت شعبي، وأمسى ألمي سلطاني، وخيبتي العاوية تحت ملكي، فادن منّي، من أبيك بنيّ، ادن، فيوصيك أبوك بروحك خيراً، وإن كان لم يعرف إلّا الشرّ، ولم يعرف للروح معنى وأنك أنت معنى الروح وظلّه في قلب أبيك..

لم يعرف أبوك إلّا العتمة، فادن من أبيك، يحكي لك من أمره ما عساه ينتزع صفح قلبك وغفرانه ويعيد لشوق أبيك المفرط صورة لثغتك الحلوة في حجره، وأنت تخبط بصغير حرير يديك وجهه فيشعر أن السماء باب وأن الله خلف الباب يهم بفتحه، فيندلق فردوسه على الأرض، ويسعد الخلق ويتسمون، بعد تجهّم طال.. ادن من أبيك، فأبوك يتدهدى في العتمة.

عتبت على أبيك، انه قتلك، ولكنه لم يقتلك بل سابقته فسبقك، ولو لم يفعل لسبقته أنت، أو لسبق الاثنين ثالث، تعرفه، فقتلكما معاً...

كنت أنت شاباً غرّا، لا تعرف من أمور الدنيا غير أنّك ابن المهوب: تأمر فتطاع، وتشير فيصير كما أشرت، حتى خيّل إليك أن الإنسان حيوان يطأطىء رأسه ويقف مكتوف اليدين على قدمين التصقتا ببعضهما احتراماً وتأهباً، ولا يتحرّك إلّا ساعياً أو خادماً أو ناكحاً أو آكلاً.

ولم يقل أحد لك إن الحكم يخرج من بين فرث ودم، وإن أباك ما كان له أن يستوي حيث كان لو لم يتخذ لنفسه معجماً جديداً خرجت فيه المصطلحات بمعان شذّت عن الطراز المألوف، وسمحت فيه القيمُ للمتأوّل أن يتأوّل وللمجتهد أن يقيس ويستنبط ويشرّع حتى تدخل عباد الله في السجن أفواجاً.

وأنت لا تعرف من تاريخ بلادك سوى أنها بلاد تعاني من عداوة عدو يُضمر لها شرّاً وأَلْحَقَ بها شرّاً مراراً، وأن لهذا العدو أحلافاً وأحزاباً هم معه في كل ما اقترف ويقترفون ولكنهم لا يُظْهرون العداوة دائماً بل يضمرونها أحياناً، ويمدّون يد العون إلى حليفهم القابع في خنادقه، سراً، ولكن متى عرفت الجبهات والحدود والمنازل الآمنة كتمان الأسرار؟ فالقتلى والجرحى، والأعضاء البشرية المتطايرة عناقيد بفضل عناقيد الأحلاف الجهنمية. إنْ هي إلّا إذاعة صارخة لما اتفق عليه القوم سرّاً ونفّذته أيديهم علناً، غدراً ونكرا..

بلى، العدو ينكحنا نكاح الإماء، ولكن في بيت الطاعة ونحن نتدلّل ونحسب الاغتصاب تجميشاً ومداعبة ثدي.

ولئن كان ذلك العدو قد جاء بهمٍّ واحد أول، وبغايةٍ واحدة اجتمع أبناء البلاد لأجلها، فإنه قد جاء أيضاً بأبواب شرّعها أمام كل طامح إلى الحكم ومتطلّع إلى السدّة ومتشوّق إلى ارتقاء رقاب الخلق. ولعلّ أبرز ما يحمله العدو إلى عدوه، إنما هو روح اغتنام الفرص واهتبال كل متاح، وانتهاز كل سانحة تسنح على جواد ضامر متين اسمه «أنا» وحسبك الأنا جواداً يسبق إلى الغاية وتصلّي خلفه الجموع والتواريخ.

وأبوك كان واحداً من الناس، أصيل الجواد يعرف كيف يكون ركوب الخيل وكيف يسابق الفارس الريح والغبار فلا يُشَقُّ له غبار.

كنت شاباً. أفلحت في الالتحاق بالجيش بفضل شهادتي، وتوصية نائب، بحّ أبي لفرط ما دعا له. ويمضي الفترة الدراسية الحقت بمكتب رجل شاهق الكلمة، وافر الأوسمة، يبدو صدره العريض لوفرة ما عليه من أوسمة كمرج في نيسان، ولكنها أوسمة كشهادات أبيك الفخرية: لا لصنيع قدّمت ولا اعترافاً بإنجاز ما خارق أعطيت، بل هي العادات والتقاليد.

كان أبي رجلاً متوسط الحال، ثم أدركته سنّة المجتمع المفتوح فانفضح أمره وهوينا فقراء نعيش في حاجة وعوز وصراخ، وكلّما اشتدت الحاجة الحاحاً ازدادت أمي صراخاً، فأبي ـ والفقر سيد السيمياء ـ قد نال الفقر من عقله حتى اشتبهت عليه الأمور والهيئات، وصار كثيراً ما يرى شخص الحاجة في شخص أمي فيثأر من الحاجة وتصرخ أمي وتعوي، فأبي كان يوسع الحاجة ركلاً ولكماً وسباباً، ولكنه كان في الليل يثوب إليه رشده، فيقوم إلى أمي يسترضيها بحنان وألفة. حبذا الانتقام من الحاجة عوضاً عنها: كنت أحسّ وكأنّ الليل استحال حبلاً غليظاً شدّت به رقبتي وصرنا في الهواء جسمي وعقلي وساقا أمّي، واندلع لساني واستطرد لهاثي متدفّقاً إلى غير ما غاية.

انتقمت للفقر بتملّق وافر الأوسمة الذي انتهرني أول مرّة، وذلك لأن نرجسيته أبت عليه الاستسلام لأول كذبة أسبغتها عليه، بل أفهمني أنه يفهمني ففهمت أنه لا يفهم إلّا ما يسمع، وهو لا يسمع إلّا ما يحب سماعه، فأدخلني دارته في حاجات كنت أقضيها له «متشرّفاً». وفي مرّة قال لي في ديوانه الفسيح كهزائمه (يالك من

منافق ذرب اللسان»، وقدّم لي كأساً بيد استبدت بها الغبطة وعصف بها الرضى، وفي مرّة قال لي منتهراً: «لئن عدت إلى زلفاك هذه فسأطردك وأعيدك إلى الخدمة...»، واصطحبني إلى نادي الفروسية وقدّمني إلى كوكبة من صحبه وكلهم...

حاصله، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ وأنا لا أعرف موتى أكثر جلبة وصخباً من قادة هذه البلاد وكلهم يدخلون في باب ما يضطّر المرء إليه، عنيت: الدم والميتة ولحم الخنزير.

ابنته، أمّك، كانت...

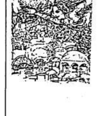
فيك الكثير من أمك ولهذا عشقك الجميع.. كما عشقوا أمّك. أمك ورثت عن جدّك مطرّز السروال بخيوط الذهب، عجب القادر المحتكم، وعطشه البعيد الغور لكل مديح وثناء.

قال لي وقد استدعاني صارخاً بصوت جعلني أوقن أننا نتحدر من سوق واحد وينتمي إلى تربية زقاقية واحدة: «تجرؤ على بنات أسيادك يا كلب! هذا جزاء من يحسن لأبناء الرعاع ويتفضّل عليهم؟ أتعلم ماذا سأفعل بك...؟».

تخيّلت فظيع ما فعله بالعدو فارتاح قلبي، ثم تذكّرت أنني لست عدواً بل مواطناً، فركبني شيطان الرعب ولكن ليس طويلاً، فأمّك كانت حبلى، وفضائح السادة الكبار كهزائمهم تداوى بالتي كانت هي الداء..

الميلودراما، خير علاج تتعالج به الشعوب المهزومة والأعراض المفضوحة، وهو علاج ناجح يقبل الجمهور عليه، ويصفه النطاسيون للجمهور، لأن الجمهور عاوز كده. أمال؟

يوم زفّت أمّك إليّ، كان يوماً مشهوداً: عدد النجوم العسكرية في الحفل كان أكثر من عدد المصابيح بأضعاف وأضعاف، ولكن النجم الحقيقي، بل قل مشكاة الأنوار الرسمية، هذه، كلّها، كان حاكم البلاد الذي ناداني فقال: «يا ابني»، فقبّلت يده، لم أنس أن أفتخر وأعتزّ وأتشرّف بأن أكون، ليس ابناً له، وهذا لعمرك الشرف الباذخ والعزّ السامق، الذي لا غاية بعده، بل مواطناً عادياً، فرداً من أفراد رعيته المغبوطة على حكمته وراجح قيادته وعبقري بلائه في سبيل تطوّر ورفاهية وسعادة... حاصله، كلام بطاطا تعرفه، فكانت هدية الزواج رتبة ووساماً من الدرجة الأولى «بسبب خدماتي قدّام الوطن والأمّة»، ووظيفة كبيرة باردة المناخ لفرط علوّها.



فيما بعد، صرت كلّما قُدّم لي طلب لمنح أحد ما وساماً مكافأة على ما قدّمه وعلى «حسن مضائه وبلائه في سبيل الوطن»، وضعت يدي على خدّي ورحت أتخيّل، قبل التوقيع بالموافقة، شكل وهيئة تلك التي نكحها مغاورنا هذا، وكيف وأين فعل ذلك، وأخيراً لا آخراً، ابنة أي قواد كبير هي... الوطن، الأمة، الشعب، التاريخ، التراث، أية فروج لا تشبع أنت؟!

صرت كرسياً، وصرت مرجعاً، وصار بابي مستراح طالبي الحاجات، وصارت أذني مصبّ أكاذيبهم ووعاء لغوهم، بيد أنّي لم أصدّق حرفاً مما كنت أسمع، فلقد كنت أعلم أنني أهون على الحق والحقيقة من بعرة «تدلّت من إست تيس والتيس يمشي» أو كما قال شاعر ما، ثم أنني استسهلت أحلامي فعظمت ومن كان عظيم الأحلام قل تفرّغه لسماع مبادىء النفاق الأولى، ولا سيما وأن كاذبي مثلي فكلانا عالم بالتّرهات: يقول ما لا يعتقد وأعي ما لم يقله.

لم أنقطع عن زيارة عمّي وافر الأوسمة ولا هو انقطع عني، ولكنه لم يعد يتهمني بالنفاق والمحاباة والمداجاة والتدليس، بل صار يصف ما أقول بأنه «عين العقل، ودليل نفاذ بصر وبصيرة، وشف عن حكمة عميقة وقدرة على التحليل السياسي والاستراتيجي، هائلة، فالبلاد والعدو والفقر والمحسوبيات والمصلحة العامة...».

«والحاكم الصالح، يا عمي، كقائد الجيش: نظام مطلق وعدل مطلق، وأنت أدرى الناس فأنت خير مثال..»، قلت متحمساً، فأمّن على كلامي مستحسناً ولكنه كان ساهماً ينظر إلى بعيد رأيته وقد صار قريباً جداً جداً.

وبدأت أعمال الشغب، فقالت الاذاعة إن العدو..

وتفجّرت أماكن، فسقطت ضحايا، فقالت الاذاعة إن...

ووقعت أحداث مريبة مروعة فقالت الاذاعة....

ثم أسقط العدو طائرة فقالت...

وقال عمّي، وافر الأوسمة: «الحال لم يعد مستساغاً البتّة..»، فتكهّنت وكالات الأنباء، وحدس الديبلوماسيون، وأرهص الناس، واستدعاني الحاكم لزيارته في مكتبه على عجل:

«أسمعت ما قاله عمّك؟». سألني المهيب الأسبق حانقاً.

«نعم». أجبته.

«فهل فهمت إلى م يرمي؟».

«إنه يهدّد العدو. أظن..». قلت ثم استدركت بحيطة أكاديمية.

«آه، أنت تظنّ.. ألا ترى في احتقار ذكائي إلى هذا القاع، قلّة حياء وحشمة؟ يهدّد العدو؟ عمّك؟ أيّ عدو؟ بحياة حماتك زوجة عمّك أي عدو يعني؟ العدو لم يسقط طائرة ولا فجّر مكاناً ولا اغتال أحداً. العدو الذي يقف وراء كل هذه الأعمال هو عمّك ومكتبه التجسّسي. العدو يحتقرنا لدرجة أنه لا يرى ضرورة أو حاجة للسرية أبداً، فهو يذبحنا يومياً وعلناً ويمسح سكّينه بكل البيانات والخطب والنداءات الدولية والإقليمية...».

«هذه اهانة لعمّي. يجب أن أعلمه بها كي يأتيك ويردّ عن نفسه..».

«أنت معي أم مع عمّك؟».

«أنا مع الوطن..»، قلت فعزفت الملائكة النشيد الوطني في حين كان لواء الأمة يرفرف فوق رأس جبرائيل، ثم أضفت: «ولكن سأتدبّر الأمر يا سيدي مع عمّي، فالذي أعلمه هو أنه يكنّ لسيادتك جزيل الاحترام والمودّة، بل إنه هو الذي لطالما حدّثني عن دورك التاريخي في سبيل...».

ومع عمّي تدبّرت الأمر، فدبّره مع نفر من أركان ديوانه:

عدت إلى ديوان الحاكم بعد يومين على زيارتي له، وفي اللحظة التي مثلت فيها بين يديه، كانت كتائب عمّي تقتحم المراكز والمنشآت الحيوية في البلاد، أي دار الاذاعة والتلفزيون وستديو مصوّر الدولة:

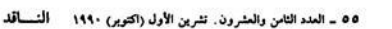
«هاه؟» سألني مستفهماً.

بوسعك أن تسمع ما يقوله في هذه اللحظة، من الاذاعة..».

كان في لهجتي لون أثار ريبه وقلقه، فالتفت إلى جهاز الراديو وفتحه وكمن لا يصدّق ما يعبر أذنيه. حملق إليّ مذهولاً عند سماعه عبارة «بلاغ رقم واحد» فقلت له: «لقد وعدتك بتدبير المسألة. وها أنتذا تراني قد فعلت..»، فتطلّع إليّ مندهشاً ثم خائفاً ثم موجوعاً وقد تكوّم على نفسه كدودة فوجئت بمسّ نار حارقة.

رصاصة واحدة فقط.







ما قيمة بلاد تقلب تاريخها رصاصة واحدة فقط؟
«السيد نائب الرئيس» صرت أُدْعَىٰ.

قد لا تصدّق ما تسمع، فهو يتعارض مع ما قد قرأت وسمعت، ولكن رويدا: فغداً يكتب تاريخ جديد، وغداً تعاد كتابة التاريخ العتيق، والحقيقة لن تظهر أبداً، فحقائق ثورات هذا العصر تكتب بقلمين، وصور قادة هذا العصر تطلع بلون واحد مرة وبلون آخر مرة أخرى، وبين القلمين وبين اللونين يغتصب الفقر سعادة الخلق وتطبق الخفافيش على الشمس ويسير الشرطي متبختراً وقد تدلّت هراوته تشهد أن ليس إلاّ السوط إلها يعبد.

قد لا تصدّق، ولكن الأمر جرى بالبساطة واليسر اللذين قصصت عليك تفاصيلهما. وصرتُ من ذَكَرْتُ، وصار أبي موضوع أحاديث صحافية لا تشبع، فعلمت من أين ورثت منجم الكذب الحنبريقي الفظيع الذي كنت أملك: كنت كلّما رأيت حديثاً، لأبي منشوراً، حسبت أنني أقرأ أخبار أخ لي مات قبل ميلادي، ولكن بعد أن بهر العالم باحساسه الصارم بالعدل وكرهه الغائر للظلم، وشيّب معلّماته في المدرسة لفرط نجابته وذكائه وحذقه، وهذه كلها صفات لا أعرف أنها من تاريخي، فمعلّمتي اعتادت أن تقول: «لقد رأيت من العجماوات البليدة، كل ما خلقه ربّنا، بيد أنّي لم أر أتيس من هذا الصبي.». أمّا مدير مدرستنا فلقد قال لي ذات مرة وهو يسلّمني ورقة علاماتي، وكانت قطبية المضمون، درجاتها تمعن في التزلّج نحو جذور الصفر المكعّب: «أنت صبي مبارك من سلالة مباركة، وأحسب أن جدّك الأعلى هو آخر من دخل فلك نوح عليه الصلاة والسلام. امض بنيّ فأنا احسب أنك ستكون عظيم الشأن، ففيك من صفات جدّك الأعلى المذكور بالخير، ذاك، ما يخوّلك الانضمام إلى زمرة ذريته الميامين التي تحكم هذه البلاد.. وعسى أن لا أكون حيّاً آنذاك..».

كان مدير المدرسة مخطئاً، فلقد تبيّن لأحد الباحثين أن نسبي يمتد حتى نوح عليه السلام.

أبي صار نجماً، أمّا أمي.. آه...

أمّا أمّك، فأمّك لم تتبدّل أحوالها، ولم تتغيّر نظرتها، ولا تحولت عن رأيها بأبيك «صنيعة ما بين فخذيها». لم تكن أمّك بذيئة إلى هذا الحدّ، ولكنها ترجمة سوقية كان يقدّمها دماغي كلما رأيتها تنظر إليّ، وقد ابتسمت ابتسامة ناقعة السمّ، لفرط صفرتها، وأنا أحتفي بزواري من كبار بلادنا أو غيرها من البلاد متنفّشاً ومسهباً في الحديث عن المسؤوليات الجسام، وكلما رأتني مع وفد من أهل حارتنا.

«صنيعة ما بين فخذيها». بلى، وصنائع ما بين النهرين، ذاك، قد تكاثرت وازداد عددها حتى خيّل إليّ أن مالها بين فخذيها، ليس ذاك الذي نعرف ونضطّر إليه، بل مبرّة أو دار خير يقصدها السائل والطالب وأبناء السبيل

لقد حاولت ولكنني سرعان ما كنت أجدني خائضاً في قاموس الجماع والسفاد والغلمة لأرسو بعد ذلك على شاطىء المقت والكراهية: مقت الذات ومقت الأخرى وكره هذا العالم منذ خالقه الأول حتى آخر فيض له.

وفي مرّة فتحت أمّك باب حظيرة مشاعرها فتعاورتني ذئاب أقوالها النابية بأنياب طوال حداد: فلقد أبصرتني أراقص سيدة أجنبية رقصاً تجاوز حدود الرقص المرسومة إلى ما وراء حدود المحظور من الأفعال، فقالت كثيراً وسفيهاً ومؤلماً حتى أجبتها مذكّراً بذلك المتاح المباح كمياه دولية، ومفتوح الباب كصيدلية أو مطعم، بين فخذيها، فهدّدت بالطلاق ووعدتني «سترى يا..»، ولفظ «يا» حرف نداء كما تعلم.

كان لابدّ من استرضائها، ليلتئذ، حتى همدت، فالكلب في أبيك أقعى وذيله بين فخذيه. أنا ما خفت الطلاق جزعاً على حبّ أكنّه لها، بل خفت لأني رأيت عاقبة الأمر بوضوح وجلاء صارخين ليس خراب كل ما عملت من أجله، ودماره وحسب بل ونهاية أبيك إلى زنزانة منفردة بتهمة ما: فكان لا بد، اذن، من تدارك الأمر، ولقد فعلت فكسب الوقت ولكن خسرت رجولتي والثمالة التافهة المتبقية من كرامتي في كأس تخيّلاتي المكسور، فأمّك لم تعد تحتاط فيما تفعل وتقترف من فاحش الخيانات وسوقيّها مما كان دماغي يترجمه دائماً ترجمة بليغة ذات بيان، وكان عمّي جدك يربّت على قروني الكثيرة المتشابكة وينصحني بالصبر ويعدني أنه سيكلّمها علّها ترعوي.

كنت في تلك الأيام، في غور حقارتي واحساسي بالهزيمة، والنساء اللاتي وردن إلى فراشي، صدرن عنه دائماً، بآلام وشكايات، وصحّ عندهن ما أشيع عنّي بأنني رجل عنين و«لذا تخونه المسكينة».

نكّست البلادُ أعلامها حداداً، وتقبّلتُ التعازي الحارة، وطلعتُ على الجماهير ببيان عاطفي بليل النص أَجْهَشْتُ فقراته بالبكاء، لِمَا فيها من وجدٍ ولوعةِ فقد، وعزّيتُ الشعب بأبيه الراحل العظيم إلى رحاب الله فما فوقها وهلمّجرا:

لقد انفجرت الطائرة العسكرية بعمّي ووفد رافقه إلى الجبهة لزيارة «أولادي» وأنا نجوت من القدر المشؤوم هذا بأعجوبة، أو كما قال رئيس تحرير جريدة يقبض بالعملة الصعبة «لأن العناية الالهية، لم تشأ إلاّ الرفق بهذه الأمّة..».. نجوت لأن صداعاً ممضّا ركبني فما ركبت الطائرة بل انطرحت على الفراش متأوّهاً.

«قتلته يا نذل.. يا مجرم.. أنت..» إتهمتني أمك صارخة.

«اقسم بالله العظيم..».. أدّيت اليمين الدستورية، فصرتُ صاحب الفخامة وأمل البلاد وحلم التاريخ وقد تجسّد، وفَتَحَ الكتّابُ متحفَ الشمعِ فتقمّصتني شخصيات التاريخ كلّها..

أتدري لماذا أذكر كل هذا الهراء والنفاق الآن؟ لتعرف مدى جفاف حياة أبيك ومدى حرمانه من الحب لماذا أذكر كل هذا الهراء والنفاق الآن؟ لتعرف مدى جفاف حياة أبيك ومدى حرمانه من الحب والصدق، لتعرف أنني.. آه عتمة..

من بين عشّاق أمّك، كان الصحافي والعسكري والموظّف والديبلوماسي، بل لقد بلغني أن عامل محطّة وقود في قرية نائية قد ملأ الخزّانين معاً. هؤلاء جميعهم سمعوا أمّك تتهمني باغتيال أبيها فكان أن باع الصحافي الخبر إلى صحافة الخارج، بعدما نشر كلاماً محتشماً لم يخل من جارح التلميحات، في صحيفته، ممّهداً له بحديث طويل عن الديمقراطية.

عندما يتحدّث صحافي عن الديمقراطية، بحماسة خوري يفصّل عجيبة الحبل بلا دنس، فلا بدّ من أن خازوقاً مدبّب الرأس، ثخين القطر يسعى مسرعاً إلى دبر مسؤول ما.

اختفى الصحافي، واختفت أمك. هل تذكر كيف تقوقعتَ مرتعباً في زاوية الغربة ليلتئذ، وأنت تعضّ قبضتك المضمومة، وتختلس النظرات الراعبة إليّ وقد جثمتُ على صدرها واحطتُ جيدها بقلادة شديدة من أصابع وعضلات وتّرها الحقد والرغبة الهائلة بالانتقام؟ كدت أبقي عليها رأفة بك وصوناً لدمع عينيك، ولكن نظرة واحدة

في عينيها ووجهها المطلي ردّتني عن عزمي وذكّرتني بأن الرأفة الحقيقية بك، هي في قتلها لا في الابقاء عليها، فأنا أقتلها ليس ثأراً لنفسي وحسب بل وحرصاً عليك، أنت ولدي، ابني، حبيبي ووارثي.. ثم أن ما رأيته في عينيها لم يكن ليردع قاتلاً، على ما كان فيهما من خوف وضيق...

لطالما فكّرت فيما بعد ذلك: أيعقل أن تحتقر الفريسة الضبع وقد راحت تمزّقها وتسحبها، أيعقل أن تبتسم الفريسة للضبع ابتسامة صفراء ناقعة، على رغم الهول؟

عشّاق أمّك، كلّهم حوكموا بتهمة التآمر، القانون واحد، ولكن التهم لا تختلف أبداً في بلاد أبيك. ثم تبيّن للاذاعة أن العدو يخطّط لضرب وحدة البلاد من الداخل، فامتلأت السجون، وامتلأت أعمدة صحف الخارج تهماً، وعاشت البلاد في تلك الفترة بين مدّ النفاق وجزر الارهاب. ثم ابتكرتُ عدواً ضربت له «المندل» فحضر من بطون الكتب...

عندما يكون للبلاد عدو واحد، فهذا يعني أن الجماهير ستسدّ بوزها حتماً، أما إذا كان لها عدوّان، فستكون الجماهير كقردة بلاد الهند: لا أرى، لا أسمع، ولن أقول إلّا ما يرضي الباش شاويش.

كنت قوياً، جالساً على صخرة لا تتزعزع ولا تميد، ولكن دون أدنى احساس بالأمن، بله الهناء والسعادة والغبطة، بكل ما هو موجود وجميل ويدغدغ شغاف القلب. لم أرَ جميلاً ولا شعرت بجميل ولا تقرّب جميل إليّ، وحتى أنت، أنت، ابني، لم تعد ابني بل صرت وجه أمّك بعينيها الجاحظتين ونظرتها المهولة الأخيرة ولكن دون ليمون الاحتقار الذي كان فيها. كنت تدنو مني مكرهاً، فتقبلني وكأنّك تفتح كتابك المدرسي أمام استاذك، وتنصرف عني مستعجلاً وكأن جرس المدرسة قد آذنك بانصراف، وكنت كلّما رأيتك مولّياً، شعرتني نخطة على صخرة، شيئاً حقيراً تافهاً ممجوجاً في نور الشمس ولكن في ظلمة ذاته وضعتها.. آه عتمة.

عتمة، عتمة، عتمة..

احتملتك كما يحتمل أب ابنه، كما تحتمل أم ابنتها. هي قدرة على الاحتمال مصدرها الذاكرة وقوامها الاستغفار والرغبة في التطهّر من مشاعر غابرة، فأبي أيضاً، قتل أمّي. صحيح أنها لم تمت كما يعرف الناس الموت، ولكنها ماتت منذ أول لكمة تلقتها فصارت شيئاً آخر، كائناً آخر، وما عادت إلى حالها القديم أبداً. ويوم دفنتها نظرت إليها نظرة أخيرة فراعتني على سحنتها ملامح المستبشر بخير قادم، فجزعت وبكيت. يخيّل إليّ أنها كانت تحسب نفسها مقبلة على بداية جديدة بكل ما في البداية من احتمالات كريمة طيبة. ولكن ما عساها وجدت؟ قبراً ببيت، ودودة ببعل، وكابوساً حالكاً بحياة زوجية..

عتمة، ظلام يا ولدي وظلم.

يسّرت لك كل عسير، فتحت أمامك السبل كلّها، أغنيت حرّ وجهك عن مذلة الزلفى التي لفحت وجهي وجعلت من روحي حديدة صدئة، مفتاحاً عتيقاً دفن في تربة رطبة، ثم طلع إلى نور الشمس فتفتّت. طرحت عند قدميك قلبي، لا لكسب حبّك، بل لنيل رضاك وغفرانك ولو للحظة، ولكنك بقيت أميراً: تشير فتطاع وتتألّف قلوب الخلق فيتألبون معك أصدقاء وأخوة ورفاق، وأنا لم أخش عليك من زيفهم ونفاقهم، فلقد عهدتك سيء الظن بالخلق شديد الحذر، حادّ الذهن، مجهول السرّ لا تأمن لأحد ولا تستسلم لأحد.. ولكن..

ولكن

لم تُبْق صفة ولا منقصة ولا مثلبة يا ولدي.. لقد خانك الحذر وفارقتك الحيطة فجاءني تسجيل كامل لما اتفقت عليه معهم..

جئتني كما وعدتهم، لتنالني من حيث نلت سلفي، خدعوك فقالوا إنك لست ابني، فأتيت ثائراً لأبيك وأمّك ولنفسك ولكنك سقطت صريعاً.. لم ترعو بل شهرت مسدسك وهممتَ فسبقتُكَ، وجئتَ أنت ثانياً فيدك لم تخطىء..

عتمة يا ولدي عتمة...

عتمة، وأبوك سيستحيل موضوع حديث ديني عمّا قليل، هذا إذا رضي الانقلابيون بتهيئة آية مراسم لكلينا..

عتمة يا.... □

الوصية

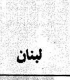
يوسف سلامة

■ ليلة مات عمّي الدكتور سعيد نحّاس، كانت زوجته، عمتي سعيدة، خارج البيت، وكنت أنا جالساً بالقرب من فراشه أروي له، كعادتي، حكايات من مغامرات العمر وخيالاته. وكان عمّي يستمع بلذّة إلى حكاياتي وهو ممدّد في فراشه الضيّق الذي لم يبرحه منذ ستة أشهر، حين أصابه وأقعده فالج خبيث شل النصف الأيسر من جسده ابتداءً من أسفل قدمه اليسرى صعوداً حتى لسانه وجفنه، وصولاً إلى أجزاء هامة من خلايا دماغه.

ذلك المساء كنتُ أقصُّ عليه، على ما أذكر، حكاية رومي الجميلة التي التقيتها في أحد بارات هامبورغ فلاحَظتُ تغيُّراً في لون وجهه. احمرّ ثم اصفرّ. اهتزّ جنبه المعافى. ارتفع قفصه الصدري ثم هبط. أنّ وصرخ مرّة ومرّتين. فناولته على الفور كوباً من الماء وحبّة صغيرة صفراء كان الطبيب قد وصفها لها ونصح باستعمالها في الحالات الطارئة. وبعدما هدأ تنفّسه وعاد إليه بعض لونه، مسح اللعاب الأصفر الذي انساب على خدّه الأيسر وأشار إليّ بمتابعة حكايتي.

قلتُ له، وبالي مشغول عليه، ان رومي كانت دلّوعة، وأني أطعمتها وراقصتها خداً إلى خدّ، وملأت أذنيها بالأكاذيب عن حَسَبي وَنَسبي وحُبّي لبلادي، وأنها أخذتني بسيارتها عند المساء إلى بيتها الصغير على شاطىء بحر البلطيق حيث عَرّفتني إلى صديقتها الطويلة رامونا وهناك قدّمت لي الشراب وراقصتني من جديد وفركتْ جسدها الطري على جسدي، وصدرها العارم على صدري، واقتادتني قرب منتصف الليل إلى غرفة نومها وانزلتني ضيفاً عليها.

وتوقّفتُ لحظة عن الكلام فسألني عمّي، رغم تعبه الظاهر وتنفّسه الثقيل: «وبَعْدان، شو صار؟» قلت: «بَعْدان، خَلَعَتْ ثيابها بهدوء، ولبست قميص نومها المعرّق القصير، وقبّلتني، وتمنّت لي نوماً مريحاً، ◄



وطارت كالفراشة إلى غرفة رامونا المجاورة.

من فتحة فمه اليمنى، أطلق عمّي أنّات امتزج فيها الألم بالاشمئزاز فأغمضت عينيّ قليلاً لاسترجاع الحنين والذكريات، ثم تابعت: «وهكذا طال الليل وتمطى حتى الفجر، وأنا جالس على الفراش المطلّ على البحر الصاخب، استمع إلى هدير الأمواج وقد امتزج بأنين رُومي وتأوّهاتها الصارخة بألم اللّذة، الى...».

وقبل أن أنهي سرد مغامراتي جمع عمّي أنفاسه وحبس الهواء في رئتيه وصرخ أعلى صرخة سمعتها في حياتي. ثم استجمع قواه وثبّت نظره عليّ. حرّك جنبه المشلول. حرّك رجليه وخصره وصدره وشفتيه وجفنيه. مدّ يديه الاثنتين إلى أعلى وأمسك بعُنُقي وشدّني إليه واطلق أصواتاً وكلماتٍ متقطعة لم أفهم منها سوى: «خذني... إلى... المـ...».

ثم خارت قواه. وسَكَت.

تناولت كوب الماء ووضعتُ حبّة من الدواء في أعلى حَلقِه وطلبتُ منه أن يبلعها. لكنّه لم يأتِ بأيّ حركة. رفضَ أن يحاول أو أن يستجيب لي. كان قلبه قد سكت إلى الأبد.

عادت عمتي إلى البيت، وبعدما شكرتني على اهتمامي بزوجها سألتني عن حَاله فقلت لها: مات. للوهلة الأولى لم تعِ ما قلت، فتابعت عبارات الشُكر والامتنان، ثم خيّم الحُزن على وجهها، وخارت قواها وانهمرت الدموع من عينيها وابتدأت بالنحيب والولولة. امسكت بها، قبّلتها وساعدتها على الجلوس قرب جثمان عمّي، وقلتُ لها إني سأقوم بالاتصالات اللازمة لترتيب مراسم الدفن والتعزية، وختمت بأن عمي سعيد أراح واستراح.

اتصلت بالأصدقاء والأهل والأقارب، بالكنيسة الانجيلية وبأحد متعهدي دفن الموتى، بالطبيب وبشركة تأجير كراسي الخيزران والقش. وجاء المُعزّون، وفارت رَكوات القهوة، وعَلَت الأصوات والتأوّهات، وارتفع الصراخ والعويل في أرجاء البيت، وكان صوت عمتي يغطّي الأصوات كلها.

عند منتصف الليل، وبعدما غادر آخر قريب وحبيب، قلت لعمتي إني ذاهب إلى شقتي لأستريح قليلاً، فسألتني بصوتها المبحوح عن آخر كلمات قالها عمي قبل أن يَلفظ أنفاسه، فأجبتها بأنه مات بسرعة غريبة كما يموت الناس في الأفلام، وأنه لم يقل شيئاً هاماً. واستدركت فأخبرتها أنه قال: «خذني إلى المـ...» ولم يكمل كلامه. فصرخت: «يا حرام. أراد أن تأخذه إلى المستشفى. لو سمع مني وبقي في المستشفى. لكنّه يا حرام، كان يُفضّل البيت على أي مكان آخر». ثم ضَمّتني إلى صدرها وقبّلتني وعادت إلى فراغ وحدَتها.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة. بقيت ممدّداً على فراشي وأنا أحدّق في سقف غرفتي، وفي الخيالات المبعثرة على امتداد الجدران الضيّقة.

فكّرت بموت عمي، بالحياة والأبدية والفراغ واللاشيء، وبوجود الله وبعدم وجوده. وفكّرت بالثوابت والحقائق المطلقة، وضحكت وقلت لنفسي باللهجة المصرية: «مطلقة بالنسبة إلى ايه!» ثم تشتّتت أفكاري وضاعت، وأخذت الخيالات تُغلّفني وتنسج حولي غطاءً شفّافاً من الذكريات والأحلام:

... هذه فرجينيا تلعب بالثلج في شوارع هانوفر. تَرْكُض تحت المطر. تقهقه ملء رئتيها. ترفع رجليها النحيلتين نحو النجوم المعَلّقة في أعلى السماء، وتصرخ بصوتها المُتهدّج: «أحبّكَ. أحبّكَ». وأنا على صهوة حصاني الأبيض أقطع السهول والبراري مفتّشاً عن هويتي وعن شمس بلادي الحارقة.

... وهذه هِلدَجَار. نبيلة من نبلاء الغابة السوداء. أميرة من أميرات العصور البائدة. شعرها أشقر كسنابل الخريف. بنطالها جلدي أسود كانعدام اللون. تصطاد الغزلان والوحوش البريّة بالقوس والنشاب، وتتهادى بغُنج في مراقص دوسلدُورف وملاهيها. أقول لها: «افتحي رجليك قليلاً»، فتتلوّى وتُلَمّحُ بخجل مصطنع إلى أن الدِّيْن ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله.

... وهذه حياة - يا حياتي. مواطنتي ومعبُودتي. تطلّ عليّ من أعلى السقف بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة. كُدتُ أنساها وأنسَى اسمها. لكنها هنا، معي، إلى جانبي على مَقعدِ سيارتي. تمدُّ يدها وتمسك بيدي. في عينيها وفمها توق إلى شيء. أضمها إلى صدري وأقبّلها. أقبلها بحنان وأقبلها بعُنف. فتحمرّ وجنتاها ويفور دمها وتضع رأسها في حضني. ترتجف وَتئنّ. تغوص في اللّذة وتتوجّع. أضع يدي على ركبتها، فتنتفض بكبرياء وتتحوّل إلى جبل من الجليد العائم. أسحبُ يدي مُتذكّراً كلامها عن شرف الفتاة وعُود الكبريت.

نهضت من فراشي في الصباح الباكر، اغتسلت ونظّفت أسناني ولبستُ بذلة داكنة اللون وربطة عنق سوداء وتوجهت إلى بيت عمتي. اجتمعت إلى بائع التوابيت، ممثل شركة دفن الموتى، وكان أول الوافدين. أفهمته أن عمتي تريد لعمي تابوتاً واسعاً مريحاً ومبطناً بالريش الناعم والحرير، ومصنوعاً من خشب الجوز، ومرصّعاً بالفضة والذهب. ثم استقبلتُ الشاحنة المُحمّلة بكراسي الخيزران، واشرفتُ على تفريغها ونقل حمولتها إلى غُرف البيت التي أعدّت لاستقبال المُعزّين. وقبل وصول الأهل والأقارب جاء القسّ أنيس متّى، راعي الكنيسة الإنجيلية، ليُواسي عمتي بمصابها وليستلهم الأفكار السرمدية للعظة التي كان يُعدُّها. فاغتنمت فرصة وجوده بيننا وقلت له إن الطقس حار ويجب ان نُفكّر براحة المُعزّين ونُسْرع في عملية الصلاة والدفن قدر الإمكان. فأدرك قصدي، وهزّ حاجبيه الغليظين وقال بنبرة الواثق من نفسه: «راحة الروح، يا ابني، أهمّ بكثير من راحة الجسد».

دخلت الكنيسة المكتظة بالمعزّين متأبطاً ذراع عمّتي سعيدة، وسرنا نحو الصفوف الأمامية المخصّصة لأصحاب المقامات العالية ولأهل الفقيد، وجلسنا على أول مقعد قرب التابوت المغطّى بالأكاليل والزهور. ثم وقفنا ورتّمنا على أنغام البيانو الذي كان عمّي قد أهداه إلى الكنيسة يوم ميلاده الخمسين. رَتّمنا «يا عسكر الرحمن»، ورتّمنا «نلتقي عن قريب»، وبقينا نقف ونرنّم ونجلس حتى صعد القس منبره ووقف فينا واعظاً.

لا أدري ما أصابني وأنا استمع إلى عظة القس متّى. راقبته لدقائق وهو يرفع حاجبيه وينظر حوله بصمت. وعندما هَدأَتْ الأصوات والوشوشات وخيّم على قاعة الكنيسة سُكون الترقّب، مدّ يده باتجاه عمي وقال بصوت جهوري بطيء ما قاله سيّبُهُ منذ ألفي سنة: «نفسي حزينة حتى الموت». أعادها مرة ومرتين ثم أخذ يبتعد عني ويتحول إلى دمية متحركة لا يُسْمَعُ لها صوت. وكنت بين الوقت والآخر استعيد وعيي فأسمع بعض كلماته قبل أن يعود ليَتَقمّص الدمية من جديد. وبقيت على هذه الحال فترة طويلة من الوقت وأنا أراقب الدمية وأصحاب المقامات الرفيعة، والأكاليل والزهور، واسترجع الأيام، وأتحدث بصمت إلى عمي، الممدّد في



فراشه الضيق، أقصُّ عليه حكاياتي وأستمع إليه وهو يخبرني حكاياته من فتحة فمه اليمنى.

الطائرة القادمة من فرانكفورت تهبط على مدرج المطار. أقول لنفسي: «يجب أن أراه قبل أن يموت». وأقول للسائق: «اسرع. اسرع. إلى مستشفى الجامعة». المُمرِّضة تقول: «عمّك سعيد زال عنه الخطر، غادر المستشفى بسرعة وعاد إلى بيته»، وعمتي تقبلني وتذرف الدموع وتتمتم وتقول: «فالج لا تعالج. أدخل يا ابني إلى غرفته، سَأل عنك أكثر من مرّة». ويرتفع الصوت الواعظ: «يحبّون مقاعد الشرف في الولائم ومكان الصدارة في المجامع».

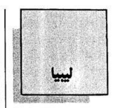
أشدّ على يد عمّي مشجعاً. ارسم له صورة عن بعض نواحي الحياة في المجتمعات الحية. أحكي له عن ملفينا وماتيلدا وبربارة وفيلومينا. أقول له إن المال يطير ويعود، أما الحياة فتكرّ كحبات المسبحة وتضمحل في اللاوجود... ويرتفع الصوت: «يحزمون أحمالاً ثقيلة ويلقونها على أكتاف الناس».

أصِفُ له نساء برلين وميونخ وفيزبَادِنْ وغيرها من مدن المانيا الفقيرة الكادحة بعد الحرب. أصفُ له بشرتهن الناعمة وسيقانهنّ الطويلة وخصورهنّ النحيلة ونهودهنّ الجامحة. أطلعه على سرّ المهنة وأعده بأن اصطحبه معي في الرحلة القادمة. أخبره أن أبواب المانيا مُشرعة أمامه: تذكرة سفر سياحية، دزينة كلسات نايلون، قليل من مساحيق الزينة والقطع النادر - ولبّيك. اغمض عيناً وافتح عيناً وها أنت في عالم جديد ما عرفت مثله حتى في أحلام صباك. لا تفتش عن المرأة. هي بين يديك. هي نصف سكان الدنيا. افتح حقيبتك وانثر القليل من النقد النادر. وزّع المساحيق وكلسات النايلون. نَمْ على ظهرك ونَمْ على جنبك ونَم على بطنك. ارفع رجليك في الهواء، أو دَلِّهما إلى جانب الفراش. قلّد الضفادع والخنافس والطيور والكلاب ودَبّابات الأرض. إسرح في سهول العبث وامرح في مراعي اللذة... ويرتفع الصوت قائلاً: «تظهرون للناس صالحين وباطنكم كله رياء وشره».

يبتسم عمي ويقول إنه لا يعرف أوروبا، وإنه أمضى حياته كلها في جمع المال وفي تنظيف القذارات من أفواه الناس. أسأله كيف اختار مهنة طب الأسنان فيقول وهو يحاول الضحك إن بغلة المكاري هي التي اختارت له مهنته أيام الفقر والقلة والتعتير. يتنفس بصعوبة ويستطرد موضحاً أن بغلة المكاري حسن رَفَسَتْ والده أيام زمان وهو في طريقه من بيدر القرية إلى بيته، وأن والده عَرَجَ أكثر من كيلومترين، وهو يصرخ ويئن من الألم في فخذه الأيمن وخاصرته، حتى وصل إلى الكنيسة في ساحة القرية. وشكا أمره إلى الخوري افتيموس، ابن عمّه، الذي أنّبه قائلاً: «الطريق واسعة يا ملحم. فما هي الضرورة لأن تَدْحش نفسك في قفا البغلة؟» عندها، قال عمي، فار الدم في عروق والده، فقصد أكبر إرسالية تبشيرية واعتنق المذهب الإنجيلي، ومع الأيام انتقل هو وعائلته إلى المدينة حيث رَبّى أولاده الخمسة وأطعمهم وكساهم وعلّمهم مجاناً بنعمة الرب ونعمة ممثليه على الأرض، وبفضل بغلة المكاري حسن... ويرتفع الصوت من جديد: «لن يترك هنا حَجَر على حَجر بل يُهدم كلّه».

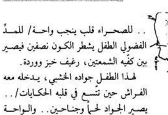
أهزّ رأسي بقوة كي أطرد الأشباح والخيالات، فأسمع صوت القسّ عالياً بالصلاة، وأسمع صوت البيانو القديم، وصوتَ عمي في تابوته المرفوع على أكتاف الشباب. أتمسّك بذراع عمّتي وأمشي معها بثقل وراء النعش نحو المقبرة. الناس تردد: «الله يرحمه». القس يصلي ولا يتعب. الحَجر يُزَاح والتابوت يُدفع ويغيب في ظُلمة القبر. عمتي تصرخ وتفلت مني وكأنها تريد أن تدخل مقبرة العائلة مع شريك حياتها. أمسك بها وأهمس في أذنها: «عمي، الله يرحمه يُريدك أن تعيشي حياتك كلها»، فتشهقُ وتقول لي بصوت متقطع. «لو سمع مني... وبقي في الـ... مستشفى....».

أسمع كلامها وأنظر إلى عينيها الدامعتين وأحاول أن أفكر. أغمض عينيّ وأهزّ رأسي كي أطرد كابوس الموت، وأتبيّن الصورة المهتزة في مُخيّلتي: عمي سعيد يشدّني إليه ويبتسم، يتحدّى القضاء والقدر. يحرك ذراعيه ورجليه وشفتيه ولسانه وعينيه. عمي سعيد يصرخ في وجه الموت والمستشفيات وأشباح الظُلمة. عمي سعيد يهمس في أذني كلماته الأخيرة. عمي سعيد لا يريد أن يموت مقهوراً. عمي سعيد يُريدني أن آخذه إلى «المـ...» إلى عالم الحياة، إلى عالم الجمال. نعم، عمّي سعيد يريد أن يذهب إلى المـ... انيا. □



مساحة اللون

سالم الهنداوي



.. للصحـراء قلب ينجب واحـة/ للمـدّ الفضولي الطفل يشطر الكـون نصفين فيصير بين كفّيه الشمعتين، رغيف خبز ووردة.

لهذا الطفـل جواده الخشبي، يـدخله معه الفراش حين تتّسع في قلبه الحكـايات/.. يصـير الجـواد لحماً وجنـاحين.. والـواحـة كوكبها الجميل.

الصحراء أيضاً مثـل تلك السماء، لا فـرق أن تكون السـماء بلون الرمل، والكوكب المُدهِش بلون الواحة الخضراء.

كان الطفـل لا يعنيه أيّما شيء حين صـارت اللعبة جـواداً حقيقياً بحجم الـرغبة. سيحمله إلى شـطريـه.. رغيف الخبـز المحلوى، والآخر وردة.

هل انتظرت زمناً في محطة القطار بـ «ستوكهـولم».. ومنحتك فتـاة وردة؟

ماذا يصير الكون في حدقتك الغائبة؟

ـ «يصير الكون وردة!»

وهـذا، طفلنا الفضولي يُشطِرك من حيث لا تـدري، إلى خبـز ووردة.

«معنى أن تصبح أنت الوقت».

دمعتـان همـا، دمعتـان بلون المـاء.. حبتـان صغيرتـان من قلب امرأة. ولأنهما من هذا النبع فهما نهران من أغنيـة تشطر حنينك إلى لغمين: لغم للطفولة... ولغم لهذا الوقت الذي أنتَ سيّده.

«الواحة عربة أحلامنا».

يخطب «المادونا» في ساحة فكتوريا بوارسو:

ـ «أنـا غريب» ابن عـاهرة.. رأيتُ أمّي في عـربات القسـاوسة ترشُّ ماء الزهر في طريق البابا.. تكذب، الـزهر ليس زهـراً.. إنه غسيل خطاياها...».

وتصيح «كريستينا» في روما العظيمة تحت أقواس الفاتيكان:

ـ «يوحنّا كان يضاجعني من الخلف..

كان يراني مريم، ويقفل الهاتف في وجه النبي....».

ويسبق الطفل الوقت إلى الواحة. جواد من لحم مفكّك في حضن الواحة التي صارت وردة ونحلة.

هـذا هو الـوعد.. يـطهِّرك الفضـاء/ سماءً أو رمـل/ دمعتـان أو نهران/ يـطهِّرك فضـاؤك.. تمسك بـأصـابعـك الفـرشـاة وتـرسم فضـاؤك.. تـرسم واحتـك.. تـرسم وجهـك.. تـرسم الآيـة من أوّلها...

طفل عارٍ في واحة جديـدة، هي عربـة تحملنا إليكَ أيها النبي في مشواك الأخير حيث حبّات العنب مصابيح ونجوم، وحواء تسأل أطفالها الطّيبين بلا تردّد، وطفلاً يحمل شـطري الكـون في كفّيـه الشمعتين، تسأله بود: كم ادّخرتَ من النقود لشراء هـذا الكـون المشطور إلى خبز ووردة؟ يجيب الطفل البدوي:

ـ «سمعتُ قصص الأنبياء ذات ليلة حتى غفوت، غطّتني أمّي بردائها العـابق. كنتُ أتحسّس جـوادي الخشبي وأنـا أفكّر بهؤلاء جميعاً، حتى صارت النجوم مُلكي وأنا سيّدها.. بعـدها.. بعـدها نمتُ يا سيدتي يـا أمّي ورأيتُ ما رأيت... الجـواد والفضاء/ النحلة والوردة/ أنا والـواحة. خليط.. خليطٌ يـا سيدتي يـا حبيبتي، السيِّد فيـه هـو الخبـز.. أدركتُ بعـدهـا أن دقيقـه مستحضرٌ من الخطايـا والذُّرة..

كـان الطفل بين ذراعي أُمه يحكي. ما أفـاق الطفـل والله حتى أكمل:

ـ إنهض.. إنهض يا عمرو أنت تهذي.

كـان عرق الـطفل حليباً وعسلاً.. والجـواد الخشبي مفكّـك.. والواحة في الحلم هنيهة نضيق في حدقتي الأم..

ويفيق طفل الوقت منتشياً لسماع المزيد من قصص الأنبياء. □

ثلاث قصص

سالم العبّار

١ ـ العلاقة

(حبَّة قمح + تراب + ماء = ...»

طحين + ماء + نار = رغيف.

لكن «أم بسيسي»[1] تملك غـذاءً آخـر، تملك اللبن. أرسلتني أمي لاستعـارة صحن منهـا، فحـذّرتني من شرب اللبن، لكنني خـالفتُ أمرها وفعلت، فقطعت ذيلي.

ـ لن أرده لك قبل أن تأتيني برغيف خبز.

دعوتُ الله أن يمنحني أرضاً خصبة. جلجل صوت تحت قدمي:

ـ لن أهبك أرضاً قبل أن تأتيني ببذرة.

فتّشت في سجلات الذاكرة عن شكل البذرة فما وجدت.

عُدتُ إلى «أم بسيسي» أسألها عن شيء اسمه البذرة. قالت:

ـ لو أوجدت البـذرة إذن لأوجدت الـرغيف. ولا بد للبـذرة من تراب، ولا بد للتراب من ماء.

عُـدتُ مُنكّس الـرأس. أذرف الـدمـوع. ارتـوت الأرض واخضرّت، عُدتُ إلى «أم بسيسي» بمحصول وافر، لطمتْ به وجهي وقالت [هذا حطب نَمّ][2]. رجعتُ لا أفكّر في شيء سوى أن استغني




عن ذيلي وإلى الأبد).

وصمت الطفل عن الحديث. كان طفلاً من ثلاثة يمدون أيديهم إليّ بإلحاح يطلبون الرغيف. قُلتُ للأول والثاني:

ـ اذهبا إلى ذلك المندلق البطن واحضرا إليّ دمه ودمامل شدقيه.

ضغطت الدمامل بأصبعي، برزت بثور بيضاء، خلطتها بالدم، وشكّلت وجه الرغيف. مددتُ الخليط للثالث وكان أكثرهم إلحاحاً في السؤال قائلاً: ضعه على فؤادك الملتهب.

بعد لحظات لم أعد أرى أطفالاً، رأيت ثلاثة فئران طويلة الذيول تقضم حقول القمح، فأدركت سر العلاقة بين الفأر والسنبلة.

ـ ٢ ـ الفيضان

(أ)

وقف رجال القرية وراء الشيخ «سعدون» لتأدية صلاة الاستسقاء، لكن المطر لم يسقط. أحدهم رفض تأدية الصلاة وقال إنه سئم الوقوف والدعاء، لكن الشيخ «سعدون» زجره قائلاً: ثمة شعوب تقدم الضحايا من أجل أن تفيض الأنهر.

(ب)

تسلّقت نظرات الطفل ساقين أسودين نحيفين قصرت عنهما العباءة التي لعبت بها زوابع ترابية سريعة الحركة. صوت رفرفة العباءة والساقان النحيلان يرسمان شكل بيوت الشعر المبعثرة في الفضاء بدّل الصوتُ سبيل البصر.

ـ لا تخف. أنا الشيخ سعدون.

رفع الطفل بصره. رأى الأسنان المصفرّة يلتصق بها الغبار وكية مبعثرة كنبات الصحراء، أطبقت اليد على معصم الطفل:

ـ افتح كفك.. لا تخف. افتح كفك لتهدأ هذه الزوابع التي تثيرها الشياطين.

فتح الشيخ عينيه على اتساعهما يطالع خطوط الكف، صارت الكف بمساحة المكان، خطوطها شقوق الأرض العطشى. ربت على كتف الطفل، وقاده من يده يشقّ به دروباً وعرة، والطفل يفتح فمه مذعناً لإرادة السماء. حيناً يلتفت إلى الوراء فيرى الخيام أعشاش قُبّرة حين وصل الشيخ إلى واد بين جبلين وقف متمتماً بعبارات غير مفهومة. خطا إلى الأمام ثلاث خطوات ثم إلى اليمين ثلاثاً، ثم هجم على الطفل، وأخرج السكين، وحزّ رقبته. انبعث دخان من باطن الأرض. وأشرعت الأرض أبوابها كاشفة عن كنوز مخبأة.

(جـ)

للمرة الرابعة هذا العام يقف رجال القرية وراء الشيخ سعدون لتأدية صلاة الاستسقاء، وهاهم يطلبونه لصلاة خامسة ولا يجدونه ولا يجدون الطفل، حتى كاد يصير ذكرى باهتة سوى جملته التي قال فيها: «إن الشعوب تضحي برجالها من أجل أن تفيض الأنهار».

(د)

بعد شهور، عاد الشيخ سعدون إلى مكان الحادثة ليرى ماذا حلّ بالطفل. لم يجد سوى بقايا عظام. وبغتة انهمر المطر بشدة، وفاض الوادي لتصل الجثة إلى القرية. منذ ذلك اليوم استحدثت القرية تقليداً جديداً كلما جدبت الأرض وهو أن تلقي بشيوخها في الوادي حتى يفيض.

٣ ـ كم المساحة الآن؟

يقتنص الزمن من الزمن مساحة مستديرة، كشكل في الكون، كرة داخل الكرة. المساحة باتساع خاتم سليمان. ينزل الخاتم، يتوسّط الفضاء، تحتل مساحته صورة سليمان. يهبط الخاتم يكتشف الأرض. رفرفة أجنحة ولغة متداخلة الحروف. سليمان يطالع قصة الحمامة التي باضت في مدخل الكهف. رفع رأسه. طيور تقترب. حرّك خاتمه. صفّق يدعو الطيور للمثول. حيناً تنظر إليه بإطراقة حزينة، وحيناً تنبش الأرض باهتمام، اقترب منها. رفعت رؤوسها واجمة. أشار إلى حمامة بيضاء، لكنها تشاغلت عنه بنبش الأرض. أمسك بها. صرّحت بحديث لم يفهمه. ردّد السرب ذات الحديث. حرّر ورقة وحاول ربطها بجناح الحمامة. فاضت عيناها بالدموع. ارتفعت الأعناق تنظر إلى علٍ. نظر سليمان ليرى الهدهد على جذع شجرة. أشار إليه. حدّثه كثيراً، لكن الهدهد لم يرد. مدّ إليه الورقة. انخرط الهدهد في بكاء صامت، لكنه قَبِلَ الورقة صاغراً وفرّ مودّعاً.

جلس سليمان ينتظر. الحمائم انشغلت عن حضوره تماماً، غاب في إطراقة طويلة. ثم قفز بغتة على لسعة في ساقه الممدودة. رفع رجله. كانت ثمة نملة تقتنص طعاماً. وقف ينتظر. لكن الهدهد لم يعد. لحق به. وعلى مقربة من المكان، انبعثت رائحة شواء وقابلته الرياح بريش وبقايا ورقة ممزّقة. المساحة الدائرية تذوب، أو تضيق، أو تتسع. لا أحد إلى الآن يعلم. □

١ ـ خرافة شعبية ليبية.

٢ ـ اسم يطلق على نوع من النبات.



جلباب من الزفير المقلم

خيري شلبي

■ أن يشتري لي أبي جلباباً جديداً، أمر ليس سهلاً، لأسباب كثيرة، لا أبي يبوح بها، ولا أمي تريد أن تشرحها لي، إنما تظل تضربني وتقرصني في مواضع موجعة كلما عدت بالثوب مفتوقاً أو ممزقاً. إن كان مجرد فتق فإن القرصة لا تكون موجعة في العادة، إذ الفتق يسهل إعادة تخييطه ولو بجعل الفتلة «مجوز»، حتى لا تتفتق الخياطة ثانية، مع تضييق الغرز وتجميدها وعقد آخر الفتلة. أما إن كان تمزيقاً فإنها ربما ضربتني بقحف الجريد حتى يلتم القوم على صراخي ويخلصونني من يديها، وهي تنتفض صارخة مولولة: «حيرني ياخواتي، ربنا يحيره! أجيب له منين كل يوم جلابية! طهقت منه يا مسلمين!».

حينئذ أكتم بكائي شاعراً بالخزي، فلا بد أنني أتيت بتمزيق الثوب أمراً خطيراً يحق لأمي أن تشهد على جرمه كافة المسلمين!

حرمت على نفسي الخناق، بل امتنعت عن اللعب مع العيال نهائياً، خوفاً من أن يشد أحدهم ثوبي ولو دون قصد فيتمزق. لكنني لم أكن أملك ذلك، فكثيراً ما يجر الأولاد شكلي بدون سبب، ربما لأنني لا أجر شكل أحد. يضربني أحدهم، فأضطر إلى الإمساك بخناقه، ولكن سرعان ما أنسحب قبل أن يتمكن هو من شد ثوبي.

على أن الثوب اللعين يتمزق وحده. أصحو من النوم فأراه ممزقاً من الكتف، فترميني أمي بالمسؤولية أيضاً، لأني بنومي العفاريتي تمطعت في الثوب فمزقته. أخرج إلى الخلاء لأقضي لهم طلباً من الدكان. أحاول صعود رصيف الدكان، فينخزق الذيل، فأرجع إلى الدار باكياً.

هذا الذيل فشلت أمي في علاج رتقه من كثرة ما تمزق، فتعلمت أن أخيطه بنفسي خلسة. وقد تعلمت أن أخفي إبرة وخيطاً ملفوفاً على ورقة والإبرة مشبوكة فيها لكي أستعملها كلما احتجتها، وربما احتجتها في اليوم الواحد أكثر من مرة

كانت الأمور تجري في سلام، لكنني بدأت ألاحظ أن ذيل الثوب قد بدأ يضيق ويضيق، فكلما خيطته مرة أخذت من وسعه في الخياطة، حتى بات الذيل في اتساع كم جلباب أبي وأصبحت مضطراً للمشي بحساب، ما أن أمد القدم حتى أوقفها لتتحرك الأخرى. ذلك أن اتساع الذيل لم يعد يعطي لقدمي حرية الحركة، فكنت أشعر كأن قدميّ تلفان حول بعضهما، فأقع، فأصير هزأة للعيال، فأبكي بكاءً مراً مقهوراً.

عندما أتعب من البكاء وحدي، أراني قد انحزت إلى ركن قريب وتكورت فيه مستغرقاً في نوم، أراني خلاله أركض في أزقة وحوار غامضة في بلدان لا أعرفها، ألتقي بناس لا أعرفهم ولا يعرفونني، والدنيا ظلام غطيس، وأنا عار تماماً، وعامود رفيع وافد من الشمس من خلل سقف الظلام مسلط عليّ وحدي دون الآخرين، ويمشي معي فأشعر بخجل شديد من فضح عورتي.

صحوت قلقاً ذات ليلة على يد تعبث بي، فحدقت مذعوراً في جوف الظلمة المخيمة على حجرتنا. تبيّنت فوق خيمة الظلام ثمة مصباح غاز نمرة خمسة يرقد كلاجىء صغير فوق رفه القصيّ قرب السقف، عارياً هو الآخر، فثوب ضوئه ممزق هو الآخر من كل ناحية. ورأيت أبي، كان يحاول تغطيتي وعدل جسدي في الفراش، ويتحسس بقايا ثوبي، ودموع على خديه، وعماص في عيني يعكس المصباح عشرات المصابيح. خيل إليّ أنه الحلم، فأغمضت عيني وغبت تماماً، لكنني صحوت من جديد على يد تهزني، ففتحت عيني، فرأيت وافد الشمس العمودي في عيني مباشرة يتساقط من خلل سقف الحجرة بين أعواد القش والحطب محملاً بذرات التراب حاملاً لون البرتقال، اعتدلت جالساً. رأيت أمي جالسة عند قدمي في نهاية المصطبة الكبيرة المبتلعة فراغ القاعة تنتهي بسلم جوار الباب، بجواره فرن الخبيز. كانت أمي لحظتها تحمل قطعة قماش من الزفير المقلم، نفس قماش جلبابي الذي رحت أجمع بقاياه حول جسدي فيا أدعك عيني، وحتى باللون نفسه، قالت أمي بشيء من السعادة المشروخة وهي تقدمه لي: «خلي خالك المعلم فرحات الخياط يفصله لك بلدي! من غير ياقة ولا أساور!».

فتحت عيني جيداً وفمي لكي أحتج، فإذا بي أرى رجلاً يجلس في مواجهة أمي على المصطبة. عرفته، إنه «علي سرحان» الفلاح المترف، النظيف الثياب على الدوام، المحمر الخدين. كان يبتسم ابتسامة طيبة. اندهشت من وجوده في هذه اللحظة في قاعتنا مع أنه لم يزرنا في حياته من قبل أبداً.

حين تخلصت جفوني من شبكة العماص الناشف رأيت أمام الفرن جوالاً وقفتين بهما قمح وذرة، فتعاظمت دهشتي لأننا في العادة لا نشتري هذه الكمية للطحين. بالكثير نشتري ملء قفة كل جمعة.

اقترب «علي سرحان» وربت على ظهري برفق قائلاً: «امش يلا بقى؟!».

التفت إليه مذعوراً، وقالت أمي: «يلا اغسل وشك عشان نفطر ونتكل على الله!!».

التفت إليها. أخذت أهرش في جنبي توقعاً لخبر داهم. وقبل أن أفتح فمي، عرفت أن هذا الرجل قد اكتراني بهذه الكمية من الحبوب، وبهذا الثوب، لمدة ثلاثة أشهر، للعمل كنفر في نقاوة الدودة، فهو يملك فدان قطن تبع الاصلاح الزراعي. وعلى كل صاحب فدان أن يقدم للاصلاح نفراً. وعليّ أن أستيقظ كل يوم قبل شروق الشمس، لألحق بفرق «المقاومة» عند ملم الأنفار، لأعود بعد غروبها. وعليّ أيضاً حين يجيء كاتب الاصلاح ليحصر الأبقار قائلاً: «علي سرحان»، أن أرد قائلاً: أفندى. □



الحجة

احمد حجازي ربيعي

■ بالباب العالي أعلاه الله سبحانه وتعالى وشرفه بمصر، أحال حضرة سيدنا ومولانا فخر السادة قاضي القضاة الموقع بخطه وختمه الكريمين دام علاه آمين، النظر في ما سيذكر على حضرة العلامة الشيخ رفعت أفندي صديق والذي حضر بين يدي حضرته الأمثل المكرم محمد بن أفندي عبد العال بن محمد ابن المرحوم عبد الجواد، والأمثل المكرم محمود أفندي رأفت محمود ابن المرحوم محمد ابن جمعه، دام كمالهما، أشهد على نفسه حجازي باشا ربيعي الساكن بخط السخاوي بمصر ابن المرحوم عبد المطلب ابن المرحوم غانم بك علي ابن المرحوم معتوق، الواقف لما يأتي ذكره والناظر على وقفه المستحق له بمفرده، والمشروط له من قبله، شروط من جملتها الادخال والاخراج، الاعطاء والحرمان، الزيادة والنقصان، التغيير والتبديل، الابدال والاستبدال، لمن شاء من شاء يفعل ذلك يكرره الكرة بعد الكرة، والمرة بعد المرة مدة حياته، وليس لأحد من بعده فعل شيء من ذلك دون أن يشرط له، وهو بكامل الأوصاف بشهادة من ذكر: وقف وحبس وأيد وأكد وخلد وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع كامل أرض وبناء قصره الكائن بمصر المحروسة والذي حده البحري قصر حمدي بك حامد، ومنزل الست بدرية هانم كريمة المرحوم علي أفندي سلامة، ومن الجهة القبلية الشرقية منزل ودكاكين صادق رضوان متولي، وزاوية الشيخ محمد بيومي طشيش، والمنزلان الكائنان بأول حارة الصالحية وما بينهما من الفضاء الواقع أمامهما والمملوكان له بالميراث أباً عن جد، وجميع الأسواق والأزقة والمنازل والحانات والجوامع الكائنة بخان الخليلي، وفندق المهندار، وباب الفتوح، وتربة الزعفران، وخان مسرور الكبير الواضع يده عليه لمدة أكثر من ستين سنة والكائن ذلك بشارع بين القصرين، وباب الزفر، وكامل أرض وبناء دار السعادة، وعشرة آلاف قرش صاغ، وألف رأس من البقر، وثلثمائة قربة سكر، وأربعة آلاف جارية، وثلاثون زيراً مملوءاً بماء الورد، ويشهد كل من سمي أعلاه عن طيب قلب وانشراح صدر أن حجازي باشا ربيعي حبس وقفه من تاريخه على نفسه حال حياته، ينتفع بما شاء منه، سكناً واسكاناً، غلة واستغلالاً، أبداً ما عاش ودائماً ما بقي، من غير مشارك أو منازع، ثم من بعده يكون ذلك لحرمه التي في عصمته وعقد نكاحه الآن ـ

الست فهيمة المعروفة بأم أحمد بنت المرحوم علي الطوخي، وولده منها أحمد أفندي حجازي التلميذ بمدرسة الحقوق، وتكون حصة الست فهيمة ثمانية قراريط من كامل الأعيان الموقوفة والباقي لأحمد أفندي حجازي ثم أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولادهم، ثم على ذريتهم ونسلهم وعقبهم، الذكر والأنثى سواء، طبقة بعد طبقة، ونسل بعد نسل، وجيل بعد جيل، الطبقة العليا

تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، يحجب الأصل فرعه دون فرع غيره يستقل به الواحد إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان حين الاجتماع

على أن من مات وترك ولداً وولد ولد انتقل نصيبه لولده أو ولد ولده، فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد انتقل نصيبه إلى اخوته، وإذا

ماتت الست فهيمة قبل الدخول في الوقف. كان نصيبها لولدها أحمد أفندي حجازي ثم من بعده لأولاده وذريته ونسله وعقبه يتداولونه إلى حين انقراضهم أجمعين، فيكون ذلك وقفاً على الست ذكية ابنة حجازي باشا ربيعي من زوجة ميتة، ثم على أولادها وأولاد أولادها ونسلهم وعقبهم إلى حين انقراضهم اجمعين فيكون ذلك مصروفاً

ريعه في اقامة شعائر جامع سيدي أحمد الحاج علي، والجامع بناحية الكوم الأصفر ـ مركز طهطا مديرية جرجا، فإن تعذر الصرف والعياذ بالله صرف ريع ذلك على المكرم والي المحروسة، أينما كان،

وحيثما وجد، أبد الآبدين ودهر الداهرين، إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولما تمّ عرض الحجة المشمولة بخط وختم العلامة الشيخ رفعت أفندي صديق على سيدنا ومولانا قاضي قضاة المحروسة للأمر بقيدها في السجل المحفوظ وأحيط علمه الكريم بذلك طلب تقرير نظر عن صاحب الحجة، فتبين أنه لا يملك سوى ثياب بدنه، وان الحرمة فهيمة المعروفة بأم أحمد والتي ذكر أنها في عصمته وعقد نكاحه قد ماتت، وأنه لم يستطع الباء في يوم من الأيام، وليس من صلبه ولد ولا ولد ولد، فاندهش مولانا أعزه الله، وأمر أن يؤتى به، فلما حضر بين يدي حضرته ازداد مولانا اندهاشاً. سلم عليه وأجلسه إلى جانبه، وأتى إليه بالدجاج المشوي وأفراخ الحمام والخبز المعجون بالسمن والكعك والحلوى، ثم أمره مولانا دام علاه أن يصحبه إلى القلعة حيث الوالي. كان والي المحروسة جالساً والأمراء على يمينه ويساره، والفتيان بأيديهم المذاب بين يديه، فأفضى قاضي المحروسة إلى والي المحروسة بأمر الحجة. ضحك الوالي، وأذن لحجازي بالدخول، صافحه وقال له: اجلس حلّت البركة. وسأل عن أحواله وأحوال ولده أحمد أفندي، وكانت السماء قد أرعدت وهطل المطر، فأمر الوالي بالقهوة وظل يتضاحك. كان الوالي بسيطاً بشوشاً مرحاً. قال الوالي: علمنا أنك وقفت علينا ريع أعيانك، فضحك الأمراء وقاضي قضاة المحروسة: قال الوالي: أمرنا لك بجبة قطن زرقاء مبطنة، وعشر شقق من الثياب الحرير مصبوغة بخمسة ألوان. كان ربع الليل قد حلّ. قال الوالي: أمرنا لك بالمنزلين الكائنين بأول حارة الصالحية وما بينهما من الفضاء الواقع أمامهما. قال الوالي: أمرنا لك بجميع الأسواق والأزقة والمنازل والخانات والجوامع الكائنة بخان الخليلي، وفندق المهندار، وباب الفتوح، وتربة الزعفران، وخان مسرور الكبير وباب الزفر، وكامل أرض وبناء دار السعادة، وعشرة آلاف دينار ذهباً وألف رأس من البقر، وثلثمائة قربة سكر، وأربعة آلاف جارية، وثلاثين زيراً مملوءاً بماء الورد، وكان ثلث الليل قد حلّ. فتوضأ الوالي وقبل أن يصلي ركعتين لله، قال: أمرنا بقتلك... □

مصر

القرية تبحث عن اسمها

حبيب جاويش

■ لم يكن للقرية أيّ اسم معلوم تُعرَف به، لا في قديم الزمان ولا في حاضره. وكان القرويون، إذا تكلّموا عنها، قالوا: حارتنا.. وحارتهم، وإذا أشاروا في كلامهم إلى أهلها، قالوا: جماعتنا... وجماعتهم، وإذا جرت على لسان أحدهم سهواً لفظة: قريتنا، بادر أحد السامعين إلى مقاطعته وإلى تصحيح زلّة لسانه بشيء من الفظاظة: تتكلّم كالغرباء. قل، نحن أم هم، حتى نفهم. وكانت الحياة فيها تجري في معظمها ضمن نطاق هذا المفهوم، فكل ما فيها من مرافق كان ثنائيّاً مزدوجاً: بيدرنا.. وبيدرهم، معصرتنا.. ومعصرتهم. معبدنا.. ومعبدهم.. إلا العين، فكانت واحدة. وكانت الحارتان تستعملانها دون تفرقة، ولم يُبح أحد لنفسه في يوم من الأيام أن يقول: عيننا أو عينهم، لأنها، لحسن الحظ، لم تكن ضمن حدود الحارتين المتعارَف عليها. كانت تقع عند أقدام القرية، في طرف خندق يفصل بين الحارتين فصلاً طبيعياً، وكان يُطلَق عليها اسم «العين» مجرّداً من كل وصف أو نسبة. وبالإضافة إلى أنها كانت المورد الوحيد لماء الشفة للقرية بأجمعها، فقد كانت أيضاً مُلتقى القرويات الغاديات لملء جرارهنّ والقرويين الذين يقصدونها لسقي ماشيتهم.

ومع أن تلك القرية كانت قد نمت وكبرت عبر أجيال عديدة وأصبحت لها مكانتها بين القرى المجاورة، إلا أنه لم يدُر في خلَد أهلها أن يطلقوا عليها اسماً معيناً ليتداوله الناس. وكان موقفهم هذا موقف مَن وعى أن القرية حارتان وجماعتان وضميران، فلا يصحّ أن يكون لها اسم واحد. ولئِن بدا هذا التفسير بديهياً ومُقنعاً بالنسبة إليهم، إلا أنه سبّب بلبلة للقرى الأخرى: فكيف الكلام عن شيء لا يحمل اسماً بما يُذكَر وبما يُشار إليه؟ وراحت كل قرية تحاول أن تخلع عليها تسمية حسبما ترتأي؛ فسمّتها إحدى جاراتها من باب التفكهة: قرية الحارتين المحتارتين، ورأت جارة تقع الى الشرق منها أن تتكرم عليها باسمها مع إضافة نعت إليه ليُصار الى تفريق الواحدة عن الأخرى؛ ولم تكلّف إحدى القرى نفسها عناء البحث عن اسم مميّز لها، فألصقت بها اسم «القرية التي لا اسم لها»، واعتبرت أنها فضّت المشكلة. وعوضاً عن أن تُزيل هذه التسميات المتعددة والمتنوعة اللبس عن القرية المذكورة وتعرِّف بهويّتها تعريفاً واحداً، ثابتاً، مقبولاً، إذا بها تزيد البلبلة حولها لدرجة أن موقعها الجغرافيّ نفسه أصبح موضع اختلاط. فكم من مرّة جرى الحديث عنها بالذات، فظن بعض السامعين أن المقصود قرية أخرى، وكم من مرة دار الحديث عن قرية في اقليم ناءٍ، فظن أحد أبنائها أن حارته هي موضوع الحديث. وبعد مرور فترة من الزمن على هذه الحالة من الفوضى، اتّضح لكل من الجماعتين اللتين تسكنان حارتي القرية التي لا اسم لها أنه يترتّب عليهما وحدهما ايجاد اسم لقريتهما، فقررتا أن تتصديا لهذه المهمة بجد ومسؤولية. ومنذ اللحظات الأولى أشارت كل الدلائل إلى أن اختيار اسم لقرية ليس بالأمر الصعب، فكل القرى تحمل أسماء، ولا حرج في ذلك، حتى ولو جاءت بعض تلك الأسماء بعد مخاض طويل وعسير. وأهل القرية التي لا اسم لها يعرفون ما عاناه أهالي قريتي «البرغوتية»، و«جورة الحِمّص» قبل أن يتفقوا على الاسم المناسب لقريتيهما. أما هم، فقد اُشتُهر عنهم أنهم لا يعدمون الإقدام ولا يفتقرون إلى الخيال؛ وبقاء قريتهم يتيمة الاسم إلى الآن لم يكن عن عجز أو جهل، كما يعيِّرهم سيّئو النيّة في بعض القرى المجاورة، وإنما لأسباب أخرى لا يحبون أن يتكلّموا عنها. ولكن الزمن قد تغيّر الآن وحان الوقت لكي يُظهروا للقاصي والداني أنهم ليسوا أبناء «الحارتين المحتارتين» وأن قريتهم لم تعد نكرة من النكرات.

*

اجتمع وفدان من الحارتين على مصطبة العين وبدآ بالبحث عن الاسم على الفور. وقف رجل وقال: «قبل الاعلان عن الاسم لا بدّ من أن نربط الحارتين ببعضهما حتى تصبحا قرية واحدة تستحقّ أن تحمل اسماً تُعرَف به. وأنتم تعرفون أن بيننا خندقاً، فإذا أبقيناه على حاله، تعذّر الانتقال بين الحارتين؛ وإذا ردمناه لا تلبث أن تعود مياه السيول فتجرفه. لذلك، فإننا نقترح عليكم شق طريق تربط كلا من الحارتين وتعرّج على كلّ من ساحتيهما وتنتهي عند أبعد البيوت الواقعة على الأطراف؛ ويكون لها عبّارة فوق الخندق. ومن رأينا أن هذه الطريق ضرورية، بل لا غنى عنها لأنها كالنّير الذي يربط عنقي الفدّان في أثناء الحرث، فلولاه لشدّ كل ثور من جهته ولعاثت السكّة في الأرض فساداً... فما رأيكم بمشروعنا؟».

تشاور وفد الحارة الأخرى فيما بينه، فتبيّن له أن الطريق المُزمَع شقّها سيرتبط اسمها، بطبيعة الحال، بالجماعة التي بعثتها الى حيّز الوجود. وعلى مدى أجيال وأجيال سيظلّ هناك أشخاص يرددون: طريقنا وعبّارتنا و... ولربما خطر ببال أحدهم في يوم من الأيام أن يُقيم نصباً تذكارياً عليها يحمل اسم تلك الجهة، فمن يمنعه من ذلك؟ وفي نهاية المشاورات، وقف أحد المحنّكين العارفين بشؤون العمار وقال: «طريقكم لا تفي بالحاجة المقصودة، وعبّارتكم لن تصمد للسيل عند أول زخّة، وإذا تهدّمت العبّارة انقطعت الطريق، وإذا انقطعت الطريق عدنا نقول: حارتنا وجماعتنا، وماذا ينفع الاسم إذا عدنا الى نغمة الحارتين والجماعتين وما شابه ذلك؟ لدينا نحن مشروع أفضل: نفتح نفقاً في جوف الأرض يربط الحارتين الواحدة بالأخرى ويمر تحت الخندق ويكون له منافذ في ساحتنا وفي ساحتكم وأمام معبدنا وأمام معبدكم. ونفقنا هذا لا تقوى عليه السيول ولا الثلوج ويؤمّن الاتصال حتى في حال تعرّض القرية لحصار من الأعداء المحيطين بها. فلنباشر بشقّه في الحال».

تهامست الجماعة الأولى على عجل وقد فوجئت بعرض الجماعة الثانية: نفق تحت الأرض! كيف سبقونا إليه؟ هل نضب الخيال عند جماعتنا أم أننا أُخِذنا غدراً؟ ثم قام أحد المتكلمين باسمها، وقال:



«لا نقبل بنفقكم لأنّ ماشيتنا لا تسير في دهليز ضيّق ومظلم. إذا أردتم أن يقوم اتّصال حقيقيّ بين حارتينا، فيجب أن يكون صالحاً للإنسان وللحيوان على حد سواء. وبما أن نفقكم هذا لا يصلح للحيوان، فهو لا يصلح للربط بين الحارتين، وإذا لم يربط بين الحارتين بقيت القرية بدون اسم، كما قدّمنا وقلنا لكم. نحن وجدنا ما هو أفضل: نمدّ خطّاً جوياً فوق الخندق يخترق أجواء حارتينا ويكون مجهّزاً بأربع محطّات على الأقلّ، واحدة منها في كلّ من الحارتين، ويسير عليه الحيوان مثلما يسير الإنسان، في كل الظروف والأوقات وبدون نعال أيضاً».

ضحكت الجماعة الثانية ولم تُخفِ استخفافها بالخط الجوي: ما شاء الله! تصوّروا يا ناس أنهم يمشون مع معزهم وبقرهم وحميرهم في الهواء! وبدت لهم فكرة التحليق في الجو سيئة النيّة، لاسيّما وأنها تختصر المسافة وتزيل كل العراقيل التي تعترض التنقّل بين الحارتين. وبعد مشاورات سريعة ومكثّفة نهض أحد الرجال المتزمّتين وقال: «معاذ الله أن نسمح لبناتنا ونسائنا بالطيران في الجو. نغار عليهنّ من العيون الوقحة إذا ذهبن الى العين بدون منديل، فكيف ندعهنّ يطرن حافيات الأقدام؟ لا، لا.. خطّكم الجويّ لن يمر فوق حارتنا. وإذا أصررتم على مدّه فيستوقف العمل به فوق حافة الخندق من جهتكم ويبقى معلّقاً في الفضاء، فهل تكونون قد ربطتم الحارتين ببعضهما، كما سبق واقترحتم تمهيداً للاعلان عن اسم القرية؟ جماعتنا وجدت الوسيلة المثلى للربط بين الحارتين، فلا طريق تتهدّم عبّارتها من جرّاء السيول، ولا نفق مظلم وضيّق ترفض المعز السير فيه، ولا خطّ جوي يكشف عريِ الأقدام، بل جسر روحي يلغي الخندق. يكفي أحدنا أن يريد حتى يصبح حاضراً بشحمه ولحمه وعظمه في الحارة الأخرى».

أحدثت الفكرة اضطراباً في صفوف الجماعة الأولى وبان في ملامح أفرادها وحركاتهم أنها لا تروق لهم: ماذا يقولون؟ جسر روحي؟ أن يربطوا أرواحنا بأرواحهم؟ هذه بدعة ليست وليدة أفكارهم، ولا شكّ أنها من وحي وليّ من أوليائهم. وفي الحال نهض أحد الرجال وقال بحدّة: «لن نستعمل جسركم الروحي هذا لأنه معرّض للأخطار. لقد علّمنا أسلافنا أن الأرواح أبخرة، ولا يمكن الاعتماد عليها في الاتصالات. تصوّروا أننا نعبر على الجسر في موسم الخماسين أو في عزّ تموز، وفجأة يتبخّر وينهار ونجد أنفسنا في قعر الخندق، فماذا نفعل؟ ألا يلملم كلّ منّا نفسه ويسرع إلى حارته وإلى جماعته؟».

*

عندما استنفد الوفدان بحث جميع الامكانات ولم يتوصّلا إلى طريقة عملية ممكنة ومعقولة لربط حارتي القرية ببعضهما، تأكّد لهما أن الوقت لم يحن بعد للاعلان عن الاسم المناسب. وبالرغم من أن هذا الاستنتاج لم يكن سلبياً في حد ذاته لأنه ترك باب البحث مفتوحاً أمام الأجيال القادمة، إلاّ أنه سبّب حرجاً لدى رقيقي الشعور من كلا الطرفين. شعر بعضهم فجأة بخجل من نفسه لأنه اضطُر إلى أن يعترف في قرارة نفسه بما تعيّره به بعض القرى المجاورة من عجز وجهل، وأحسّ البعض الآخر بشيء من الشعور بالذنب لأنه استهون الاسم ولم يحسب حساب المخاطر والمحاذير التي تحفّ بالطريق المؤدّية إليه. لكن تلك المشاعر لم تلبث أن خفّت حدّتها عندما أعلن بعض الرجال من ذوي المراس والخبرة أن مسؤولية الإخفاق في إيجاد الاسم الذي تستحقّه القرية لا تقع بالتأكيد على أيّ من الوفدين لأنهما لم يتركا طريقة إلا وبحثاها ولا باباً إلاّ وطرقاه. وما ذنبهما إذا كانت المواصلات العصرية لا تزال في طور متأخّر، ولا تلبّي، بالتالي، تطلّعات حارتيهما الى وسيلة حديثة وأكيدة وخالية من كل عيب.

*

نهض أحد الرجال المسنّين وقال: «إذا كانت وسائل الاتصال العصرية لا تزال عاجزة عن ربط حافتي الخندق ببعضهما، فلماذا لا نسمّي القرية «طِرح الخندق» أو ما شابه ذلك، ثم نعلن الاسم على رؤوس الاشهاد؟».

وردّ عليه أحد الكهول: «كيف نسمّيها «طِرح» وهي طِرحان؟».

ووقف رجل عجوز آخر وقال: «إذا كان لا بدّ من انتظار جيل أو جيلين حتى تحصل القرية على اسمها، فلماذا لا تُعطي كل جماعة اسماً لحارتها تُعرَف به، ونرتاح من البحث إلى ذلك الحين على الأقلّ؟».

وردّ عليه رجل في مقتبل العمر: «ولِمَن تكون العين؟».

ساد صمت ثقيل على المصطبة ولم يعد يُسمَع سوى رقرقة الماء المنساب من مزراب العين وحفيف الحشائش على جانبي الساقية الصغيرة.

ثم قال أحدهم: «لا تكون لأيّ من الحارتين».

وتلاه آخر: «نتركها لعابري السبيل».

وعقّب عليه ثالث: «إذا أصبح لحارتنا اسم فلا يجوز أن تبقى بدون عين».

وأضاف رابع: «إذن، فلتحفر كل حارة عيناً لها».

*

اتّخذت كل جماعة اسماً لحارتها، وانبرت تحفر عيناً خاصة بها على مقربة من العين المشتركة وضمن حدود تلك الحارة. ومرّ في القاطع المقابل ناطور القرية المجاورة، ورأى الرجال منكبّين على الحفر بهمّة ونشاط، فسألهم إذا ما زالت الحارتان محتارتين، فأجابوا بجفاء: «صار لنا اسمان».

وتطفّل وسألهم لِمَ يحفرون، فأجابوا باعتزاز: «وسيصبح لنا عينان».

فأردف الناطور: «أما تخشون من أن تغور الماء وتضيع في جوف الأرض إذا حفرتم...».

فلم يدعه الرجال يكمل تحذيره وأجابوا باستخفاف: «لم نسمع بهذا من قبل. ومَن يجد اسماً لحارته، لن يعجز عن أن يجد لها عيناً».

فأدار الناطور لهم ظهره وتابع جولته..

وكانت كلّ بئر تزداد عمقاً يوماً بعد يوم، ولكنّ الأمل بتفجر الماء أخذ يتضاءل ويتلاشى، إلى أن اصطدمت معاول الحفّارين ذات يوم بصخرة صمّاء، فأيقنوا أن لا جدوى من متابعة الحفر لأنهم لن يستطيعوا أن يخترقوها. وبينما هم جالسون على مصطبة العين يرتاحون، لاحظوا أن الماء المنساب من المزراب قد شحّ بعض الشيء، فقالوا: «ولّى الصيف والشتاء على الأبواب». ثم حملت كل جماعة معاولها ورفوشها وحبالها وقففها وقفلت عائدة إلى حارتها.

في صباح اليوم التالي غدت القرويات كعادتهنّ لملء جرارهنّ من العين. ولمّا أشرفن عليها لم يسمعن رقرقة الماء ولا حفيف الحشائش. وعندما أصبحن أمام المزراب بدا لهنّ جافاً، متشقّقاً، كريه المنظر كأنّه لسان ثور مات من العطش. □







بدر نشات

■ سألت الرجل الذي أمامي:

ـ هل أنا.. أنت؟

قال بأدب:

ـ لا.. أنت أنا..

كان يشبهني كل الشبه.. الملامح.. الحجم.. التجهم اعتقدت أول الأمر أنني أنظر إلى نفسي في مرآة ثم اكتشفت أن لوحاً من الزجاج يفصل بيننا.

واتضح لي فيها بعد أنني أشبه كل الناس. المارون على الأرصفة.. الجالسون في المقاهي.. المتطلعون على فتارين المحالّ.. المزدحمون طوابير الجمعية.. المتشردون.. الشحاذون.

استوقفت أحد المارة وسألته عن اسمه. طالعني بدهشة وتوجس كأنني لست من أهل هذا الزمان. قال:

ـ اسمي اسمك، والأسعار اكتسحت من زمن جميع الأسماء. لا تقل من أنت بل قل كم أنت. أنا يا سيدي تسعة كيلو ملوخية هذا الشهر.

قلت مرحبا:

ـ تشرفنا. لعلك تسبقني في الأقدمية. أنا ثلاثة كيلو لحم ضأن.

وحين استطال عنقي بين الشهود، وقلت:

ـ لقد رأيته.

زغدني الضابط بصرخة:

ـ من اذن لك بالكلام؟

ـ يجب منع الجريمة قبل وقوعها.

ـ هل استأجروك محامياً؟. خذه على الحجز يا أبا سريع.

وتذكرت أبي حين استأجر خفيراً ليحرس فدان الفاكهة واستخرج له ترخيصاً ليحمل بندقية، فبدأ يهددنا ويحدد إقامتنا ويحكمنا. قال أبي إنهم اقتطعوا منا أرضاً ليشقوا ترعة إلى أرض العمدة. ولم يكن العمدة يشبه أبي بل كانت له ملامح ضابط البوليس نفسها.

أدرت مفتاح التليفزيون لم يشتغل. الثلاجة توقفت. جرس الباب لم يعد يعمل. حتى الماء هو الآخر لم يعد يجري في المواسير. قال البواب إن بعض رجال مروا بالبيت هذا الصباح.. اختبروا المواسير وكشفوا على الأسلاك.

خشيت أن أقترب من الماء والكهرباء. خفت أن ينزل الماء من النجفة إذا ضغطت على زر النور، وأن يضاء نور الحمام إذا فتحت حنفية الحوض. كل شيء جائز هذه الأيام.

قال البواب:

ـ من السبب؟

قلت موافقاً:

ـ طبعاً الخفير.

وفي المحكمة، جلجل صوت المحامي يطلب الإفراج: التهمة باطلة وغير ثابتة. سيادة القاضي. أوراق التحقيق فيها ثلاثة أسئلة.. هل أنت اسماعيل؟

جيم: نعم. هل اشتركت في التجمهر؟ جيم: لا. هل لديك أقوال أخرى؟ جيم: لا. لماذا تم القبض على موكلي؟ هل لأن اسمه اسماعيل أم لأنه لم يشترك في التجمهر أم لأنه ليست لديه أقوال أخرى؟

شخط القاضي:

ـ وضابط الواقعة؟

وخبط بيده على المنصة. كانت ملامحه صورة طبق الأصل من ملامح العمدة. □

الحرام

حورية البدري

■ شعرت سناء بالخزي. فقد رأت أن وجودها ـ في شقة واحدة ـ مع هذا الرجل عمل غير أخلاقي. لم تمنحه تلك الورقة شيئاً من المشروعية.

*

في ذلك اليوم الأغبر ـ كما تراه سناء الآن ـ قالت أمها:

ـ نحن نشتري رجلاً. النقود لا تهم. المهم الأخلاق.

وحرّر الشيخ الوثيقة. لم يكن شيخاً بالمفهوم الشائع. فقد ارتدى حُلّة إفرنجية، وجاء إليهم بعد ساعات عمله الحكومية بشركة صناعات المطاط.

وقّعت سناء الوثيقة. انطلقت زغاريدهن، وانفتح باب البيت. ازدحم بالأهل والجيران ساعة أو اثنتين وانفضّوا.

*

يوم فاجأته مع الخادمة عارين قالت كلمة واحدة:

ـ طلقني.

تكلم هو كثيراً، والخادمة ارتدت ملابسها وجلست في المطبخ تنظر نظرة باردة لا مبالية كأن شيئاً غير عادي لم يحدث، وسناء بركان لا يقذف إلّا حجراً واحداً:

ـ طلقني.

وهو يثرثر. لا فائدة من كلامه. لا تسمعه. ملغى هو كزوج منذ انفسخ العقد على جسده العاري. قالت أمها:

ـ المهم الأخلاق. النقود لا تهم.

حرّر المأذون العقد. وقعوا عليه. والآن انفسخ الشرط المنصوص

عليه كلاماً.

يتكلم كثيراً. لكن هناك حقيقة واحدة. بهدوء أخرجت الورقة من بين حاجياتها. مزقتها. صفعها.

ـ مجنونة.

قالت بصوت مخنوق:

ـ لن أدفع منذ الآن راتب هذه الحشرة. اذهب واصرفها.

اخرج نقوداً من حافظته. أخذ يكرر عدُّها أمامها. يشير إلى أن المبلغ لا يكفي. ابتسمت بمرارة. شعرت برغبة في أن تبصق في وجهه، لكنها تمالكت نفسها. قالت بصوت قاطع:

ـ طلقني.

جمع نقوده في يده، وأسرع نحو المطبخ. نظرت سناء نحو الجدران. لن يخرج منها بسهولة. لا يريد أن يحرر وثيقة الطلاق. لكن ذلك لن يغيّر من حقيقة وقوع الطلاق. فالعقد قد فُسخ. لا تعرف ماذا تفعل. اشترت هذه الشقة بكل مالها. أين تذهب؟ أغلق الباب بهدوء خلف الخادمة وجاء إليها. قالت:

ـ طلقني.

يتكلم كثيراً، . لكن كلامه لن يغيّر شيئاً. قالت:

ـ الطلاق وقع فعلاً. فُسخ العقد. لا يبقى إلا تحرير ذلك على ورقة.

يتكلم كثيراً. يحاول إقناعها بالعدول عما يسميه جنونها. قالت:

ـ أنت اعتدت ذلك، لكني لا أستطيع. لن أعيش معك مثلهن. لن أفعل الحرام.

ارتدى ملابسه على عجل. صَفَق الباب خلفه بعنف. لكنه سيعود. ماذا ستفعل؟ إنه بيتها. لكنه يحتله. لن تستطيع إخراجه.

*

جاءها صوت ابن عمها متهللاً عَبر سمّاعة الهاتف. قالت:

ـ هل ما زال عرضك قائماً؟

قال بدهشة:

ـ أي عرض؟

ـ ألم تطلب الزواج مني؟

ـ نعم. ولكن..

ـ لقد وافقت. الظروف تغيّرت.

ـ هل طُلقت؟

ـ انفسخ العقد.

ـ لا أفهم.

قالت بانفعال:

ـ هو أيضاً لا يفهم. يقول إني مجنونة، لكنه فسخ العقد فعلاً، وأنا حرة.

تغيرت لهجته. نبرات صوته كمن يكلم طفلة صغيرة يريد تهدئة ثورتها. لكنها ليست ثائرة. شعرت أنه ـ أيضاً ـ لا يفهم. قالت:

ـ لقد عدلت عن رأيي. لن أتزوجك.

وضعت سماعة الهاتف. نظرت نحو الجدران بضيق. ماذا ستفعل؟ لن تتزوجه وترتحل الى بيته. ولن تعيش مع طليقها تحت سقف واحد. لن تعيش معه مثلهن.

*

أفاقت عليه يحاول أن يندس بجوارها في الفراش. ذعرت. شهقت. استفاقت. نهضت. حملت غطاءها لتغادر الغرفة. منعها. أمسك بها بقوة. وضعها على الفراش. يحاول ان يكون رقيقاً، أن يقنعها بكلمات لا معنى لها. يقسم. يتكلم.

حاولت النهوض مرة أخرى. أمسك بها بقوة. لم تستطع الإفلات. خارت قوتها. شعرت بركود يغمر جسمها وأنفاسها. احتضنها. قبّلها. كانت هذه أول قُبلة مُحرمة لها.. ضمّها إليه بشدة. تركت نفسها له. أبعدها قليلاً. طالعته نظرتها الباردة اللامبالية. أنزل يديه من على كتفيها. أطفأ النور. ونام..□

حالة

عادل القصاص

■ .. متأكد من أن لا شيء يثنيك الآن!

لا شيء.

لا شيء يثنيك.

لا دعوة جيرانك قبل قليل إلى وليمة ختان أنجالهم، ولا الرجاء المكتنز بالإلحاح من تلك العجوز الطيبة كي تكتب لها خطاباً لابنها المغترب الذي لا يعود أبداً. لا ضحكة طفلك ذي الأعوام الثلاثة.. (كنت تقول إن ضحكته تشبه القرقرة)، ولا تشبثه المشاغب بيديه بياقة جلابيتك حين قابلته خارجاً منذ لحظات مع أمه لزيارة الجيران (كانت أمه تمضغ اللبان بطريقة رديئة).

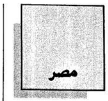
لا شيء.

لا شيء يثنيك.

.. تعلم أنك لا تملك بندقية همنجواي ولا مسدس حاوي، لكنك تملك هذا الحبل الممتد من سقف الحمام إلى ذلك المسمار المعقوف المغروس في أعلى الحائط.. فكه!

أجل.. اجلب ذلك الكرسي ذي القاعدة البلاستيكية المتهدلة. أصعد عليه. هاأنتذا فككت الطرف الأول المعقود في سقف الحمام. والآن ضع الكرسي لصق الحائط. الحائط أعلى؟ لم تطله؟ لا ريب في أن القاعدة المتهدلة للكرسي قد ساهمت في عدم بلوغك ذلك المسمار المعقوف الملعون! عموماً لا تبدو هذه بمعضلة. ضع قدميك إذن على يدي الكرسي.. آه.. هكذا أصبحت أطول من ذي قبل. فككته؟

الشيء الذي يجعلك تتحرك بحرية هو خلو المنزل من زوجتك وطفلك في زيارة للجيران. ولكن مهلاً. إنزع هذه المشابك من الحبل. نزعتها؟ لا تتلفت هكذا أيها الغبي! ألا ترى تلك المنضدة على يمينك؟ ادخلها تلك الغرفة فهي أقصر من الغرف الأخرى لسقفها الواطىء نسبياً. كلا أيها الأخرق! لا يمكنك أن تدخل هذه المنضدة في الغرفة ما لم تسحب ترابيس المصراع الأيسر للباب. ◄



أرأيت؟ أجل. فلتكن المنضدة في المنتصف تماماً. . كلا. كلا. إلى الأمام. اسحبها إلى الوراء مرة أخرى. هي الآن في المنتصف تماماً. ما بالك ترنو نحو السقف؟ لو وقع عليها هذا العمود ذو اللون الداكن لشطرها إلى نصفين متساويين تماماً. لا تهز المنضدة كثيراً هكذا. إنها ثابتة بالقطع. . ثم. . لماذا تتلفت على هذا المنوال كالمخبول؟ أحقيقة أنت مخبول؟! لا تدع هذا الاعتقاد يترسب في أعماقك لأنك قرأت ذات يوم في مجلة طبية: (أن المنتحر ما هو إلا إنسان قد جُنّ). عليهم اللعنة هؤلاء الأطباء (الخمر: تليف الكبد. المخدرات: الجنون. السجائر: سرطان الرئة. تباً لهم! إنهم يهرفون. أجل. يهرفون! بيد أنك تعرف الآن جيداً أنك لست مخبولاً، فأنت تدرك أنك متزوج، ولك طفل في الثالثة من عمره. وهل أدَلُّ شيء على العقل من ذلك؟! كما أن جميع تصرفاتك إنما تدل على العقل - وإلا فكيف أدركت أن المسافة بين عمود السقف والمنضدة لا تزال بعيدة. وأنها تحتاج بالفعل - لتنكمش أكثر - إلى هذا الذي يجول بخاطرك الآن؟ أجل. . ذلك المقعد مناسب جداً. ضعه فوق المنضدة. إنه ثابت. لا تحركه كثيراً. يقيناً هو ثابت. الحبل. . الحبل. أين هو؟ آه. . ها هو ذا متكوم في قاعدة الكرسي المتهدلة. جلبته؟

. . إذن. . اصعد!

أتود خلع الجلابية قبل الصعود؟ هذا عين الصواب، فالجلابية لا تصلح أي عمل ما خلا كمها الذي تستر به كل مساء عورة زجاجتك في رحلة الذهاب والاياب من الماخور. ها قد صعدت لا تهتز محورياً هكذا، فالمنضدة ثابتة، وفوقها المقعد وأنت ثابتان. يا لك من غر! لماذا تنظر إلى ما يواري عورتك بمثل هذا التقزز؟ ألأنك سمعت أن المشنوق يتغوط بعد الشنق؟ كي تتجنب حدوث ذلك يلزمك صيام ثلاثة أيام مثلما فعل أحد أبطال المهدية قبل أن يشنقه الانجليز كما روت لك ذلك جدتك. اطرد هذه الخاطرة. ثم ما الذي يقززك أو يخجلك؟ إن ذلك - على افتراض حدوثه - هو رد فعل طبيعي للجسم. أجل. اطرد هذه الخاطرة.

هاأنتذا تقذف الحبل نحو عمود السقف. أعاد إليك خاسئاً؟ . . لا بأس حاول ثانية ولكن بإتقان. . و. . أخيراً نجحت بيد أنك لن تستطيع جذب الطرف النازل للتو من الجانب الآخر للعمود. أجل. هكذا ارفع الطرف الذي في يدك وهزه رافعاً إياه إلى أعلى. ها هو الطرف القصير ينثال نحوك. أمسكته؟ تبقت العقدة الفوقية. إنها ليست بالعلمية العسيرة، فقد مارست ربط الصناديق الورقية الضخمة كثيراً على سطح الباخرة. انتهيت؟ إذن اسحب طرف الحبل الأطول. لقد صعدت العقدة نحو العمود. شده إليك أكثر فأكثر. إن العقدة الآن متينة بما فيه الكفاية. إذن تبقت العقدة الدائرية. يبدو أنك لم تواجه صعوبة، ولكن لا تحكم العقدة ما لم تتأكد من أن الدائرة سوف تنزل من رأسك إلى عنقك. جربها. هي بالطبع أضيق من أن تدخل عبر جمجمتك. فلتكن الدائرة أكبر قليلاً، أجل. هكذا تماماً. إنها تعبر جمجمتك بسهولة، تساعدها نعومة شعرك. ارتاحت الدائرة الآن على كتفيك، فلتسحب الحبل المتدلي. ارفع رأسك نحو السقف حتى ترتفع الدائرة عن كتفيك ثم تضيق حول عنقك. . و. . الآن!

. . أرفس. . الـ. . مقـ. . عد! □



الرؤيا

ابراهيم الحريري

■ نُفخ في الصور، فاندكّت الأرض دكّاً. . دكّاً، ووقف الملأ صفاً صفاً. هُرعتُ أبحث لي عن مكان بين الصفوف الطويلة المتراصة. كان ثمة عويل ونواح وصراخ وابتهالات وتضرع، وضحك عصبي وقهقهات.

كنتُ أرتجف فرقاً وهلعاً. إنه اليوم الذي تَوَعَّدَنا به: يوم لا يعذّب عذابه أحد، ولا يوثِقُ وثاقه أحد. لكن، لِمَ سيعذبني؟ ألأنني كنتُ من دون ذيل أم لأنني بذيل قصير؟

أردتُ أن أقف في صف أصحاب الذيول، إلا أنهم تدافعوني بالصفع والركل وهم يصرخون: «حتى هنا!».

وقفتُ في صف من لا ذيل لهم فلم يكن موقفهم أقل جفوة وقسوة: «لم تعد منا». قال أحدهم منتهراً. أضاف آخر: «ومن يدريك؟ فقد تنقلب الآية! إلى الجحيم أنتَ وذيلك القميء!».

تقهقرتُ حتى بتُّ في نهاية الصفوف. كنت أسير الهوينى، وحيداً، مقهوراً، كسيراً.

قلتُ: سأمثل بين يديه أخيراً. سينصفني. سأقول له: «لقد خلقتني على صورتك ومثالك، فعلى أية صورة أنتَ. . وعلى أي مثال؟».

إن كنت من دون ذيل، فلماذا سمحت لأصحاب الذيول أن يسودوا؟ بل لماذا خلقتهم أصلاً؟ وإن كنتَ بذيل، فلماذا خلقتنا من دون ذيل؟ ولماذا عندما أنعمتَ عليّ بذيل، قَصُرَ كرمك عن اطالته قليلاً، فبتُّ لا أنا بذيل شرعي فأفرح، ولا أنا من دون ذيل فأتعزّى برفقة قومي على الأقل؟».

سأنشجُ بين يديه وأنا أقول: «كل من أنعمتَ عليه بذيل يرى ذيله إلّاي يا مولاي، فأي عدل في هذا؟».

لشد ما عانيت يا سيدي: مرة لأنني من دون ذيل، ومرة لأنني بذيل قصير. وهأنذا، أخيراً، بين يديك، فماذا ستفعل بي؟ هل ستنبذني أنت أيضاً؟ إن كنت ستفعل، فأين عدالتك؟ بل أين رحمتك؟».

سأسقط على قدميه، أمرغها بدموعي صارخاً: أنت ترى؛ لا أجد صفاً أنتمي إليه، فإما أن تطيل ذيلي؛ وإما أن تريحني منه. وإن شئت، لحكمة تجل على فهمي، أن أظل كما أنا، فلا اعتراض لي على حكمتك. لكن، لعلك تدخل الرحمة على قلوب من هم بذيل، ومن هم بدونه، معاً، فلا يتدافعوني، كل من جانب».

سيفهمني. سيرفعني إليه قائلاً: تعال إليّ يا بنيّ. لقد عانيت كثيراً فيما لا ذنب لك فيه. تعال إليّ يا قصيرُ الذيل وأنا أطيل لك ذيلك».

سيأخذ ذيلي بين يديه الرحيمتين؛ يمسّه بكفه الحانية مساً حنوناً رفيقاً، فيمتد ويمتد ويمتد حتى ليصبح أطول ذيول الخلق جميعاً، سيمتد حتى ليلف الأرض والسماء والكواكب والكون بأسره.

سيضعني إلى جانبه ويسألني رأيي في شؤون خليقته. فأشير عليه، بعد أن امتلكت شجاعة مخاطبته من دون خوف، ما دام ذيلي أصبح أطول ذيل وأكبره، بين أهل الأرض والسماء طراً. مناشداً أن يرفق بهم. سأنسى إساءاتهم وسخريتهم وشماتته، وأقول له: «إنهم عبادك على كل حال، بذيل كانوا أم بدونه، فلا يد لهم في ذلك، ولا ذنبَ... وقد آن لك أن توحد طراز مؤخراتهم، فتؤلف بين قلوبهم».

بل ان الشجاعة قد تذهب بي ـ وقد أصبحت أدانيه ذيلاً ـ فأقول في لهجة أقرب إلى التأنيب بل التقريع: بل لعلك أنتَ المسؤول من قبلُ ومن بَعدُ، والحمدُ لك، على كل حال، فليس يحمد على مكروه.. سواك!».

سيربتُ ذيلي حامداً لي شجاعتي، ويدخلُ الجميع جنّته...
سأقول له: من أنت؟..

زلزلتني صرخة هائلة فغشيت وسقطت على وجهي. وعندما أفقتُ صُمَّ أذنيَّ ضحك وصراخ هستيريان. كان الجميع يضحكون: من هم بذيل ومن هم بدونه.

امتدّ، من فوق رؤوس الخليقة، ذيل هائل الجرم، التفّ حول وسطي. هصرني، فصرخت متوجعاً، طالباً الرحمة. غشيت من الألم مرة أخرى. أفقت على صرخة أشد هولاً: «من انت؟ تمثلُ أمامي بهذا الذيل... وتريد أن تدخل الملكوت؟».

رفعني ذيله أعلى، أعلى، حتى خلتُ أنه سيقذفني إلى قلبِ الكون. قبضتني كف هائلة. تناولت ذيلي بين السبابة والابهام. راحت تؤرجحني، فانفجر الضحك وتعالى الصراخ: «كُلْهُ! اسحقهُ! خلصنا منه! أقلقنا بذيل وبدون ذيل!».

فتحتُ عيني. كان ثمة سحنة مربدة، وشدق فاغر وأنياب هائلة وعينان ترسلان شواظاً وقرنان منصبان، يخترقان «بيريه» عسكرية، يشقان الفضاء.

«سيلتهمني!». فكرت مرتاعاً. لكن ذيلي انضغط بين السبابة والابهام فانسحق وانقصف.

صرختُ: إن كنت لا تريد ـ بالأحرى لا تستطيع ـ أن تطيله، فلماذا تقطعه؟ اتركه لي كما هو على الأقل!»، لكن صرختي ضاعت وسط الصراخ العصبي، والقهقهات المجنونة.

انفصلت عن ذيلي. هويت من حالق وأنا أصرخ: يهوه! من أنت؟ الله أم الشيطان؟». □

تطويحة

السيد زرد



■أمالت رأسها قليلاً إلى الأمام، ثم طوّحت بشعرها إلى الخلف، فانسرح على ظهرها أثيثاً وغامضاً. خلّفتني وحيداً قبل أن تمضي.

قالت: أشعر بصداع.

قلت: وأنا.

قالت: متعبة.

قلت: وأنا.

قالت: سأمانة.

قالت: وأنا. فلنقتل هذا الضجر الآن.

جعلت من ضلعي متكأ، وقلت: استندي.

صنعت من لساني ممشى، واهبت: سيري.

اصطنعت من حنجرتي ناياً، وناديت أن غني.

اتكأت، فتفتت الضلع. قالت: لا بأس، سأستند إلى الجدار.

مشت، فغاصت في لساني. قالت: لا بأس، سأمشي على الحصى.

غنت، فخرج فحيح من حنجرتي. قالت: لا بأس، سأبكي.

قلت برغبة صادقة: لا تحزني، فلنحاول من جديد.

دلت شعرها الأثيث، وقالت: اصعد.

وضعت ألف ابتسامة على فمها، وقالت: ابتسم.

انتصبت قبالتي كنخلة حنون، وقالت: هز.

انزلق شعرها من بين أصابعي. قلت: لست قادراً على الصعود، فلأثبت في مكاني.

أخذتُ بسماتها الرقيقة من على فمها الدقيق، وجَعَلتُ أجربها، فكانت تنزوي جميعاً في ركن ضئيل حين أضعها على فمي المتسع.

قلت: لست قادراً على الابتسام، فلأظل مزموم الشفتين.

قبل أن أبدأ في الهز، كنت أتساقط إعياءً. قلت: لست قادراً على الهز، فلأمكث دونما رطب.

مدت يدها، وقالت: الوداع.

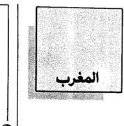
قلت برجاء: لا تحزني، فلنحاول من جديد.

أمالت رأسها قليلاً إلى الأمام، ثم طوّحت بشعرها إلى الخلف، فانسرح على ظهرها أثيثاً وغامضاً. خلفتني وحيداً قبل أن تمضي. □

المغرب

من لحظات امرأة جاهلية

سالم حميش



استهلال

■ ... «وجاء الإسلام»، فلم تُبق رياحه من روح الجاهلية سوى أطلال ونقوش وأشعار، ولم تحمل من عقائد العرب وعوائدهم وأيامهم إلا نتفاً متقطعة متناثرة. وقريباً من مهد الأنوار الجديدة، سقطت رقعة من جلد الإبل، فظلت من الهوامل الشاردة داخل وراقة كانت تتوارثها أسرة بغدادية عريقة. وفي مطلع الرابع للهجرة، قرن مهادنة الملل وبوار الحماسة باستنفار لطائف الامتاع والاستئناس، عثر على الرقعة مصادفةً النقّابة الجماعة الفهامة، أبو ميمون الكرخي في كتاب اقتناه من تلك الوراقة، فأحبها من أول وهلة، وعكف شهوراً يرممها وينقحها، ويجتهد في ملء ما امّحى أو غمض من عباراتها، وفي نقل بعض مفرداتها الكندية والنبطية إلى الحجازي. وبعد أن استقام له فيها المبنى واتضح المعنى، أوصى بها بعض الحفاظ. وقيل إنه ذيّل بها مخطوطته المفردة «بغية الجوعان من قلائد القيعان»، التي ضاعت بالتمام حين تعرض بيته في حي الكرخ للتحريق على يد «العيارين». وأجمع مترجموه على شجب هذا الفعل الشنيع، لا سيما وأن المتضرر منه ما كان يقف من الاجماعيين والخوارجيين إلا موقف المسالمة والحياد. ولم يعمر ميمون الكرخي بعد ذلك المصاب الجلل أكثر من شهر، حتى مات حسرة وكمداً في منتصف القرن لليلتين بقيتا.

١. لحظاتها مع قيس

قال آخر الحفاظ:

قال قيس: «لك يا أختاه ما ترغبين فيه من النسيان. إن أنتِ أقدمت على الحكي كما يقبل الظمآن على الماء. وبعد سماعي لما ترونه، لي أن أرى كيف أدخل واسطة خير بينك وبين الذي يعاديك ويرميك بالقذى والأوحال. لا وحق الآلهة، لو كان بعلك يعرف ما الهوى لكنتِ له العين التي بها يرى والهواء الذي منه يتنفس، ولو كان يدري لبادرك بالورود في مطلع كل يوم، وذبح ناقة على عتبة رضاك كلما جاءه منك نقد أو عتاب».

قالت المرأة: «يا قيس! هل تعلم أن الحكي عندي عقبة كأداء لا أقدر عليها لأني لا أحسن حيل البلاغة والبيان. والعرب، كل العرب، لا تفهم الكلام الذي لا سجع فيه أو لا وزن ولا قافية. وأنا يا قيس، على هذا الصعيد، لا أجاري العرب!».

قال قيس وريح المراوغة يعصف بلسانه: «الذِّكر من العرب وحده، يا أختاه، مكلف بتعلم البلاغة والبيان. أما أنثاهم فهي مجبولة على القول الحسن، بل هي والكلام البليغ صنوان: إن ما قامت له تضوّع المسك منها، كنسيم الصبا جاءت بريا القرنفل. فاحكي، وإن أعوزتك البلاغة فابتسمي أو فابكي، وأنا في معيتك كمغناطيس أتصيد كل ما يصدر عنك وألتقط».

قالت المرأة: «لقد رمزتَ في سابق فهمك إلى بعلي بكلام معبر كنتَ فيه صائباً، فلولا لطفك بي ما قلت عنه شيئاً ولا تعنيت الحديث فيه وهو ليس أهلاً بالذكر أو الإشارة».

قال قيس: «كون زوجك غير جدير بالإشارة، فهذا ما تعرفه العشيرة كلها وما أجمع عليه عشاقك من كل العشائر. إن ذكاءه دون المعدل المسموح به وإن كان يكثر من أكل الزبيب، ورجولته لولا اللوز والهريسة لما قامت لها قائمة. فكيف سلطته عليك الاقدار؟ وأي ريح مشؤومة أتت به إلى حضنك الهائل؟».

قالت المرأة: «حين سلطت عليّ الآلهة هذا الذي صار بعلي فقد زبتني بشر ما بعده شر. هل تعلم أني فقدت إيماني بكل الآلهة وصرت لا أقضي يوماً دون أن أخصها بلعنات من الطراز الغليظ الشديد اللهجة؟ أما سر سقوطي زوجة في حبال البغل هو أنه ظهر لي بدءاً في صورة خالد. ولا أخفيك سراً يا قيس أني كنت، ككثير من النساء، أعشق خالداً النبي وأطلبه عبثاً في يقظتي ومنامي. وكم مرة والليل يرخي سدوله توهمت خالداً يفك ظفيرته وحزامه تهيؤا للتقبيل والضم، فما أن يقوى شوقي وهياجي حتى يتركني ويبتعد كالبدر في علاه، يُرى ولا يمس ويغري ولا يفضي. وكان خالد يا قيس يواجهني كلما اعترضت طريقه بأمرِّ الكلام، ويصرخ في وجهي: «أنا لا أريدك ولا أرغب فيك، لأني ما بُعثت إلا لأطفىء هذه النار التي تتأجج ليلاً آتية على الأخضر واليابس وتصير نهاراً دخاناً كثيفاً في ربوع العرب. والله لن يهدأ لي بال حتى أحبسها في بئر وأغيبها تغييباً، كما غُيبت العنقاء وقطعت نسلها. فخلصيني منك خلصيني». هكذا تقلصت يا قيس وقلت: استحال خالد فعليَّ بمن يشبهه أو يقترب من جماله وسناه. واستكبر خالد وتعالى عن نيلي وتضرعي وأعرض عني مستخفاً بمرضي به وانهياري فيه، فعليّ بالثأر منه تزوجا من رجل تبدي لي نسخة من طيفه، من رجل طلبت فيه المواساة والاستشفاء، بعد أن أعياني الصراخ: يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح».

قال قيس: «لكن بالطبع شتان ما بين الصورة والجوهر! لقد تعلقتِ بالقشرة وضاع منك اللب. وهذا فعل جل عذارى هذا العصر: يعشقن تهافتاً أو انتقاماً، ويتزوجن ويترهلن عبثاً وهباءً».

قال المرأة: «صدقت يا قيس وأحسنت التصوير! أما عن حالتي أثناء زفافي، فقد كنت كالساقطة على أم رأسها، المغمى عليها، لا أدرك ما يُفعل بي. كنت وكأني في عداد المعتوهات، وكأن الجاهلية من حولي كلها أطلال وخرابات. ولما أفقت من غيبوبتي المروعة، ونهضت من كبوتي، كان لساني ما زال رطباً من ذكر خالد، ووجدت نفسي في خيمة رجل شهدت العشيرة أنه بعلي، وألفيت بطني يعاني من حمل لم أقر بشهود أنه شرعي. وهكذا دخلت في ليل طويل لا ينجلي بصبح، ولا يشتعل فيه إلا وعيي بمآساتي وعجزي. فكم كان ممضّا يا قيس ما عانيته! كبريائي مثخن بالطعنات، وخالد ولى إلى الأبد،

تاركا لي مسخه يعبث بي ويحرث فرجي ويعيرني شماتة بي ونكاية».

قال قيس، وعيناه عاكفتان على البكاء: «لكِ أيتها الزهرة التي تغالب الذبول ما شئتِ من العبرات والحشرجات، فاهرقي على خدي ما طاب لك من الدمع الحار، لعلكِ تخففين به من وطأة الحروق عليك، ومن انتقالها إلى فؤادي وأحشائي. هذا فمي، فصبي فيه ما استطعت من الصرخات والآهات. واحكي، فإن في الحكي بعض الشفاء. حركي في كيانك ذاكرة الآلام، وادفعي بتألقها إلى خواتم النسيان. فعساك بعد تسريح القول أن تطردي بعلك البغل من وجدانك ورؤاك».

قالت المرأة: «شكراً لك يا قيس وألف شكر! فوقوفك إلى جنبي ينعشني حساً ومعنى، واستقبالك لوعكات وجودي يبدد أوجاعي ويحيي آمالي. فيا لك من شاعر رقيق يعرف كيف يقلد رؤوس الثكالى بأكاليل الرجاء والفرج! فلتعش لعذاراك ونسوانك! ولتدم لهن ملاذاً وذخراً. . . أما عن أتعس اللحظات مع بعلي البغل، وهي كثيرة، لن أثقل عليك بذكرها قاطبة، فتقبل مني ما في أحدثها روّعني وهدهد رأسي وكياني.

في ذات اليوم الذي تيسر لي الوضع بعد حمل أليم مرير، خرجتْ مني صبية تشبهني إلى حد كبير. وبقدر ما كانت فرحتي مجنحة طائرة، بقدر ما امتلأ زوجي تطيراً مما وضعت ونفوراً ما بعده من نفور. ولم تمض إلاّ أيام قلائل حتى أقدم الوغد على وأد مولودتي وأنا نائمة، وواراها التراب في مكان خفي لا أعلمه. فتصور يا قيس كلاكل غمتي وحافة اندحاري، وأنا أجرجر الحياة فيَّ، وطيف طفلتي الموؤودة يلازمني ويدميني في يقظتي ومنامي، وتصور أن لا أحد من العرب حرك ساكناً أو أتى ليعزيني. فكيف لي أن أحيط العرب بمحبتي وأحطهم محط فخري وحماسي! وفي مطرح انهياري وحلكة ليلي، قلت: ربما المواساة في إكثار الاعتصام بالكعبة والطواف بها، وكان هذا ما غدوت أفعله. غير أن الوغد صار يلاحقني ويعكر عليَّ صفو عزلتي وابتعادي. فكلما طفتُ طاف معي، وكلما توقفتُ وأغرقتُ النظر في المعلقات، كلما حملق هو إلى وجهي وجسمي بكل ما أوتي من شر وغباوة، وعيناه من فرط الجحوظ والاحمرار تقذفان شظايا أحط الغرائز الشبقية. وأنا في وطيس هذا العراك، لم يكن لي من مفر إلاّ في الاحتماء بالقصيدة، أو بأستار الكعبة حين لا تكفي القصيدة. وخوفي، كل خوفي، أن يقع الوغد عليّ ويصيبني، كما فعل أساف بنائلة، فنُمسخ حجرين مثلهما. . . سنتنا الأكيدة صارت أكثر من ذي قبل هي التلاعن بكل ما يخطر على بال عدوين من نعوت الطعن والقدح الفادحة. وكان بعلي في هذا الباب هو الأقوى، كما أنه هو الأقوى حين نبلغ طور المهارجة فالتراشق بأثاث البيت ومواعينه. فأي قهر هذا يا قيس وأي انسحاق! وأنا في هزائمي وكبواتي لا أقوى إلاّ على ترديد بعض السب المبحوح في حق بعلي هامسةً: «يا عرة الرجال ويا بعرة العرب! قمقم الله عصبك، وشتت وجهك، وقطع دابرك». وكثيراً ما كان، وأنا على هذه الحال من الإنهاك، ينقض عليَّ كثور وحشي، ويغتصبني اغتصاباً. ولا أخفيك سراً، يا قيس، أني فكرت مراراً في تسميم الوغد لإلحاقه بقبره، قبل أن يفعل بي ما فعله بطفلتي. لكن كيف الحيلة والسبيل وهو أحذر من ذئب، ولا ينام حين ينام معي إلاّ بعين واحدة، ولا يأكل مطلقاً من عجيني وطبخي؟ هل تنصحني بالصبر، والصبر حيلة من لا حيلة له؟ هل تمنيني بحياة أسعد وأجمل، وأنت تعلم أن ليس لنا إلاّ هذه الحياة الدنيا وليس لنا سواها؟ إني في قاع الجب أختنق وألعن الزواج ومشتقاته. فامدد لي يا قيس من حبالك، لعل شيئاً من النور يغمرني بعد طول هذا الليل الدامس، ولعلني أخلع عني علامات حداد مزمن كاسح!».

قال قيس: «عجباً للقلوب كيف تصدأ كما يصدأ الحديد! وأعجب من هذا صبركِ الذي كنتِ فيه أصبر من الوتد على الذل! أما الآن وقد حان وقتُ الحزم والتدبير، فلنا على عتبته بدءاً بشيء من الشراب، نرفع به الانقباض عن قلبينا، ونشحذ ذهنينا تأهباً واستنفاراً. وأنتِ الآن، يا أختاه، أمانة في عنقي ومهمة في جدول أعمالي. أنتِ وقبلكِ أبي الذي (ضيّعني صغيراً وحمّلني دمَه كبيراً، فلا صحوَ اليومَ، ولا سكرَ غداً، اليوم خمر وغداً أمر)».

قالت المرأة: «هبنا يا قيس شربنا اليوم ملء رأسينا، وهبني نادمتك كما تريد وتشتهي، فماذا أنت فاعل غداً، وغداً موعده لقَريب؟».

قال قيس: «إني غداً قاصد القسطنطينية، لأقابل فيها قيصر الروم، وأطلب منه العون على استرجاع عرش كندة والثأر لدم أبي من المناذرة أذناب الساسانيين. فإنما، كما ترين، أحاول ملكاً، فإن متُّ وجدتُ عندك لي عذراً، وإن توفقتُ فلك أن تطلبي مني ما شئت: كأن أطلقك من بعلك المشؤوم، فأرمي به إلى عاهراتنا ليقطعن أوصاله وجلوده، أو أتركه لكاهنتي لتسقيه سماً لا يأتي بالموت إلاّ بالتقسيط، أو أن أدخل سفوداً في كل ثقبة من ثقب جسمه السبع. . . والراجح عندي إن أنا عدتُ بعرشي أن أسكنك خيمة في أكناف رياضي أو على ضفاف أنهاري، فلا أبخل عليك بالملاطفات والتفقدات، وبشتى أنواع الهبات».

قال الحافظ:

وساعة السحر، انتبهت المرأة وقالت: هيا يا قيس، قم ولا تتركني أبكي أو أنبس بكلمة وداع. هذا ثغري، فاجتنِ منه ما شئت من القبلات. وهذه أنا، فضمّني إليك ما وسعك الضم، وخذ مني كل زاد تقوى به على حرمان الفيافي ومتاعب السفر. . . صدور الأحرار قبور الأسرار، وأنت يا قيس امرؤٌ حر. فاحفظ سر لقائي بك هذا واحفظني فيك ولا تنشرني. . أوصيك بما أنت غني عنه وتعرفه، فسامحني. إني أضحيت أتوجس حتى من ظلي، فاعذر ذعري وعرائي ولا تلمني.

وأقبلت المرأة على قيس تقبله بلهفة قل نظيرها، وشوقٍ متكثر المكنونات والأبعاد. ولم ترجع إلى رشدها إلاّ بعد أن تلا على مسمعها قصيدة فأغنية نوّمها بها، وإذ ذاك امتطى مسرعاً جواده واختفى وراء الأفق. . . ومرت الأيام والليالي، والمرأة في جحيمها الجاهلي لا تعيش إلاّ على أمل عودة الملك الضلّيل إلى عرشه وإليها. وبين تفاقم الحال وسراب الانتظار، وبينما هي من الحياة لا تطلب إلاّ الغيبوبة والانسحاب، أتاها خبر موت زوجها متأثراً بشظية تلقاها في رجله بعد أن رفست جمجمة الشنفرى. ولم تقو المرأة إلاّ على الهمس بكلمات مفادها أن هذه الموتة على هذا النحو هي حقاً من تدبير السماء، وأن مقاطعة الحزن والحداد بهذه المناسبة واجب عليها، حتى لا تحتج على مشيئة الآلهة. ودخل على المرأة رهط من الشعراء يسألونها عما هي فاعلة الآن وقد ترمّلت واحتد الطلاق بينها وبين عرب هذا الزمان. فقالت: «إني حقا في خصام مرير مع عصري، لكني عامرة بالأمل في أن تشرق في هذا الليل العربي البهيم وجوه ◄







فاتنة تجذبني إليها وتغسلني وتنفخ فيّ روحاً نورانية متوقدة». وذهب الشعراء بالجواب مكتوباً على سعف النخل، كأنهم يريدون نشره على الناس أو تضمينه في قصائدهم.

واستأنف الحافظ قائلاً:

وبينما المرأة تتماثل للشفاء، وصدرها يمتلىء بالرجاء والإنشراح، أتى عليها ليل عاتم، شديد السواد والاضطراب، فتطيرت منه وأيقنت أنه لا محالة محمل بحدث منكر أو خبر مكروه. وما أن انتصف حتى اقتحم بيتها رجل مريض، خشن المظهر، ادعى أنه قيس، وخرّ أمامها منهك الكيان والقوى ولا يتنفس إلاّ بجهد جهيد. . . وقالت المرأة بعد أن خف ذعرها وأيقنت أن الرجل المنطرح أمامها صادق في دعواه: لي الويلات، ما هذا الذي أرى! انتظرت أن ترجع لي بعرشك مصحوباً بمواكب الفخر والعظمة، فإذا بك تعود وحيداً مكسوراً وبجسم مثخن بالندوب والقروح. أيّ قدرٍ هذا الذي سحقك وضيّع ملكك؟! وأي عبثٍ هذا الذي يحكم سيري وسيرك؟! لا وحق السماء! لا تجبني حتى لا يذهب جهد الكلام بروحك. . .

ورغم رجاء المرأة هذا، أخذ قيس يهذي، وهو يتلقى منها الاسعافات الأولية، فكان ينطق بكلمات غامضة، هادئة تارة ومتوترة طوراً، ويستلذ كلما وضعت المرأة على قروحه مناديل مغموسة في الخل، وأخذت في تفقئتها وإخراج دمها وقيحها. . . وما إن مضت أيام قليلة على قيس في حضن ممرضته حتى بدت عليه بعض علامات الشفاء، وعاد إليه رشده، وأخذ في تذكر ما نظمه من شعر، مضيفاً إليه أبياتاً ووقفات، بعضها في هجاء الجاهلية، وبعضها في تهنئة المرأة بموت بعلها وباسترجاعها لحريتها حسّاً ومعنى. وذات يوم، وقيس على هذه الحال من حسن إلى أحسن. إذ وقف وقفة شامخة أمام المرأة، وأشهد السماء والصحراء وكل القبائل قائلاً قبل أن يسقط جثة هامدة: «لا يا عربَ الكرِّ والفرِّ والفروسيةِ الهوجاء، ليس تاريخاً هذا الذي تكتبونه بتناحركم وأيامكم، بل خردلة على طرة تاريخ الآخرين. لن تعرفوا المجد ولا العزة والقبيلة منكم تستنجد بالروم أو بالفرس لدحر القبيلة الأخرى. أيامكم موجة متآكلة في بحار الأقوياء، لأنكم تخوضونها ضد بعضكم البعض، بتفويض من أعدائكم ونيابة عنهم. وهكذا ستبقون إلى أن تتمخض جاهليتكم عن ضدها، وعن الخلاص الذي يحوّلكم من دُمى وتوابعَ إلى قوة تصرِّف الحياة وتصنعها».

٢ . لحظاتها مع طرفة

قال الحافظ:

ولما افتضح أمر حب المرأة لقيس، نبذتها القبيلة، وقالت النسوة فيها ما لا يطاق من التعبير والطنز. فلم تجد مفراً من التماس طرفة والبحث عنه إلى أن اصطادته في حانة بباطن الصحراء، ليلُها كنهارها، لا يدخلها إلاّ ماجنٌ أو قانط. وهناك في الحانة، لازمته أياماً تنادمه وتجاري سكراته، فبات الواحد منهما يبادر الآخر بالكؤوس، كلما تخيل بعض بوادر الصحو عليه، وذلك حتى تبقى للسكرة سيادتها وللمنادمة حقوقها. وظلت المرأة على هذه الحال مع طرفة إلى أن نفد كل مالها، وعجزت عن أداء أثمان سكرات نديمها وسكراتها، فصارت هي وهو يقذف بهما خارج كل الحانات، ويشربان أحط أنواع الخمور، بل والكحول الخالص أحياناً. وهكذا دخلا في دروب التشرد والتسكع المظلمة الملتوية، يلاحقهما فيها الصبيان والشباب باللعن والرمي بالأزبال والحجارة. واتقاءً لهذا الشر، ولظلم ذوي القربى، أضحى همهما الأكبر هو الاحتجاب عن الأنظار نهاراً والتنقل من ملجأ إلى آخر ليلاً. وذات صباح استفاقت المرأة نفسها وحيدة في غار بعرض الصحراء، ولا أثر لطرفة إلا قطعة من الجلد مكتوب عليها بخط يده: «عليّ يا أختاه، هذه الليلة، بالرحيل طلباً لمال أسدد به ديوني وديونك. فقد عشت عبئاً عليك حتى أفلست ولم يعد لك ما ترهنينه من الثياب والحلي. واليوم لا بد أن أتكفل بما يكفينا من خمور جيدة لما تبقى من حياتنا. فإني وحق السماء! لا أرى لنا في هذا العصر اللعين مخرجاً إلا في السكرة الدائمة، أو في أن يتهاوى العصر على أهله طللا، فتُعاد نشأتُه خلقاً جديداً. . . إني قاصد البحرين بكتاب من ملك الحيرة عمرو بن هند إلى عامله هناك، يأمره فيه بإحسان مثواي وإغداق العطايا عليّ. فانتظريني في غار التائهين، واصبري، فإني عائد إليك بما ستملك يدي». ولم تمض أيام قلائل حتى أقدم على المرأة في غارها رجل يدعى المتلمس، فسلم ونعى إليها طرفة، واصفاً كيف قُتل مغدوراً على الطريقة المحفوظة في ديوان العرب. قال: «أنا المتلمس صديق طرفة ورفيقه في الطريق إلى البحرين، فقد قصدنا معاً هذا البلد في نفس الظروف ولنفس الغرض. غير أنه، وقد أوشكنا على إنهاء السفر، انتابني ريب شديد في مضمون كتابي ففتحته، فإذا فيه أمر بقتلي، فوليت راجعاً بعد أن يئست من حث طرفة على فض كتابه والاطلاع على ما فيه. وقد علمت بما أخبرك الآن به: إن طرفة قد قتل على يد عامل جديد استعمله عمرو بن هند بعد أن رفض السابق تنفيذ ما في الكتاب لقرابة تجمعه بالموصى به. وحكي أن ذلك العامل قد خاطب طرفة قائلاً: «إني قاتلك لا محالة فاختر لنفسك ميتة تهواها». فأجاب: «إن كان ولا بد فاسقني الخمر ثم افصدني»، وفي رواية أخرى: «إن كان ولا بد فاسقني الخمر ملء رأسي ثم اقطعه وابعثه إلى سيدك في دن من الشراب العتاق». لم تنبس المرأة بكلمة، بل انزوت في قعر غارها، وطلبت من المتلمس أن يتركها وألا يخبر عنها أحداً. ولما أن ظلت وحدها، أخذها نعاس ناعم سرعان ما انتظم في حلقات رؤى ثارية شديدة متلاحقة: فقد رأت المرأة أنها تحولت إلى حورية تمارس في حق رجال الجاهلية الجذب والاغراء، ثم تطعن كل من سقط في شباكها بخنجر حاد مميت. ثم رأت أنها صارت حية عظيمة تتوارى خلف أنصاب منامة واللاّت والعزى، وتلسع كل العابدين الراكعين، فيسقطون صرعى، وكأن الآلهات أنزلن عليهم الموت برداً وسماً. . .

ورأت المرأة رؤى أخرى أفدح وأعتى.

٣ . لحظاتها مع عنترة

قال الحافظ:

ظلت المرأة على تلك الحال، تتداول عليها الرؤى الخطيرة المرهبة، إلى أن أيقظها صوت رجل قائلاً: «رحمة» بنفسك يا أختاه! لقد قضيت أياماً كثيرة في هذا الغار، تبيتين خالية البطن، مهجورة الفرج، تهذين بين اليقظة والنوم هذياناً حاراً مزعجاً، لا وحق الكعبة، لا بد لك بما حملته إليك من لبن وتمر تسدّين به رمقك، فتعودين إلى رشدك».

قالت المرأة، وابتسامة عريضة تعلو محياها: «سأفعل ما تريد،

ولكن بعد أن تطلعني ذاكرتي عليك.. ألست أنت عنترة، أو ما تبقى من عنترة بن شداد العبسي؟»، فبادر الرجل إلى الهتف: «بلى يا أختاه، أنا من تذكرين. ولقد شوقني إليك ما حكاه لي المتلمس عنك في السر، فأبيت إلاّ أن أشد الرحال إليك لأراك بأم عيني. فهل من حاجة لك أقضيها؟ وهل من عدى أثأر لك منهم؟ هذا أنا، وهذا سيفي المسلول طوع رضاك». وردت المرأة، وهي تحملق إلى وجه محاورها: «وكيف تقوى على الثأر لي وأنت - كما أراك - جسد منهك يحمل كل آثار التسكع والشرود؟ ألا تنظر إلى ظهرك المقوس المنخور! ألا تحس بالقمل يعشعش في رأسك وزوايا عورتك! لا والذي جلد الإبل جلودها لن آكل من يديك حتى أطهرك وأفلي شعرك وأغسل أسمالك. فهاتني رأسك لأبدأ به يا عنترة».

قال الحافظ:

وبينما عنترة يتوسد حجر المرأة تاركاً لها الاهتمام بفلي رأسه، إذ شرعت هذه الأخيرة في المساءلة، وكأنها تحدث نفسها: «حمداً لله يا عنترة أن نيراني استثنتك ولم تلحقك، لكن بربك حدثني: أحقاً قلتها! والحرب على أشدها، وأنت فيها تحصد الأرواح بسيفك البتار؟ أحقاً لم يلهك عن عبلة الدم المراق ولا الرؤوس المقذوفة في الغبار، فقلتها صورة ما أشعرها: «فوددت تقبيل السيوف لأنها/لمعت كبارق ثغرك المتبسِّم»! وقلتها ولم تخش النحر حيث أردت التقبيل! تالله لو أن رجلاً قال فيّ مثل هذا الكلام، الطافح بالروعة، الجامح بالعشق، وكان صنوك على خلق عظيم، لبادلته الحب بالحب، وفتحت له صدري وآويته فيه. لكنّ عبلة، لها الويلات، ظلت في طيشها تهرب من سواد جلدك وتعمى أن ترى فيه وخلفه أكاليل العزة والنقاوة. وظللت أنت - رغماً عنك - لا تريد من النساء سواها. فأي عبث هذا الذي يحكم خطانا وينتقص دنيانا!».

وأجاب عنترة ودمع العين يفضحه: «صح ما تقولينه يا أختاه. وكأني بالمحن ما زالت متناوبة عليك حتى أنطقتك بالحكمة. وما أرى إلاّ أنك تعبرين بالفطرة والسليقة عما أكد أنا في بعثه بالقافية والميزان. وفي العمق، كلانا يحمل بين أضلاعه جاهلية تؤرّق ولا تفوت، وتحتضر ولا تموت. ونصيبنا منها اضطراب ولوعة كاوية، وحالتنا معها تلاحم مخذول وهوّة ضارية. فكأننا خلقنا لغيرها، وكأننا موعودان لحياة سواها».

قالت المرأة باكية، وهي إما تهرق الماء على عنترة أو تنفض عباءته: «صدقت يا بن شداد، ونلت السعادة يا أفصح الشعراء، ويا فرحة العرب السعيدة وذكراهم التليدة. صحيح، أنت وأنا موعودان لحياة أخرى، فوداعاً يا صاحبي، وداعاً. ومن منا عاجلته المنية حقّ عليه ترقب الآخر».

قال الحافظ:

وما إن أمسكت المرأة عن الكلام حتى قام عنترة وقبّل رأسها ويديها، ثم ولّى من حيث أقبل، متثاقل الخطوات، مثقل الخاطر، مضطرب الجوارح والملكات. ولما غاب، استكانت المرأة إلى نوم آخر مقرون أيضاً برؤى متدافعة متلاطمة، فرأت - وكان هذا آخر ما رأت - أنها عظُمت، وأضحت متعددة الأطراف والأرداف، تحلّق طائرة على علو منخفض، وتحفها هامتان، واحدة تلهج باسم طرفة، والأخرى باسم قيس. وهي في أثناء تحليقها تزرع الرعب في قلب أهل الجاهلية: ترجم بالحجارة زهيراً وكل دعاة السلم المريض من الحكماء، وتحيض ملء فروجها على المنذر بن ماء السماء وعمرو بن هند، وعلى الأسياد والشعراء، مغرقةً خيامهم في لجج من دمها الملوث. وحين كانت الهامتان تميلان عليها سائلة: «لِمَ هذا الغلو، يا أخت العرب، في ثأرك من بني قومك ومن العظماء فيهم والأدباء؟»، كانت تجيب لتوها: «لأن العيش بينهم ذو عقارب، وإني جربّت فيهم كل دواء من غير جدوى ولا فلاح. فلم يبق لي إلاّ أن أعبث بأرض العبث، وأن أضرم النار في أيام العرب، عسى أن يأتي الرماد والردم ببعث جديد، وتفرزُ الفتنة التبدل الأعظم».

وختم الحافظ قائلاً:

وبينما المرأة تحلق في رؤى منامها، إذ سقطت ذات ظهيرة في عرض القيظ والهجير، فأغميَ عليها، وأتاها الرمل من كل صوب، فغطاها وأتلفها. □



الطلقة الأخيرة

عبد القادر الشاوي



■ سالم يريد الآن أن ينام على فراش وثير. كان قنوعاً وله في الباب قعدته، يحرك شيئاً وراءه، يتلوى، ينفث رشاشاً من اللعاب المائع، ثم يدور حول نفسه، ولكنه لا يفارق الباب، وحتى حين جاءوا بالمائدة ونزل عليها الصغار كالذباب، ظلّ هو هناك ينتظر مِنْ أرحمهم إلى قلبه كسرة أو نفحة من مَرق يبلّل بها ما انتشف من عروق حنجرته. يرى وأُحسُّ أنا في عينيه إنسانيتي. أريد أن أُلقمه فتدعي أمي، في هياج، أن العباد أحق بالخير الفضْل، اتحداها خلسة فألقي إليه بما جمعتْ يدي في حفنة، يلتهمها بأناة العجائز الحزانى، يدور حولها بفمه، يشمها، يُعرّي نواتها، ثم يرخي عليها لسانه لكي يمسد منها ظاهرها، فلا تهرب منه لقمته، يختار أكثر الحلول تكراراً فيأكلها. يقول الصغير بصوت الشبعان: بلعها يا حفيظ... تنظر إليه أمه، فيحول وجهه نحو المائدة ثم ينكّس رأسه ويمد يده بتلك الحركة الاعتيادية: مِنْ إناء أخذ ينفذ دسمه إلى فم ينهش ما يُحشى به من لقم. هكذا هو. إنه يرى صورته الآن ولا يرى سواها في الحقيقة. لم يأخذ الكبر منه أيام طفولة حانية. المخلوق نفسه ما زال هناك. يعود إلى الباب كلما اجتمع الأهل على مائدة في الداخل، لم تتبدل قعدته حتى حين قلبوا له ظهورهم، بداوم الانتظار لعل لقمة تحن من ذلك الصغير ذاته فيأكل هو كما يأكلون هم. ولما قامت الألفة بينهما، سالم وهو، صارا في خلوتهما شغلاً لهذه الأسرة المنكودة.

افادة الأمومة

سالم ربيب مصادفة فريدة، فهو ليس ابني ولكني ربيته على ◄



الطاعة مكرهاً. لا يتكلم فلا أفرض عليه حالاً ولا مقاماً. ولما حدد موقع الباب من ركن هذه الغرفة (وأشارتْ إليها..) بالذات صار لا يتأدب إلا في العتبة. هناك قعدته. نصرف له الأكل هناك فيأكله، ينظرْ إلينا من هناك ونحن نأكل. وكثيراً ما كنت أقول للصغير: دَعْهُ في الباب.. أدخلْ أنت.. ماذا دهاك؟ وإذا ألفك كيف تنسلّ منه؟ ولكنه كان يبكي فأحس بالبكاء في قلبي. إنه ينكدني هذا الصغير في البله والشدة. رأيته يلاعبه في البداية فقلت: إن الألفة لا تنعقد بين اثنين إلا على مدار عام من المناجاة على الأقل.. فخيب الصغير ظني في أيام، إذ سرعان ما كشف له الصغير قلبه فأحبه سالم. صار لا يألف غيره بل ويهرب مني أنا ويقصده. ثم رأيته ينام في حضنه. كان سالم بعينيه الواسعتين الذابلتين يجد في سخونة الصغير مرقداً لبرودته، ولكن الصغير أيضاً كان يجد في سالماً حنانه. نحن كنا نعامل الصغير كإخوته، ولكنه انحرف عنهم، وزاد في الانحراف أنه صار لسالم أنيساً. ثم كان أن غاب عنّا صحبته يوماً كاملاً، فتملكتني رعدة الخوف. أطلّ من الباب فلا أرى الصغير شبحاً ولا أسمع لسالم صوتاً. أدور في الدار وتدور معي كاسطوانة. أنهر الأطفال والعنهم، أقول للزوج: ماذا جرى لهذا الصغير حتى أغواه سالم وصرفه إلى هذا الهجر الغامض؟، فيقول لي: الصغير كالفرخ، لو عاد جزعناه وضربناه، لو مات خلفناه. إن الشهوة أيتها المرأة ترياق الموت.



جنحة الصغير

أيامها كنت أعرف أن (وادي معكاشة) يبدأ في الانحدار من فوهة جبل (القرن)، هناك في الأعالي، مغيب الشمس ومرقدها، قمة ترعرعت في هواءٍ مارحٍ فاضٍ عن زرقة السماء. ذلك هو نبع الماء وهذا هو مجراه. وحين وجدتُ أن الانحدار أسهل صار سالم يتبعني ساكناً، يتمسح بي فيدور حولي وأدور حوله. ينقلب على ظهره فيكشف لي صدره وبياضه. كنا نتلاعب في رفق، أرمي بشيء فأتوقع منه أن يجري في طلبه ثم يأتي به مستسلماً. وحين أهدهده لكي يقلدني بطريقة إنسانية يعبس في وجهي وأحسب أنه خاصمني. لا يريد مني أي شيء، بل ولم يكن يعرف مجرانا ومسرانا، وحدي الذي كنت أعرف الطريق إلى الوادي. سأقف به على صفحة صخرية ملساء فوق الغدير تماماً، سأفك عقدة سروالي وألقي بنفسي في مَاءِ الرَّجِمِ. سأدعوه للملاعبة الحامية: هيّا، اقفزْ يا سالم، هاك، خُذْ. سأرشه بالماء، غير مُجْدٍ في ملتي أن ينزعج أو ينقبض أو يرى في طلبي مكراً أو هيجاناً أو إمعاناً في الملاغة. ولكن المصيبة أن سالماً كان قد أخلد إلى الصمت فاعتنقه، لا يرد لي جوابي، بل ولا يسمع مني كلامي. كأنه بدأ بالخصومة ولما لم نبلغ بعد موقع الغدير ولا موطن الحجر. ماذا دهاك يا سالم؟، أكاد أدخل إلى ضميره فأقبض على برودته وجفائه، ولو كنت أعرف أننا خرجنا معاً لهذا الغدر لما شددنا الطريق إلى رحلة. جئنا إلى بَرَكَةِ الماء وها نحن في شجن الخرس. كيف هذا الصمت الحزين؟، ستقول أمي إنك غررت بصغيرها فشوّهْتَ مني كبرياء الطفولة، ولو كانت تعلم لشدتك بحبال وِثاق وأعفتْ ضلالي من شتيمتك. لماذا لا تكلمني والماء بيننا صفوة؟ هكذا صرتُ أكلّمني في الواقع. إنني الآن في الماء، أغطس فألامس القاع ثم أخرج شاهقاً، تتكبر أنت في خلوتك الصامتة. قعدتَ على السطح الأملس فما غطستُ ثانية. راقبتك كأنك تشهد لي بالخيانة. في عينيك رفة وتحوّلُ وجهك شامتاً نحو شجيرات ظليلة أطلت على الوادي. أخرج من الماء وآتي إليك. ماذا دهاك يا سالم؟ أتطلب العودة ونحن في عمق الوادي وسكينته؟ أتخاف عليَّ من وجع الأمومة أم على ذاك من ضجيج العتبة؟

سمعنا أنا وسالم صوتاً أتى فجأة هكذا من الغابة المجاورة. وقف هو على الصخرة وسارعتُ أنا إلى ستر العورة. وبعد سكون انطلق الصوت مزمجراً. تحرك هو وداهمني أنا الخوف، ابتعد عني كأنه يحفر عن موقع الصوت واقتربتُ منه لأنه فلذة من شهامتي. حرك رأسه في اتجاه الصوت فحركتُ رأسي في اتجاهه. لعله يرى الآن في الغابة الحراشية خيالات المتحركين. وحين طار الحمام البري، المرقط بعضه، عالياً راقبه ساهماً. رفعتُ رأسي نحو السماء فوجدت، بنظرْة أخرى إلى الأسفل، أن سالماً مهما حاول لن يستطيع الارتفاع فوق ركبتي. بيننا مسافات وفروقات تختلج في الباطن. كان الحمام البري يطوف طوفاناً في أنحاء من الصفاء الأديمي الهادىء في سربه ودربه. أردت أن أقول لسالم إن الحمام يزوّق مساحة بين الحرية والهواء، ولكنه كان يحرك شيئاً وراءه ثم يلحس زغبه في فتور. تململتْ أوراق الغابة واتجهتْ مع نسمة ريح خفيفة، فتوهم سالم، فيما يشبه المفاجأة، شبحاً فريداً يخرج علينا في الوحدة. أجفل ثم صوّب عينيه الواسعتين في اتجاه... كنت أرى سرب الحمام في منتهاه وكان هو يراقب خنزيراً هائماً يداعب مجرى الماء الرقراق كأنه يشرب من سلسبيله. كان سالم في وجه الحقيقة والحمام المُغادر لاهياً عني.

لقد ظهر الخنزير يا سالم

سالم هو الذي رأى. أما أنا فكنتُ في شأن الحمام البري الطوّاف. تذكرتُ الواقعة بالتفصيل منذ سنوات. إنني استعيدها اليوم بوداعتها الكاملة. كان سالم في حالته النافرة تماماً، ووجدتني أضمه إليّ وأسنده إلى صدري بحنان، ولكنه فهم، قبلي، أن علينا أن نهرب لكي نستعيد خطونا المشوق. الخنزير لم يزل هناك. كان يرانا على الأرجح، وكنا نراه طبعاً. وفهمت، دون سالم، أن الرؤية فيها اشتباه. هل سينزل الخنزير إلى الماء فيعكره ثم يقطعه واثباً نحونا؟ ولما جرني سالم من يدي فهمتُ إشارته الآمرة. فصرنا نصعد وكنا نتسلّل هاربين بين أشجار الدفلى المورقة وتراب الطريق الأغبر. مِن (الكُدْية) رأينا الوادي والخنزير الحائر والغابة الكبيرة والمنظر العام كله وقد امتد في فجاج الخضرة اليانعة. بعيداً، هناك، تَحْت، ونحن فوق، يَدْفَعُنا الطريق إلى الدار ونتسلق رسمه العفوي الغامض. سالم يسبقني وراءه أمشي مُطْرِقاً. كان عليّ أن أقول له: مهلك يا سالم، خُذْني باللين ولا تجهد مني أعضاء البدن الصغير... لقد غاب الخنزير! ولكن كيف أكلمه وهو يصرفني بالصمت؟ فقنعتُ منه بالدلالة وبدا لي أن الطريق يمتد إلى الدار كأنه يمشي في جنازة.

حلم بضمير الغائب

حلم، هو الصغير، في عز نومه الوادع أن الوالدة تجرجره من رجليه وهو يصرخ ويستغيث حتى تعثر رأسه المدمى بالعتبة. بدا لنفسه منطرحاً ذليلاً خنوعاً مجروحاً. نادت الوالدة على سالم فجاء يُقَفْقِف لا يستره إلاّ زغبه. وحين انتصب أمامها لوَّثْ عنقه بقبضة يدها وأجلسته أمام المُنْطَرِحِ أرضاً قرب العتبة. قالت له: هذا مسكنك ومرقدك... أتعرف الراقد هذا إذنْ؟ قُلْ؟ ثم فسختْ

حزامها وسالم ينظر إليها بين الفضول والخوف. ولما فَلَتَتْ منه مقبضاً سيكون في راحة يدها اليمنى أخذتْ ترش ظهره بماء كأنه جُمل إليها في إناء سحري من وادي (معكاشة) وتهوي عليه بالضربات اللاذعة. إنه يصرخ الآن كأن سالماً يضحك شامتاً به. قد كانا في الوادي وهربا من فم الخنزير البري، طار الحمام البري المرقط وهما يربانه سارحاً، الماء في الغدير والحجر الأملس، الصمت والغابة السرية، وها هو يضحك كأن الجرح لا يُرشّ بالملح أمام ناظريه. وتقول الوالدة: أين كنت أيها الكلب. . قُلْ؟ وهو لا يأثر بالعض أو بالنباح لإنسانيته المهانة. أهي الشماتة من أعراف المزاح الصفيق؟ ولما حسب أن الوالدة قد غفلت عنه، حدج سالماً بنظرة غاضبة وتوعّده، ثم قام إلى فراشه تاركاً له العتبة. وما أن تمدد حتى سرى الألم في رضوضه المكلومة. ولما تأوه فتح عينيه فيما يشبه الظلمة وخرج من الحلم سالماً. استوى على الفراش وخطر له أن يسأل نفسه: لماذا لم يخرج من الحلم حين كانت تهوي عليه أمه بالضرب؟

قطيعة

بيني وبين سالم جفوة غائرة، بيّنة وفاغرة. لم يعتق رقبتي في حلم، فَهَجَرتُه. حالة أشبه ما تكون بالعزل قابلها بالحيطة ثم تحقق من غورها البعيد، عاد إلى عتبته وأقلعتُ أنا عن مخادعة أمي يوم كنتُ أمده باللقم الدافئة فتزجرني، صالحتُ حنانها وخاصمتُ ألفته. وكنتُ أنتظر منه أن يتودد خانعاً لإرادتي، فأشعر منه بالمذلة إنْ هو أراد أن أغفر له زلة صريحة. وأحسبه في هذه النقطة كان معانداً، له صلفه ونفسيته المتجبرة. ومما أثارني فيه أنه صار خاملاً متوحداً مقطوعاً، ثم، بعد أيام، صار يتردد إلى مركز قريب من منزلنا يختلف إليه رجال المخزن ولهم فيه، بالغموض المعهود في مثل هذه البنايات، مآرب شتى، فأصبح في نظري خائناً، أو لعله أراد أن يستعدي ـ وهو الحدس الذي أدركتُ به الأمر ـ عليَّ رجالاً من فصيلة أخرى. قلت للوالدة إنه أصبح مخبراً فاشهدي عليه! وما كان لها إلّا أن تفرح لأنها كانت تنظر إلى القطيعة بيني وبين سالم بعين الرضا، لا لأنها فصلت بين مخلوق وآخر جربتْ في الفصل بينهما طرائق العارفات بحال الانجذاب والمحبة، بل لأنها حزّت بعض العروق النابضة بالتواصل، فصيّرت القطيعة بالضدّ لذة وهوى. أصبح سالم الآن متمسكاً بموقفه السياسي لا يريم عنه، لم يعد يجد في العتبة مقعداً ولا في الدار موطناً. . . أصبح هناك. . . قرب المركز المخزني تماماً. ينظر إلى صورتنا الفوتوغرافية أشملها من بعيد، بيننا وبينه مسافة قامتْ فيها الخضرة والأشجار والبشر المهجورة (أو ما كنا نسميه «السانية»)، وخيّل إلى الأسرة جميعها أن سالماً صار عدواً قومياً بمعنى من المعاني. وحين تدبرتُ الأمر وحدي تصورتُ أنني إذا ناشدته المودة القديمة فسوف يرعاها، وأنا لا أريد منه إلاّ أن يقلع عن فعلته، فلم يكن يخفى أن الصراع انتقل من العواطف إلى المركز المخزني، وأن في الأمر، إذا ثبتت الوشاية، معركة مضمرة سوف يلقي فيها المخزن بأسلحته النارية العنقودية وليس لنا والله، كما قال طارق بن زياد، إلا الصدق والصبر. فاستنجدتُ بالعهد الحافظ وسوّدتُ رسالة ـ أملتْ عليّ الوالدة متنها ـ أقول له فيها بالمعنى: يا سالم «لقد بلغ السيل الزُّبى وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن، فإن كنتَ مأكولاً فكُنْ خير آكل. .»، ولكنه، فيما يبدو، تزوج بالنكران، فلم يجنح للسلم الممدود.

وهكذا أصبحنا نستعد ليوم الحق الفاصل. هو وأعوانه من هناك، ونحن عائلة متحدة من هنا. ستتواجه قرب (السانية) يوم أجل محتوم، وسنرى أين ستقف الخيل. وكان مما أصاب الوالدة أنها بدأت تنهاني، دون إخوتي، عن الخروج، فتصورتُ أنني أغلى وليدها وأبرّهم إلى قلبها، ولكنها ادعت بعد ذلك، أن سالماً إنما يدبر لي مكيدة قمعية وسوف يخطفني ـ كما توهّمتْ بالسُّهْم ـ في يوم معلوم من تاريخ كذا (وذكرته بالأرقام). وكيف لنا أن نرد غدر الغادرين لو يتّمونا فيك يا صغيري؟ هكذا إذن: إن سالماً يدبر لي أحبولة، فما أمكره من مخلوق! ولطالما ادّعى أني صحبه ورفيقه، فانْظُر إلى غدر الزمان وأهله.

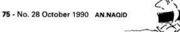
خرجة

كنا قد عسكرنا عائلة واحدة متحدة، وجدتني مصادفة طليعتها وحزبها الثوري الشرس، وراء متراس من الطوب الطيب. ولو كان للوصف مزاجه لَذَكَرَ لكم كيف تجندنا للمقاومة الشريفة. في الجو غيوم كالحة ورعود سوف يحين حينها. من الزاد ما نقتصد فيه، فلا نشرب الشاي إلاّ للتدفئة ولا نقتات من حباتِ زيتون يابس إلاّ لدرء فراغ الجوع، ولا نسمع من الموسيقى الكلاسيكية إلا (باخ). ومن الأيام ما نعدها حتى لا تداهمنا المفاجأة وتجرفنا المباغتة. وبدت أيام الاستعداد للمواجهة المحتومة أطول مما كنا نتوقع. أما وقت النزال فلعله كان من الأسرار. كنا نفترض أن سالماً سوف يقود رجال المخزن من الجهة الخلفية للمركز حتى لا يبين لنا منهم أي أثر، أو لعلهم سيحفرون خندقاً يمتد إلى جوف الأرض فيطلعون تحت أرجلنا هكذا بالمفاجأة التي كنا قد احتطنا لها، ومَنْ يدري فقد يهبطون من السماء إنْ هم جربوا معداتهم الحربية. وكان تصورنا للمواجهة أنهم إذا بدأوا، مهما كان الشأن، أرسلنا عليهم غضبنا الشديد. وكم كانت دهشتنا يوم ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ بالذات عندما لمحنا، من موقع العَسْكَرة، تحركاً مشبوهاً، فصاحت أمي: احذروا، احذروا. . . مناورة، مناورة. . بالكم خذوا!! وما كدنا نترامى على لوازم المواجهة حتى ظهر لنا سالم في مقدمة الصورة الفوتوغرافية التي كنا نراها نحن الآن، بدا واقفاً، ولما استدار وراءه في لفتة سريعة انطلق يعدو هارباً في نَحْجٍ مكشوف يقود إلى (السانية). وفي لحظة أخرى خرج قوم من رجال المخزن في أثره. وقفوا. كان قد ابتعد قليلاً، فلمحتْ أمي بالعين المجردة رجلاً منهم يُصَوِّب بارودته نحوه، ثم خرج الصوت مُلَعْلِعاً، وفي قسوة فاجعة تناهى إلينا نباحه الأخير.

كأني الآن أسمع صراخ أمي وعويلها: الله قتلوه أبناء الكلب. . الله قتلوه أبناء الكلب. . وهي تجري نحو (السانية) موجوعة، ملدوعة، قد نسيتْ أننا ما عسكرنا في موقعنا الحربي لمواجهة الأعداء إلاّ لكي نقتل سالماً شر قتلة.

وكنت أعرف وحدي، بحكم الصحبة والجفاء وتلك العداوة المتأخرة، أن الكلب الذي درّبني على إنسانيتي قد مات سالماً.

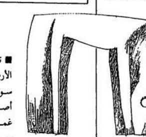
وتذكرتُ بالطبع أن الكاتب الإسباني Pio Baroja كان قد قال في مقتل كلب مسعور: «ولكن المسكين، وقد نفذت الطلقة إلى أحشائه، خرَّ ميتاً تحت شجرة «أكاسيا»» □






العدّاء

محمد غرناط



■ تقلصت الشمس في الطرف القصي من الأرض، ثم اختفت، وانتشرت مكانها بقع سوداء كجلود حبشية. بعد قليل انطفأت أصوات الخيل وجدران الطين القديمة. غمرني احساس غريب بالهلع، فتأبطت جرابي وتقدمت تحت الظلام نحو ضوء يضطرب بعيداً في فراغ ليلي مغلق. كتمت خوفي، واندفعت بجلد عروة وحركة الريح تملأني من كل الجهات.

تضاعف هلعي، فوجدتني فجأة أعدو بسرعة وأصوات ناهية تتبعني. أمرتني أن أعدل، لكني اقتحمت الطريق بجرأة مهر هارب. لم أعرف كم عدوت، غير أنني لما دنوت رأيت أمامي طريقاً واسعاً تملأه أضواء مشعة، وعلى جانبيه تقف بيوت متتالية ذات رؤوس هائلة كرؤوس أغوال ضارية.

قعدت إلى الأرض وانتظرت حتى هدأت أنفاسي، ثم حككت جرابي وتساقطت منه بقايا خبز ناشف. جمعتها في كفي وبلعتها بصعوبة. أسرعت وجوه العشيرة إلى خيالي. ملأت رأسي أصواتهم الناعقة. لم أعرف ماذا قالوا، لكني حين تركتهم سمعتهم يضحكون برعونة بالغة. فتأبطت جرابي وانهمكت في السير بخطوات حثيثة.

بعد هنيهة، اقتحمت البياض، فأحسست أني طرقت أرضاً عذراء. ركبني الشوق إلى مجدي، فتابعت طريقي بشجاعة وأنا أراقب حركات ظلي المتقاطعة. فجأة قفز أمامي جسد غريب، ووقف ينظر في وجهي بصمت مريب. خيل إليّ أنه واحد من عشيرتي فكرهته. وجه مستدير يغطيه زغب حفيف. عينان منطفئتان تتحركان بعسر. أنف بدائي معقوف. طويل ومتصل، وفيه حفر متناثرة. سألني بصوت متقطع:

ـ هل أنت عائد من غزوة؟

انتظر جوابي قليلاً. لم أتكلم. فأضاف بعطف:

ـ يظهر لي أنك إذا تابعت طريقك ستموت. أنت متعب. وليس بإمكانك أن تسير أكثر. زيادة على هذا أنت شيخ هرم. وبدون شك انهزمت في غزوتك.

ابتسمت وقلت له بثقة:

ـ أنا لا أهاب الموت ولا وعثاء الطريق. اعطني ما آكل إن كان معك طعام ودعني أذهب لشغلي.

تراجع الى الوراء خطوة، وقال:

ـ وهذا الجواب. ماذا فيه؟

قلت له:

ـ فيه البرد يا سيدي. ولهذا خرجت ليلاً. فأنا أبحث عن حق ضاع مني منذ زمن طويل.

ضحك الرجل باستخفاف. ارتفع صوته حتى ضجت أذناي. تجاهلته، وشخصت ببصري إلى السماء. رأيتها بدون نجوم، فثنيت ركبتيّ وقعدت ببطء. غير أن الرجل صرخ من فوق رأسي زاجراً، ودعاني للنهوض بسرعة.

وقفت مندهشاً وتساءلت:

ـ ماذا بك؟

قال بصوت حذر:

ـ يبدو لي أنك غريب عن هذا المكان.

قلت له:

ـ لا أعرف. لكني أعرف أني أبحث عن حقي في إرث قديم.

غلى الدم في عروقي وأنا أنطق بكلام آخر بدا لي أنه لم يسمعه. ولما توقفت قال بجد حيرني:

ـ أنت مغامر. أفي هذا الوقت تقوم بغارة جديدة من أجل حقك في الإرث.

قلت في نفسي وهو يتأملني بغرابة: ليس هذا الرجل إلّا سكيراً دنيئاً.

اقتربت منه لأتأكد، فشممت رائحة قذرة في فمه وثيابه الخشنة. ابتعدت عنه متقززاً، واستمعت إليه يتابع:

ـ هل تعرف أين أنت؟

درت ببصري ولم أتبين شيئاً. كل شيء هاجع ولا أثر للحركة. التفت نحوه ودعوته للكلام. شدني من كتفي برفق وقربني منه، ثم همس في أذني:

ـ أنت في حيّ من أخطر أحياء العرب. بيوته مصقولة وليس فيها شائبة. وأنت إذا طلع عليك الصبح هنا جمعت ذباب الدنيا. وفي هذه الحالة تخرج من هنا كما خرج الشنفرى من قبيلة بني سلامان. هل تعرف الحكاية؟

تملكني الرعب وأنا أحرك رأسي بالايجاب. تأملت شفتيه الغليظتين لحظة، وأحنيت رأسي. فكرت في الفرار، لكن الأضواء كانت تطوقني. رفعت نحوه عينين مضطربتين، وقلت بحذر:

ـ هل هؤلاء أزديون؟

ردّ بصوت خافت:

ـ هؤلاء قطاع طرق يحسُنون بلا ماء. وفي كل يوم يصنعون من جماجم الناس لامية جديدة للعرب. أنا لا أمزح. انظر حولك إذا لم تصدق كلامي.

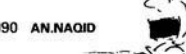
سألته بغباوة:

ـ هل أنت أحد شعراء العرب؟

وغرق في الضحك بصورة استشعرت معها الألم. رجوته أن يكف ففعل ثم قلت له مستعطفاً:

ـ أعطني طعاماً لأعتق روحي..

نظر إليّ بإشفاق، وأخذني من ذراعي خارج الطريق إلى مكان تخفيه عن الأضواء أغصان أشجار ملتوية. طلب مني أن أنتظره قليلاً واختفى عن بصري. اتكأت على جذع شجرة ضخمة وأنا ألهث كأنما وصلت اللحظة. انتابني احساس بالندم على قرون طويلة قضيتها في العدو. تذكرت أفراد عشيرتي فازداد ندمي. حولت بصري إلى يميني، فرأيت كلباً أبيض يقصدني بخطوات بطيئة. جمدت في مكاني دون حراك. تابع سيره نحوي حتى وصل وأخذ



يتمسح بفخذي. ولما سمع صوت أقدام آتية استدار وتركني. حضر الرجل، وبحركة سريعة دسّ ما حمله في جرابي ومضى دون أن يودّعني.

صبرت على الجوع منذ أن بدأت الطريق. هكذا علمني عروة. ولهذا، أكلت من الطعام قدراً وأخفيت الباقي. ثم أسندت رأسي إلى الشجرة ونمت. وقبل أن تطلع الشمس أفقت. فوجئت بالكلب الأبيض هاجماً بقربي. مررت بيدي على عنقه ففتح عينين وديعتين. قربته من صدري وقبلت ظهره. التفَّ حول نفسه فأطلقته. رفع ذيله وأخذ يدور حولي بايقاع هادىء. تبينتُ فجأة أنها كلبة بيضاء. تيقظت أطرافي بقوة وزحفتُ نحوها. التفتُّ حولي بسرعة فلم أر أحداً. دسست يدي في جلدها وفكرت في شيء دنيء. ترددت قليلاً.. ثم ركلتها بعنف. كتمتْ المها، وأسدلت ذيلها على شقها وهربت.

تأبطت جرابي وقررت أن أبدأ النهار. المكان غريب عني ولا أعرف فيه أحداً. أغمضت عيني لحظة وتخيلت نفسي أعدو. تراءت لي المسافة بدون حدود ومغطاة بسحاب داكن. التقطت أنفاسي وبدأت. الحيطان منتصبة في تصلب أخرس. الأجساد تتقاطع بلا حرارة كنمل صغير. ضجيج مبحوح يخترق أذني ويمضي بلا أثر. تضاءلت شيئاً فشيئاً حتى تحوّلت إلى نملة منفصلة تحمل رأساً بحجم رأس ديك مخدوع إلا أني تابعت طريقي بجلد عروة.

سألت، فقيل لي مرّ من هنا وهنا.. إلى هناك وهناك. وسرت كدابّة سائمة. أبحث عن مجلس الشيخ علاء بن ماء السماء. ولما وجدته مسحت العرق المتجمد عن وجهي وتقدمت رافعاً أنفي. سمعت فجأة صوتاً نسوياً يسألني:

- إلى أين؟

التفت يميني ونظرت بحياء. وجه امرأة في وسطه عينان منحوتتان بعمق. قلت لها بلا تلعثم:

- أريد لقاء الشيخ علاء بن ماء السماء.

ابتسمت المرأة بنبل، وقادتني إلى مجلسه داخل ممر منقوش برخام مضيء. وفي بقعة واسعة محاطة بنبات حوشي رحُب بي الشيخ، وأنصت لي على غير انتظار. حكيت له قصة الإرث، وأطوار رحلتي الطويلة، فقال لي: «ما ضاع حقّ وراءه طالب»، ووعدني بأن أرجع عنده غداً صباحاً ليعالج أمري. وعدت راكضاً إلى مكاني.

انتفضت لاهثاً، وفتحت عيني، فوجدت الكلبة البيضاء تدور حولي. تنفست بقوة. فتحت جرابي وأخذت ما تبقى، وهمست لنفسي: من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة. اقتسمت الطعام مع الكلبة وطردتها دون تردد. وبعد قليل بدأت نهاري.

نهضت ببطء، وأخذت طريقي. سألت، فقيل لي مرّ من هنا وهنا.. إلى هناك وهناك. وسرت كما لو أنني كنت أحلم. تعثرت كثيراً وسط ألوان كثيفة تحدّ من نطاق بصري، حتى كنت في ساحة دائرية تحمل اسم رجل أعجمي. تساءلت بذهول: من تكون هذه الوجوه الداكنة التي تملأ الساحة؟ وأخذت أتنقل بنشاط غير مألوف. رؤوس ضخمة مرتفعة. عيون ذات صفرة فاقعة تتطلع إلى باب الشيخ علاء بن ماء السماء.

همست لرجل واقف:

- لماذا يزدحم هؤلاء هنا؟

ركز عينين حادتين في وجهي وقال:

- إذا كنت غريباً، فغادر هذا المكان بسرعة.

أخذت أرتجف بصورة مفاجئة. تساءلت إن كان هو الرجل الذي التقيت به ليلة البارحة. فكرت أن أسأله، لكني خشيت أن يتهمني بالغباوة. بحلقت في وجهه لحظات. نظراته شرسة برغم الصفرة التي تغطي عينيه. أنفه كأنف عروة تماماً. كدت أسأله، إلا أنّ الخوف منعني. فلذت بالصمت لحظات، ثم تشجعت وتساءلت مرّة أخرى:

- لماذا يزدحم هؤلاء هنا؟

التفت نحوي ونظر إليّ بغضب. ثم لكزني بمرفقه وبصق على الأرض. دفعت خطواتي بين الجموع. فكرت أن أفرّ إلى دفء الظلمة لأبقى مستوراً. ارتبكت. وجدت نفسي محبوساً وسط الأجساد المحتشدة. كنت ألهث. أنفاسي تتلاحق بسرعة. نزلت فجأة يد ثقيلة على كتفي. انتفضت، والتفت ورائي. هو عروة بالفعل. كدت أقفز لأعانقه وأقبله بين عينيه. تراجعت وأنصت إليه يقول:

- ألم تعرف أيها الصعلوك الغبي أنك اكتشفت مدينة جديدة؟

تساءلت باستغراب:

- أية مدينة هذه؟

قال ضاحكاً:

- ولماذا تبحث اذن عن حقّك في الإرث؟

قلت بثقة:

- هو أنت بدون شك.

قال باختصار:

- هذا لا يهم.

وشخص ببصره بعيداً. جمدت في مكاني. وبعد ساعات طويلة، انفتح الباب الواسع المقابل للساحة. انتفض الجميع، وعلت همهمات متصلة. ثم ظهر الشيخ وعمّ صمت مريب. لم ينتظر طويلاً. بسرعة فائقة سوّى المنديل الذي يحيط بعنقه وصاح بصوت صلب:

- ثابت بن جابر بن سفيان.. أو.. ثابت بن أبي كبير الهذلي.

خفق قلبي بشدة. ارتجفت ركبتاي حتى كدت أهوي. عادت الهمهمات، ثم ما لبثت أن انقطعت، وتلتها أصوات ممطوطة تقول مرة واحدة:

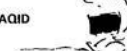
- حا.. آ.. آ.. ضـ.. ر..

وعلا صوت علاء:

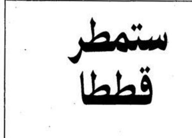
- القضية ما تزال غامضة. فلا بد من الانتظار زمناً آخر حتى ينتهي البحث.

رفعت رأسي باتجاه علاء. فضاء نحاسي ممتد. رأيته يدخل والباب يغلق خلفه بهدوء صارم. تأوهت ونظرت حولي بمرارة. رؤوس ضخمة، وبداخلها عيون صفراء متسائلة. وبحركة متوترة تفرق الناس. وبعد زمن عادوا إلى مكانهم. لم يفتح الباب. من أعلى ظهر علاء، وأعطى بصوته الصلب وعداً آخر. تتالت الأزمنة بملل، وفي كل مرة يرتفع وجه علاء، ويردد وعده، ووجهه يشمخ شيئاً فشيئاً نحو السماء إلى أن اختفى، ولم يعد يسمع إلا صوته يأتي من موضع شاهق ليملأ الساحة المكتظة. وكنا مثل النمل نجتمع لنتفرق، ثم نجتمع لنتفرق.. غير أن رؤوسنا تزداد كل يوم ضخامة، وعيوننا تزداد صفرة وشراسة.. □









ستمطر قططا

عبد القادر الطاهري



■ **قالوا:**

ـ عرفت المدينة طيلة الأعوام الأخيرة حالة من الجفاف لم تشهد لها مثيلاً منذ أمد بعيد. في الوقت ذاته بدأت تظهر على امتداد كل ليلة مجموعات كثيرة من الجرذان. والغريب في الأمر كله هو عدم وجود ولو قط واحد في المدينة كلها

قلت:

ـ خنقتني رائحة الأوراق البليدة ودخان السجائر المشاكس. قررت الخروج. أطفأت السيجارة ما قبل الأخيرة. زررت معطفي الأسود الثقيل ونزلت. كانت العمارة وسخة وكان مدخل بابها ساخناً وقذراً. وفي الشارع حيث كان الصبح لا يزال في أوله، كانت ثمة برودة لاسعة وغبار ثائر يطلع من كل جانب. تساءلت وأنا ألقي بالعلبة الفارغة وأشعل السيجارة الأخيرة: لماذا لا تمطر؟! بدا سؤالي صامتاً كجرس الحلم المخنوق. لم أبال كثيراً. رفعت عيني إلى أعلى.

كان لون السماء رصاصياً وثقيلاً على صدري المضطرب. أحسست بالاختناق. نفثت دخان السيجارة الرمادي بلا اهتمام. تنفست ببطء وتعب. ألقيت بما تبقى من السيجارة بعيداً. همست بصوت كان يشتعل بالفرح وكنت أحس به قريباً مني أكثر من أي وقت مضى: ستمطر!

ضحكت بلوعة. رددت وأنا أقيس حجم المسافة التي كانت تفصل بين عينيها وقلبي: ستمطر قططاً.

استاءت كعادتها. خاطبت نفسي متسائلاً: لماذا أحبها إلى حدّ الجنون!؟ احترت بين الوقوف ومواصلة الطريق. قررت في نهاية المطاف أن أمشي، ومشيت بلا هدف. كانت هناك ريح باردة وغبار ثائر لا يكاد يتوقف. هجست لنفسي وأنا أتابع أطفال المدرسة الذين كانوا يستعدون للدخول: سيأتي الجفاف على كل شيء! تحرك المتشرد الذي كان ينام تحت سقف عتبة أحد البيوت. أردفت إثر ذاك: أعوام مرت ولم تسقط ولو قطرة ماء. تسمرت في وقفتي، على حين غرة، وأنا ألاحق بأنظاري الذاهلة طفلة صغيرة كانت تشكو في صمت من البرد اللاسع والغبار الثائر، ومن أشياء أخرى لم أستطع أن أحدسها. فكرت في فعل شيء ما. أردت أن أخلع عني معطفي الأسود الثقيل وألفها به. بدت فكرتي صامتة بلا وقع. اندفعت الطفلة الصغيرة التي كانت ترتدي ثوباً قصيراً بالياً نحو ساحة المدرسة الكبيرة. كنت لا أزال واقفاً. دقّ الجرس الثقيل للمرة الأولى. قالت حبيبتي:

ـ سيكون عندنا أطفال كثيرون.

رغبت في قول شيء ما، فقلت لمجرد القول لا غير:

ـ عندما تمطر قططاً سيكون ذلك.

تفقدت وميض عينيها البهي. وجدته قد سافر دون إشعار. فقلت من دون تفكير:

ـ هذه السماء عاقر مثلي.

لم أنتبه لنفسي. كنت أدخل المدرسة. كانت الساحة الكبيرة مفروشة بالحصى. وكانت أشجار الكاليبتوس المغروسة من غير نظام، تقف بلا إرادة. قلّبت نظري في كل الجهات. قبل هنيهات، كان الجرس الثقيل قد دقّ للمرة الثانية، وكان الأطفال؛ كل الأطفال داخل أقسامهم. تقيّأت، تعبي وأشياء عمري المرهق، ثم تقدمت في اتجاه أقرب قسم. دفعت الباب. وقف الأطفال، كل الأطفال وقفوا احتراماً أو خوفاً. لم أفكر طويلاً. بدا الارتباك والتوتر على وجه المدرس الذي لم يكن عمره يتعدى العقد الثالث. خمنت أني أكبره بسبع سنوات على الأقل. تطلعت إلى آخر القسم. كان هناك مقعد واحد شاغر. جلس الأطفال. جلست في آخر القسم. استطاع المدرّس وبصعوبة كبيرة أن يتخلص من عقدة لسانه. جمعت يدي فوق المقعد كما كنت أفعل دائماً. سعل المدرّس. حاول أن يتحاشى النظر إليّ. قال وهو يواصل حديثاً غائباً:

ـ من كم فصل تتكوّن السنة!؟

ارتفعت الأيادي والأصابع. ومن دون شعور رفعت يدي وأصبعي إلى أعلى. أخفى المدرّس الحليق الوجه ابتسامة ماكرة. رددت في سري: يظنني مفتشاً أو أي شخص آخر مرهوب الجانب! كان أصبعي لا يزال مرفوعاً. أخذت الكلمة الطفلة التي شدتني في الخارج. قالت وهي تجاهد على أن ترفع من صوتها الخجول:

ـ تتكوّن السنة من أربعة فصول.

قاطعها المدرّس وهو يقول ببرودة:

ـ أحسنت!

عدت إلى جمع يدي من جديد فوق المقعد. كانت هناك خربشات طفولية فوق المقعد. رسم حمامة وبندقية وكلمات كثيرة نابية. استتلى المدرّس، مرة أخرى، قائلاً:

ـ وما هي هذه الفصول!؟

ارتفعت أيادينا وأصابعنا دفعة واحدة، وارتفعت معها أصواتنا وصياحنا. حمل المدرّس الذي كان يضع نظارات بيضاء، المسطرة الحديدية الطويلة. أشار إلى طفل كان يجلس في الصف الأول من الباب وقال: أنت!

أجاب الطفل الذي لم أر وجهه:

ـ الفصول هي: فصل الربيع وفصل الشتاء وفصل الصيف وفصل الخريف.

تشنّجت قسمات المدرّس، وصاح بانفعال:

ـ بالترتيب؟؟

خيّم السكون على القسم كله. قالت حبيبتي في فرح:



ـ سيكبر أطفالنا وسنكبر نحن!!

تساءل المدرّس وهو يحاول أن يخفي توتره الغاضب:

ـ من يذكرها بالترتيب!؟

لم يجبه أحد. كانوا صامتين كنجوم المدينة في آخر الليل. أجهدت تفكيري في البحث عن الجواب. لم أدر كيف اختلطت عليّ الأمور بغتة. نكست رأسي. كانت هناك خربشات طفولية فوق المقعد. همستُ: يظنني مفتشاً أو أي شخص آخر مرهوب الجانب! انتهيت. تملكني ذعر وانقباض. صرخ: أنت في آخر القسم!

نظرت حوالي. تساءلت في بلادة وخبث: أنا!؟

قال: نعم أنت!

بحثت عن شجاعتي ورباطة جأشي. لم أجد شيئاً. وفوق المقعد، كان هناك رسم حمامة وبندقية وكلمات كثيرة نابية! وقفت وأنا لا أستطيع الوقوف. قلت بصوت جاف: لا أدري.

انفجر القسم ضاحكاً. ضحك الأطفال، كل الأطفال ضحكوا. اقترب مني الملعون. همستُ: يظنني مفتشاً أو أي شخص آخر مرهوب الجانب! قالت حبيبتي: لماذا تحب القطط!؟

فكرت. باغتني صاحبي الصغير الذي كان يكره المدرسة، وهو يقول: هل تعرف أن القطط لها سبعة أرواح؟!

كان صاحبي الصغير يتيماً. وكان يربي قطة شقراء جميلة. بعد مدة دهست سيارة عابرة قطته الشقراء الجميلة. بكى عليها. بكيت معه عليها. دفناها جميعاً. وأمام قبرها الترابي أقسمت بأن أحب القطط جميعاً ما حييت. قلت لحبيبتي وأنا أتذكر صاحبي الصغير الذي صار مجنوناً من مجانين المدينة المشهورين: هل تعرفين أن القطط لها سبعة أرواح؟!

كان الصمت المرعب يرين على القسم كله. دفنت يدي في جيبيّ معطفي الأسود الثقيل. صاح المدرّس في وجهي بحقد: هات يدك.

تطلعت إلى الخارج من خلال النافذة الزجاجية. كانت الساحة الكبيرة ساكنة وبلا حراك. وكان ثمة برد لاسع وغبار ثائر وسماء لا تزال غائمة. دفعت له يدي. انهالت عليها المسطرة الحديدية الطويلة. احترقت كفي من الألم. فكرت في أكثر من شيء. لم أملك نفسي فاندفعت باكياً بصوت عال. تعالى نشيجي. قال صاحبي الصغير قبل أن يفقد قطته الشقراء الجميلة بزمن قصير:

ـ أخبرني جدّي أنه في يوم من الأيام، وفي مدينة بعيدة أمطرت السماء قططاً.

تحديت أفكاره التي كنت أجهلها وقلت:

ـ لا أصدق!

كنت أبكي وحدث ما لم أكن أتوقعه. مسحت أدمعي. قام الأطفال، كل الأطفال وقفوا. اندفعوا نحو المدرّس الذي كان يضربهم كثيراً. أسقطوه أرضاً. سقطوا فوقه. كان يصيح ويستغيث. كنت واقفاً وكنت أفكر في شيء مغتصب. ارتفعت أصوات الأطفال عالياً. حاولت الخروج. خرجت. خرجوا ورائي. جريت. جروا خلفي. كنت أبدو بحق كمخمور مترنح بينهم. خرج مدير المدرسة الذي كان يرتدي بذلة جديدة، من مكتبه. خرج جميع المدرّسين والمدرّسات. خرج كل الأطفال من كل الأقسام. ملأوا الساحة الكبيرة. تحلقوا حولي. كانوا يتحلقون حولي. رغبت في إشعال سيجارة. تذكرت العلبة الفارغة ولون السماء الرصاصي الداكن والخربشات الطفولية. حنقت. أخذ الأطفال فجأة يقذفون كل شيء. كسروا زجاج النوافذ والمصابيح وواجهة المكتب الإداري. فكرت في صاحبي الصغير. قالت حبيبتي:

ـ سيكون عندنا أطفال كثيرون.

تساءلت في حيرة:

ـ أنّى للعاقر بذلك!؟

بحثت عن المدرّسين والمدرّسات. كانوا قد اختفوا. حدست أن المدير القصير يفعل شيئاً ما. لم أشأ أن أفكر. ولم أفكر. أخذت أقذف كل شيء مثلهم. سقطت الطفلة الصغيرة أمامي. ساعدتها على القيام. كانت حافية القدمين. ابتسمت في وجهي كوعد جميل في يوم بعيد. قرصتها في خدها الوردي. كانت الساحة الكبيرة المفروشة بالحصى، ممتلئة بالأطفال والضجيج وصدى الانكسار. ومن بعيد، تبادرت إلى مسمعي أصوات طفولية أخرى كانت في الخارج. بتسمت على الرغم مني وبصدق. تطلعت إلى السماء. كان اللون الرصاصي داكناً. تنفست بعمق. انتبهت إلى بعض الخزات الباردة من المطر. صحت بانتشاء:

ـ إنها تمطر!

صاحت الطفلة الصغيرة الحافية القدمين:

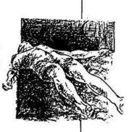
ـ ستمطر قططاً!

صاح الأطفال. كل الأطفال هلّلوا. كانت بوابة المدرسة الخارجية تهتز. فتحها أحد الأطفال من الداخل. بدأت الأمطار تتساقط وبغزارة. كان الفرح يطل بألوان قزح من كل العيون. سقطتُ. فاجأتني الطفلة الصغيرة، التي كانت تقفز، بقبلة ندية خفيفة. قمتُ. أخذت أقفز مثلها. امتلأت الساحة الكبيرة المفروشة بالحصى تماماً. كانت هناك حشود أخرى من الأطفال في الخارج. كان الكل يقفز ويصيح بصوت واحد، وكنّا كلنا نترقب بلهفة وجنون سقوط القطط. □



آخر تحليقة لنورس مهاجر

محمد عبد الرحمن يونس



■ قبة السماء في يافا تنحني رويداً رويداً، تشكل قوساً دائرياً، يحتضن الأفق، والبحر الميت، وصفصافات الخانات التي تعبت من فتح أبوابها لكل هؤلاء الذين يقدمون إليها ضيوفاً، طالبين شمسها ونخيلها وبياراتها. وما أن تكتسي أجسادهم بشمس الصيف وسعف النخل حتى يبدأوا في اصطياد القبرات والنوارس. وفي هذه المدينة التي عاشت قروناً محتمية بأستار السماء والشموس الدافئة، وقمم الصخور الشامخة، تعلم الناس أن يزرعوا جبين الشمس بالياسمين واللوتس، وبيارات الكلمنتينا، وفي المساء يعودون إلى أحضان نسائهم، ويقدمون لهن رأس شمشون على سعف النخل.

وعاشت النساء والصبايا ينسجن طواقي مزخرفة لبناتهن وأولادهن أيام أعياد الميلاد وشهر رمضان المبارك. لم يفكر أحد من رجال المدينة أن يخترق قبة السماء، ولا أقواسها الدائرية، فالرجال قلما يسافرون عندما تحضر الأماني طيعة، وسيوفهم قلما تصدأ طالما هي شاقة أنهاراً وأودية وبحاراً جديدة.

لم يتوقع أحد في المدينة أنّ هؤلاء الغربانَ الجدد الذين يتسترون بكرم ضيافتها وشهامتها الكنعانية العريقة سيفرخون الجراد، ويقطفون القمر والشمس والكواكب والخلجان.

استيقظت المدينة ذات صباح على أسراب الجراد والبعوض تقيم طقوساً واحتفالات جديدة لم يعهدها سكان المدينة من قبل. وفجأة تصدع القمر، وقررت الشمس الأفول، ولم يستطع أحدٌ اقناعها بالبقاء، فبكى نورس رمادي أسفاً، وحلق عالياً محاولاً أن يستجلي المعالم الواسعة لقبة السماء العريضة التي أخذت في الذبول، فبدت له هالة بلورية مقفولة الأطراف.

تابع تحليقه: أيتها المسافات البعيدة.. اقتربي، فعندما تختنق الأرض بالدسائس والسيوف المثلومة، وتخاذل الآباء والأجداد وأبناء العمومة والجيران والخلان والأحبة، لا بد من خلان جدد، وأشرعة جديدة.

الفضاء والأفق والذكريات الملفعة بالحنين والسنابل الطرية والأرض التي تستطيل حتى البحر، كانت هاجسه المسكون بالوجد والصبابة.

شدَّ عزيمته. فَرَدَ جناحيه قوياً. أصبح الوصول إلى خط الأفق حلماً يراود ذاكرته المأخوذة بخيانات الأجداد وسيوفهم الصدئة، وبنادقهم التي تطلق صوب صدورهم.

البارحة حلقت أسراب من أصدقائه. لا يدري إلى أين، لكنه تأكد أنها لن تحلق إلى أبناء عمومته، فالزير لن يأخذ بثأر كليب، أعمته الشهوة والخمر وجواري أعدائه، وقرر أن يصالح قاتلي خاله.

ترحل النوارس والسنونوات. وكثيراً ما تحلق، لكنها قلما تبوح بأسرارها، فالسر والمنفى وطن للرحيل والمرافىء والمنائر. وقلما يبوح نورس بمنفاه، فرماح العشيرة والقبيلة تمتد من الصحراء حتى بوابات البحر، ووزراء الطوائف يسكرون ويغنون على أنغام خوليو ومايكل جاكسون، وراقصات الستربتيز، وقصائد اتحادات كتاب العرب ومؤسساتهم الرسمية، ويكتبون التقارير الرسمية.

تسافر السماء بعيداً، والمافيا العربية تخلط الصودا بالويسكي الوطنية، وتستحضر راقصات من هونكونغ ونيويورك، وتدق الطبول معلنة أن الساعة حانت. ومولانا طويل العمر يشيد مدناً نموذجية، ومسابح، وفنادق هوليدي إن لكي ينعم الزوار الكرام بدفء الصحراء ونخيلها، وهامات رجالها السمر.

ومنظر الأفق الممتد حتى آخر بوابة في مدائن العزلة يثير في أعماقه توقاً إلى البوح بما في الذاكرة من أحلام ورؤى.. إنها المرة الأولى التي يسافر فيها.. ويبكي. وما أصعب أن يودع المرء صفصافاته وبرتقالاته! وما أصعب أن يجتث الأخوة والأقارب والجيران فرح البرتقال، ويقدمونه لقاتلي الحسين وكليب!

منذ صغره كان يكره الصيادين. وعندما كان يشاهدهم يلتفون بأحزمة محشوة برصاصات خارقة، ويتأبطون بنادق قديمة مثقوبة طولياً وعرضياً في كافة أطرافها كان يبصق ويتقيأ على هامات أجداده رجال ألف ليلة وليلة، الذين ما تركوا جارية إلاّ وأجبروا شهرزاد على تقديمها لهم على أطباق الفضة والزبرجد الأحمر والأطلس الفاخر، وأحس أن الرصاص الطائش الذي يطلقه أبناء العشيرة والأعداء، والذي تعود الأزيز والرقص قلما يفرق بين الخاصرة والرأس، بين البحر والصحراء، بين الرجل والمرأة، بين العدو والصديق.

في الآونة الأخيرة، صار قلقه غيمة وضباباً. ولأول مرة ارتعد لمنظر الصيادين الجدد. وفي سنوات الطفولة المبكرة لم يسبق له أن خاف أحداً، فالأفق والشمس والحقول والشوارع، كثيراً ما كانت تشعره بالطمأنينة والأمان. وواجهات المآذن والمساجد كانت قبلته. كان يحلق فوقها يراقب جموع المصلين المبتهجين، ويغرد فارداً قلبه وجناحيه لبهجة الأعياد وأيام الجمع. وهاهي الأيام تتبدل كواجهات الشوارع والمحلات التجارية، وتفرخ الصيادين والبنادق المستوردة من قاع العالم البعيد.

وفكّر هادئاً: لِمَ يدخل هذه اللعبة؟

فحتى لو فكروا في اصطياده فلن يستفيدوا شيئاً. وظنَّ أنه لا يمكن أن يباع نورس لم ينبت زغبه بعد في أسواق المدينة الجديدة التي بدأت تغص أماسي الأعياد بالمذبوحين غيلة من أجناس مختلفة.

كان يعتقد أنه لم يأت بعد الزمن الأحمق الذي يشتري فيه الناس طيوراً مهاجرة، لا تعرف متى تغتال.

إذن ليحلق ويهاجر قبل استفحال الوباء الجديد. اشتعلت ذكرياته

الدفينة، وأحس أن السنين الجميلة التي عاشها في بيارات قرب جداول أليفة، وفي مساحات الأرض الدافئة الشاسعة، باتت باهتة الآن.

الغيوم السوداء تغطي الأفق، ووجه السماء الشاحب اقتلعته الغيمة من ذكرياته المتداعية الشفافة المدفونة في الأعماق.

راقب السماء العريضة ملياً. لا أثر لأصدقائه في أي طرف منها. رحل الأصدقاء، والأحبة طاروا.. ما ودعوه. لا بد أن يلقاهم ذات يوم. فكر ملياً: إنّ أية محاولة للّحاق بأسراب الخلان الذين سبقوه تكاد تكون مستحيلة.. متاهة لا يعرف أين تودي به.

أحس بتعب مرّ يحيطه، والفضاء البعيد الخاوي يفرض حصاراً من العزلة حوله، والمسافة بين بصره والأفق الذي يقصده مائة عام من الترحال.. وكيف الوصول؟

حاصرته خيبة داخلية. ماذا يعني أن تهاجر وحيداً؟ وماذا يجدي هذا الطيران؟ فالأفق سروة جميلة شامخة، وقد تكسر جناحاي. لم ألتقط حبة منذ يومين رغم أن قمح مدينتي لا يضاهيه إلّا الأكواخ القصديرية المزروعة في جسد المدينة وجبالها وأوديتها. وفكر جريئاً: لأهبطنّ في أول روضة تلوح لي.. رغم العقبان والنسور الجارحة التي تزرع مساءات الرياض الحزينة، لا بُدَّ أن أهبط...

خفف من حركة جناحيه، وهبط الأرض.. بدت خضراء صافية. كان المساء طرياً، وبراعم الزهر تنشد أناشيد حزينة ومواويل شعبية. وقف على غصن شجرة تنشر ظلها وارفاً فوق بركة الماء. زوى بصره في الاتجاهات القريبة والبعيدة، فالحيطة في زمن القنص والغربان ضرورية. لم يستكشف شيئاً. كل ما حوله يوحي بسكينة.. الماء والجدول والصفصافات.. عبق أخاذ ينسج مواويله من الزنابق وعيدان القصب المنتشرة على ضفة الجدول، ولا أثر لنسور ولا لعقبان. أحس طرباً ملأ كيانه، وتذكر أغانيه القديمة، وبدأ يغني..

واستشعر بكاءً صامتاً فبكى، وتذكر جليلة والزير سالماً، وشهرزاد آبائه وأجداده.

أحس بصوت هامس وحركة خفيفة تنبعث من أدغال القصب. اقترب. صخب الحركة يزداد. كانت امرأة شابة تعري الأيام ونفسها بمهارة وخفة، لم يشهدهما طيلة حياته. فردت شعرها خصلة خصلة، وقفزت سابحة وسط بركة الماء. هكذا كانت أمه وعشيقته وأخته يسبحن أيام كان البحر أزرق صافياً. وتمنى لو أنّ أمه وأخواله اختاروا له صخرة آمنة لما رحل. بدا ثدياها الخضراوان زورقاً، وقد شد أشرعته صوب مرافىء الأمان. جسد عاجي حرك كوامن سبحاته القديمة... وكوامن أقدم أجداده الصوفيين الذين أنبتتهم هذه الأرض المعطاءة ساعات الغفلة.

رائع أيها المرمر الحريري. شبقة بالغضب هذه السبحات التي تهتز من الصباح إلى المساء، لكنها لا تهز سروة ولا مئذنة. لأطلبنّ منها ساعة وصال. كانت الرغبة والحرمان والمسافات البعيدة والأحلام العريضة تهتاج. تحت ضوء القمر أغنيها، افترشها خيمةً.. سكناً.. جسداً.. تاريخاً ووطناً وشراعاً يحملني صوب أحبتي، والأرض المعطاءة.

أحدث النورس صوتاً. صفق بجناحيه، وغنى أقدم أغنياته، وعانق الشجرة الصفصافة. اهتزت البحيرة وجسد المرأة. كانت المسبحة والصوت يرتعشان. رفعت الشابة رأسها. مسحت بقية قطرات عن عينيها الخضراوين. راقبته مبتسمةً، وأحست بالسعادة لعريها أمام أبي نورس شاهدته منذ سنوات خلت. لوحت له مبتسمةً، وطلبت منه أن يغني. غَرّد عاشقاً. ما أجمل لقاء المسافر بالحبيبة حينما يستخفي الحلم الوردي، ويكمن متلألئاً في خفقات البوح والحنايا!

*

عندما أفلتت خيوط الشمس مودعة، خرجت الشابة، وجمعت ثيابها. تأبطتها، ومشت عارية في طريق ترابي ضيق تحيط به أدغال القصب والبردي.

لم تختف الشمس بعد. لا تزال بقية نور. وما قيمة النجمة إذا لم تطلع؟ أستطيع التحليق والرحيل في ضوء النجمة. قال النورس.

وشيع المرأة بنظرات وارفة بالحنين، ولوحت له بسروالها الداخلي. رفرف بجناحيه. ارتفع. طار حاملاً أمانيه وصفاء عيون النساء اللواتي شاهدهن على البحيرات وفي ساحات المدينة.

عربدت الأرض، وعربد الصيادون، وأمطرت السماء أسيداً وقطراناً. وهاهو الرصاص الطائش يحرق هامات السرو بينما كان الأجداد الصالحون يفترشون عباءاتهم على المصاطب الجديدة، ويدخنون نراجيلهم العثمانية العريقة، والسندباد البحري يحكي لهم آخر مغامراته في جزر المرجان والنحاس وعشقه لنساء الروم والمجوس، وجمعه الأصداف واللآلىء.

أما الأحفاد البررة فقد كانوا مجتمعين حول حلقات الدلالين لشراء الجواري ذوات البطون الألماسية، والسيقان المصقولة كأعمدة الهياكل والمعابد التي استوردت خصيصاً من ايطاليا وتايلاند والفلبين.

وفجأة عربدت الرصاصة، وخرجت مُحكمة من بندقية أميركية جديدة كان يحملها صياد تعلم القنص منذ نعومة أظافره. اخترقت صدر النورس. تهاوى نازفاً بؤبؤ عينيه، وسقط بجوار البركة.

وكانت الشمس الأليفة تودع الغدران، والبحيرة استسلمت لنوم هادىء عميق. تطاير ريش جناحيه، وغطى الحقول والمزارع والسنابل الغضة التي كانت تتطاول شامخة.

سربٌ من النوارس كان مهاجراً بعيداً إلى الأفق الغربي، هبط بجوار البحيرة. شرب. شاهدت النوارس النورس القتيل فكفنته ببرودة، وحملت بقاياه قاطعة مسافات إلى الآفاق القطبية حيث كانت دائرة القطب تقيم أعراسها وطقوسها الموسمية بينما كان السندباد يشد قلوعه استعداداً لرحلته الثامنة، وشهرزاد لا تزال تغني أحدث أغنياتها التي لحنها ابراهيم الموصلي للأجداد الميامين الذين عرفوا كافة المقامات والطارات والصنوج، وصنوف الرقص:

وعد الحبيب بوصله ووفى لي ... في ليلة ساعدها بليالي
يا ليلة سمح الزمان لنا بها ... في غفلة الواشين والعذال
بات الحبيب يضمني بيمينه ... فضممته من فرحتي بشمالي
عانقته ورشفت خمرة ريقه ... وحظيت بالمعسول والعسال(*) □

(*) الأبيات الشعرية مأخوذة من ألف ليلة وليلة.